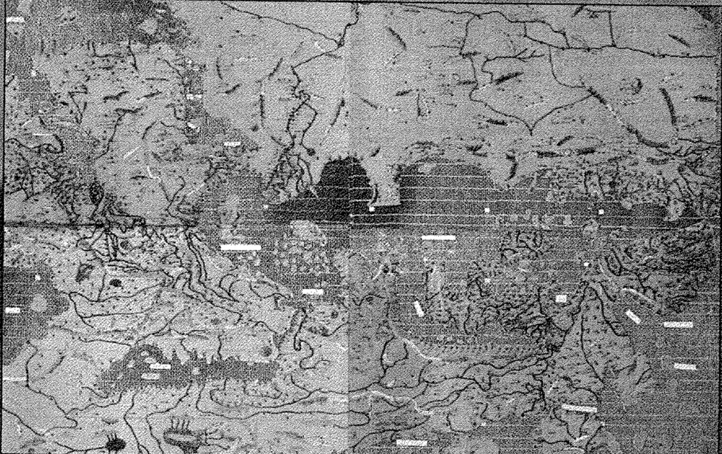
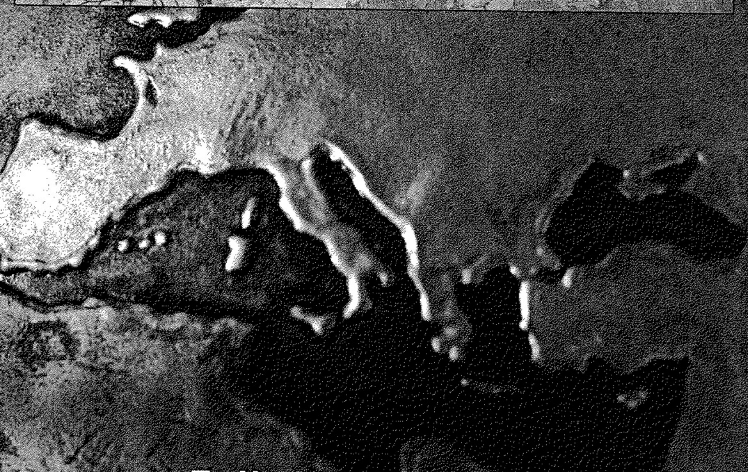
تصورات
البحر الأبيض المتوسط

المتوسّط الفرنسي

تييري فابر
جان كلود إيزو





THALASSA

GIFTS 2006

Dr Michael Lange

Cairo

تصورات البحر الأبيض المتوسط

المتوسّط الفرنسي

تييري فابر

جان كلود إيزو

جروب

معينَ التاريخ
لأهل التارِيخ

THALASSA

تصورات البحر الأبيض المتوسط

برنامج أبحاث بإشراف البيت المتوسطي لعلوم الإنسان

منسق البرنامج : فرانسوا سيينو
سكرتيرة التحرير : جيزيل سايماندي
منسقة النسخة العربية : ماري تريز زهر

رعى البرنامج كل من :
الاتحاد الأوروبي
وزارة الخارجية الفرنسية
المؤسسة الأوروبية للثقافة
مؤسسة رينيه سايدو للعالم المتوسطي
منطقة بروفانس آلب كوت دازور
مقاطعة بوش دي رون

شكر خاص لمؤسسة الملك عبد العزيز في الدار البيضاء
وللجامعة اللبنانية في بيروت لاستقبالهما

الغلاف :
خارطة محمد الإدريسي وهو جغرافي عربي توفي سنة ١١٦٦ .

تم نشر هذه المجموعة أولا باللغة الفرنسية في
دار ميزونوف إي لاروز Maisonneuve & Larose
أما الترجمة إلى العربية فهي بالتعاون مع
مؤسسة كونراد أديناور وتحت إشرافها

Konrad
-Adenauer-
Stiftung

تـــصـــوّرات
البـحـر الأبـيـض المـتـوسـط

بإشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

المتوسّط الفرنسي

تييري فابر

جان كلود إيزو

T H A L A S S A

تييري فابر / جان كلود إيزو

المتوسط الفرنسي – بيروت : منشورات تالاسا ٢٠٠٣

Printed in Lebanon

DYNAMIC GRAPHIC
ISBN: 9953-422-41-9

تييري فابر

فرنسا والمتوسّط، أصولٌ وتصوّرات

ترجمه عن الفرنسية بسام حجّار

الحضارات هي مصنع الكلمات كما هي تُصنَع بالكلمات. إنّها تلقّن الإنسان الفراغ والفصل اللذين يجعلان الكلام ممكناً.

بيار لوجاندر

> «للكلمات تاريخها. إنّها تنبثق وتطفو وتشكّل إدركاتنا الحسيّة ومناحي تفكيرنا، وهي تعثر على موضعٍ لرسوّها في خارطة أفكارنا قبل أن تغمرها مفاهيم أخرى.»[١]

ما تلاحظه لوسيت فالنسي بشأن مفهوم «الاستبداد الشرقي» الذي صاغه سفراء البندقيّة لتسفيه الباب العالي والتنكّر لشرعيته، قد ينطبق على المتوسّط. لا لأنّ الغرض يقتصر على التأريخ لكلمة، الأمر الذي قد يبدو نزوعاً إسمياً ومفرطاً في ميله إلى الاختزال، بل لأنّ الغرضَ هو التمحيص في تصوّراتٍ لمجموعةٍ معقّدة : «الـ» متوسّط.

كيف السبيل إلى الإحاطة به ؟ انطلاقاً من مقاربةٍ نَسَبيّة. علماً بأنّ النَّسَبَ هنا معرَّف بالمعنى الذي شاءه دولوز في تعليقه على نيتشه:

> «النّسب يعني في وقتٍ معاً قيمة الأصل وأصل القيم. فالنَّسبُ يتعارض مع الطابع المطلق للقيم كما يتعارض مع طابعها النِسْبي أو النفعي. النَّسب يعني العنصر التفاضلي للقيم الذي منه تستمدّ قيمتها في حدّ ذاتها. النَّسبُ يعني إذاً الأصل أو المنشأ، لكنّه يعني أيضاً الاختلاف أو الفترة في الأصل.»[٢]

إذ ذاك لا تعود الإحاطة بـ «الـ» متوسّط ممكنةً عبر البحث عن أصالة مفترضة أو عن ماهية خادعة، باعتبار أنّ البحث عن الأصل يبقى، في الواقع، مصحوباً بـ «الفترة في الأصل». فما سوف نسعى لبيانه ليس هويةً – للمتوسّط – تبقى، بأية حال، وهمية. سوف نعمد هنا إلى اعتبار «الـ» متوسّط موضوعاً علمياً معقّداً، بقاعاً غائمة التخوم تشكّلت عبر التاريخ، وسوف نسعى لتتبُّع تنويعاته وتحولاته. الغرض إذاً هو تتبُّع نَسَبٍ متعدّد ومتشعّبِ الفروع، والانطلاق في دراسته من نظرة، من نظراتٍ يطلقها بلد – هو فرنسا – على إقليمٍ قريب منه. ذلك أنّ «الـ» متوسّط في المعنى

المتداول اليوم للعبارة، لم يكن موجوداً على الدوام.

سوف نسعى إلى فهمٍ أفضل لتغيّرات المعنى الذي يُسبَغُ على هذا الإقليم وتبيان العناصر التي انطلاقاً منها تتمّ مثل هذه التنويعات. يمكن القول إن ما نحن بصدده هو، على نحو ما، محاولة، أو مخطّط إجمالي، «لأركيولوجيا المعرفة» حول المتوسّط. والحقّ، كما يقترح ميشال فوكو بشأن «تشكّل الموضوعات»، إنّ غرضنا هو :

«تعريف هذه الموضوعات دون الرجوع إلى عمق الأشياء، ولكن عبر ردّها إلى مجمل القواعد التي تتيح تشكيلها كموضوعات خطاب، مشكّلةً بذلك شروطَ نشأتها التاريخية.»[٣]

ما هي شروط النشأة التاريخية للخطابات حول المتوسّط ؟ ذاك أحد الأسئلة البارزة في دراستنا. إذ نقترح على أنفسنا، في سياق البحث، أن نبسط الطبقات المختلفة التي صاغت، وما زالت تصوغ إلى اليوم تصوّر/ تصوّرات المتوسّط، منظوراً إليه من فرنسا. لا يمكن لهذه الطبقات أن تُقَطّع إلى شرائح محدّدة من المعارف. إنّها تتداخل وتتمازج ويغطّي ويحجب بعضها بعضاً. ولا تملك الكتابة، وهي بالضرورة خطية، أن تعبّر إلاّ على نحوٍ منقوص، عن تعدّد الأصوات التي تتألف منها هذه التصوّرات.

المتوسّط، موضوع خطاب. فإلى إسهام ميشال فوكو الفلسفي والإبستيمولوجي يضاف إسهام بول ريكور ومعنى «الهوية السردية» :

« إنّ معنى الهوية السردية، التي ورد ذكرها في « الزمن والسرد – الجزء الثالث »، كان يجيب عن مسألة أخرى : ففي ختام رحلة طويلة عبر السرد التاريخي والسرد الخيالي، سألت نفسي عمّا إذا كان ثمّة بنية للتجربة قادرة على احتواء طبقتي السرد الكُبرَيين.

فصغتُ عندها الفرضية التي تقول إنّ الهوية السردية، سواء

كانت لشخصٍ بعينه أو لجماعة، قد تكون هي الموضع المنشود لقَلْبِ العبارة ذاك بين التاريخ والخيال.»[٤]

ألا يقيمُ المتوسّط حقّاً، وهو موضوع خطابات تاريخية وسرديات خيالية، في موضع قلبِ العبارة هذا ؟ ألا يقع عند تقاطع التاريخ المُثْبَت والنصوص الأدبية التي تعطي شكلاً لمتخيَّلٍ/ لمتخيّلات عن المتوسّط ؟ والمتخيّل المقصود هنا هو في المعنى الذي شاءه دولوز : «المتخيّل ليس هو اللاواقع، بل المتعذّر تمييزه من الواقع واللاواقع»[٥]، عالم وسيط بين الخطابات الوقائعية والخطابات الخيالية.

إنّ دراسة تصوّرات المتوسّط هذه والمبنية على مساءلة الخطاب بشأن هذا الإقليم، سوف يقتصر إجراؤها على قاعدة مدوّنةٍ، غير حصرية بأية حال، من النصوص المكتوبة. ما من رسوم إذاً، ولا صور فوتوغرافية أو أفلام، على الأقلّ في المرحلة الراهنة من بحثنا.

وسوف تمحّص التصورات على ضوء المنحى الذي اقترحه روجيه شارتيه عندما لاحظ :

«أهمية معنى التصوّر الذي يتيح الربط بين ثلاثة مستويات من الواقع : من جهة، التصوّرات الجمعية التي تدمج انقسامات الوسط الاجتماعي وتنظّم ترسيمات الإدراك التي، انطلاقاً منها، تبني أحكامها وتفعل ؛ ومن جهة أخرى، أشكال استعراض وأسلبة الهوية التي تريد أن تظهرها ؛ وأخيراً، تفويض ممثلين (أفراداً ومؤسسات وأنصبة مجرّدة) بتماسك هويتها واستقرارها على النحو الذي أقرّته. هكذا يكون تاريخ إنشاء الهويات الاجتماعية قد استحال تاريخاً لموازين القوة الرمزية.»[٦]

يخضع تحليل تصوّرات «الـ» متوسط، كما سنرى، «لموازين قوة رمزية»، بين فاعلين مختلفين يستنفرون التقاليد والموروثات المتمايزة.

بالإضافة إلى ذلك، فإنّ مقارنة تصوّرات «الـ» متوسط عبر التاريخ تتخذ بعداً دولياً. والحقّ أننا لسنا في معرض مقارنة ضمن حدود مرسومة، من شأنها أن ترصد التعارض بين فاعلين مختلفين على ساحة قومية واحدة. ذاك أن كلّ خطابٍ حول «الـ» متوسط له أصداء خارجية، ويُثقل على التموضع الدولي للبلد الذي يُتَداوَل فيه.

لذا فإنّ تصورات «الـ» متوسط هي جزء لا يتجزأ من السجال الاستراتيجي، بمعنى «الاستراتيجية الكبرى»، كما يعرّفها ألان جوكس. فالواقع،

> «أنّ الاستراتيجية، بحسب الخبير الاستراتيجي البريطاني الكبير ليدل هارت، هي «فن توزيع وتطبيق الوسائل العسكرية لبلوغ غاياتٍ سياسية». وهذا تعريف على مفترق عالمينا الاثنين : تعريف أوروبي، أي كلاوسفتزيّ ومدني الغرض، غير أنّه أنكلوساكسوني، أي ذرائعي (براغماتي) ويقصر الإشكالية الاستراتيجية على الميدان العسكري ويرفض إذاً أن تكون السياسات نتاجَ تفاعل. لذلك أضحى هذا التعريف قاصراً، وساذجاً بمعنى ما، لأنّه لا يُجمل الوعيَ بمستوى التصورات (والتشديد لألان جوكس) في صلب «الفنّ الاستراتيجي». فالواقع أنّ غايات السياسة نفسها مرهونة بالتصوّرات الكبرى التي تكيّفها، عبر سياق زمني طويل، الذاكرة التاريخية للنزاعات، والموقع الجغرافي والحياة الاقتصادية للمجتمعات. فتحليل التصوّرات العادية للمكان والزمان في مجتمع متعيّن يشكّل إذاً جزءاً من الأهلية الاستراتيجية للفاعلين الذين يؤكّدون حضورهم في هذا المجتمع. إنّ هذا الشكل للعالم المُعاش، لأسباب جغرافية وتاريخية، ليس هو نفسه إذا نُظر إليه من الولايات المتحدة (الأميركية) أو من أوروبا. ومن هذه الجمالية المتباعدة المجسّدة بمعايير أخلاقية تتولّد أخلاقيات أخرى للمكان والزمان، كما تتولّد، في آخر الأمر، سياسات أخرى واستراتيجيات أخرى. غير أنّ وعي «الحلقة الارتجاعية» هذه تفرض علينا مقاربة الاستراتيجيات من منبعها، أي على مستوى التصوّرات.»[٧]

مثل هذه «العودة إلى المنبع» هي ما نقترحه غرضاً لنا في هذه الدراسة التي تتناول تصوّرات المتوسّط من وجهة نظر فرنسية.

لذلك، وانطلاقاً من المقاربة النَسَبية المتعدّدة التي نقترحها لعملنا، نرى أنّ عدداً من الأسئلة تطرح نفسها بنفسها : ما هي التواريخ الرئيسية، وأشكال الخطاب، وأنماط الفاعلين، واختيار الموروثات وميادين الارتكاز التي تنطلق منها تصوّرات المتوسّط ؟

أسماء المتوسّط أو تحوّلات إقليم

إنّ تاريخ اللغة الفرنسية هو منظور أوّل يمكننا من خلاله أن نتبيّن التفرّعات المشتقّة من الأسماء المختلفة «للـ» متوسّط. ذلك أنّ هذه التفرّعات الحادثة اتفاقاً تشير، في كثافة اللغة وتنويعاتها عبر الزمن، إلى أشكال بروز لفظةٍ بدت، أولاً، غائمة الحدود.

وإذا كنّا لا نستطيع هنا أن نقوم بتمحيصٍ معجميّ ومنهجيّ شامل، فنحن نستطيع على الأقلّ أن نشير إلى الألفاظ المرجعية الرئيسية.

بحسب «قاموس اللغة الفرنسية القديمة، من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر»،

> «الذي تمّ إعداده إثر تدقيق في كلّ الوثائق المخطوطة والمطبوعة ذات الأهمية والتي وجدت في كبريات المكتبات الفرنسية والأوروبية وفي مراكز المحفوظات الرئيسية للأقاليم والبلديات والمستشفيات أو في المحفوظات الخاصّة»[٨]

بدأت لفظة المتوسّط بالظهور ولكن في صيغة مختلفة عن الصيغة التي نعرفها لها اليوم.

نذكر هنا لفظتين متجاورتين : «Mediterrain, mediterran»، وهو نعتٌ معناه «الواقع في وسط الأقاليم».

بهذا المعنى يتحدّث دوبيلي (Du Bellay) عن «غيضة منسِغةٍ

في نواحي البقاع المتوسّطة»؛ وفي موضعٍ آخر ذكرٌ آخر للعبارة : «Mediterrienne، نعت، مؤنّثه، méditerranée». باتت اللفظة تستخدم لنعت بحر «Mediterrienne»، من دون أن تتضح، مع ذلك، هذه التسمية.

في «قاموس اللغة الفرنسية للقرن السادس عشر»[٩]، تبدو المراجع على قدر أوفى من الدلالة والدقّة. «Mediterrane Mediterrain, Mediterran,» ما يقع وسط الأقاليم. (...) المقيم وسط الأقاليم. «ومنذ ذلك الوقت : Mer Mediterrane ، البحر الأبيض المتوسّط " الليغوريون " المبحرون في عرض البحر المتوسّط.. يعرقلون الملاحة ويعترضون البضائع. آميو، بول إميل، ٦».

كما ذكرت عبارة «Mediterranee ، الواقع في وسط الأقاليم». «هذه المنطقة تكاد تكون متوسّطية بأسرها، أي أنّ لا ناحية من أقاليمها مجاورة للبحر. Thevet, Cosmogr, VII, II». كما نعثر على ذكرٍ واضح لعبارة «Mediterriienne (بحر)».

في «القاموس الجامع» لأنطوان فوروتيير[١٠]، ذكرت لفظة «Mediterranee» بوصفها نعتاً للمذكّر والمؤنث، وتعني : «المحاط بالأقاليم». وتبّعت بإيضاحٍ على قدر من الأهمية : «تطلق خاصّة على هذا البحر العظيم الذي يدخل الأقاليم عبر مضيق جبل طارق ويمتد في آسيا حتّى بونتوكسين (البحر الأسود) وسواحل الميوتيد». ثمّ شيئاً فشيئاً ستصقل اللفظة وينبني حدّها اللغوي، حتّى تصبح دالّة على منطقةٍ بعينها. «تطلق خاصّة على هذا البحر العظيم»، يلاحظ فوروتيير. فها هي قد صارت معرّفةً وموصوفة غير أنّها لم تصبح مسمّاة بدقّة. كان «الـ» متوسّط لم يصبح بعد اسماً في اللغة الفرنسية. ولن يصبح كذلك قبل حلول القرن الثامن عشر، عندما سيذكر في يوميات تريفو وفي «دائرة المعارف».

ورد عدد من اشتقاقات اللفظة في مؤلّف «تريفو»[١١]. في مذكّرة ترقى إلى تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٠٩ ، ورد ذكر مؤلَّفٍ بعنوان

«وصف السواحل المتوسطية» لسيلوكس دو كاريانْد. وفي «ملاحظات على إنشاء خارطة المتوسّط الجديدة، الموجّهة إلى أمانة الخطط البحرية، بأمرٍ من السيد الكونت دو موريبا في العام ١٧٣٧»، يتضح أنّ بحرنا قد صار معرّفاً ويشار إليه بوضوح : «الخارطة المصغّرة للبحر الأبيض المتوسّط التي فُرِغَ من إنشائها في أمانة الخرائط والخطط البحرية...».

إنّ الوارد ذكره هنا هو «البحر الأبيض المتوسّط» وليس سواه.

في «مذكرة للسيد بيلان (Bellin)» ذُكِرَ أيضاً ما يلي : «إنّ الخرائط الهيدروغرافية التي فرغت من ترسيمها في أمانة الخرائط والخطط البحرية هي التالية :

١- خارطة عامة للبحر الأبيض المتوسط في ثلاث ورقاتٍ، وضعت في التداول أواخر العام ١٧٣٧ ؛

٢- خارطة خاصّة بالأرخبيل، وهي ملحقة بالخارطة العامة للبحر الأبيض المتوسّط...

٣- خارطة كبيرة تحت اسم «المحيط الغربي...»». مثل هذا الذكر لا يدع مجالاً للشكّ. لقد وجد «الـ» متوسّط مكانه...

في «دائرة المعارف»[١٢] بات «الـ» متوسّط معرّفاً ومفهرساً على أنه كذلك. فهو، بالفرنسية اسم مؤنث ينتمي إلى مضمار الجغرافيا و«يعني ذلك البحر الواسع الممتدّ بين قارتي أوروبا وإفريقيا، والذي يتصل بالأطلسي عبر مضيق جبل طارق، والذي يغمر سواحل في آسيا مشكلاً البونتوكسين والبالوس مايوتيدس. البحر الأبيض المتوسّط كان يسمّى فيما مضى ببحر اليونان والبحر الكبير ؛ وهو اليوم مقسّم إلى أجزاء مختلفة تحمل أسماء مختلفة».

إنّ بروز «الـ» متوسّط هذا كاسمٍ موصوف في اللغة الفرنسية هو محطة ذات دلالة في نَسَبِ التصورات لهذا الإقليم. والحقّ أنه يمكن القول، بحسب ما ذهب إليه النحوي موريس غروفيس،

«إنّ كلّ مفردة في اللغة قابلة لأن تغدو اسماً ما أن يجري اعتبار المعنى الذي تعبّر عنه على نحوٍ أنطولوجي، أي بتطبيقه على مضمار الكائن،»[١٣]

أو كما يقول المعجميّ ألان راي، بأنّ الاسم هو

«مجموعة مفردات تفيد وصف واقعٍ وتعيين موقعه في فئة متعيّنة.»[١٤]

هكذا نشعر بأن تبدّلاً ما طرأ على اللغة، غير أنّه لم يصبح تحولاً بعد. فمن إقليم غفلٍ «يقع بين الأقاليم»، كما كان يعرّف في سالف الأزمان، يكتسب «الـ» متوسّط، في اللغة، قواماً. لم يصبح قيمةً بعد، غير أنه صار «كائناً»، صار «واقعاً»، ووجد موقعاً له في «فئةٍ متعيّنة». منطوق جديد يتشكّل في فرادة دلالته. ويدأ «الـ» متوسط إذاً يتأسس في ممارسات الخطاب. صار «خاصّةً» بالمعنى الذي أراده ميشال دوسيرتو، لهذه العبارة :

««الخاصّة» هي انتصار المكان على الزمان. فهي تتيح رسملةَ الفوائد المكتسبة والإعداد لأشكالٍ من التوسّع المستقبلي ما يوفّر استقلالاً حيال تقلّب الظروف. إنّها سيطرة على الزمان عبر إنشاء مكان مستقلّ (...).»[١٥]

من مجرّد لا مكان، يكتسب المتوسّط قواماً، على نحو تدريجي، بوصفه خاصّة، مكاناً فريداً يمكن انطلاقاً منه أن تبنى استراتيجة، وهذا في اللغة يتخذ شكل «اسم علم».

«الاسم العلم هو ما لا ينطبق إلاّ على كائن وحيد أو شيء وحيد، أو على فئة من الكائنات أو الأشياء، منظور إليها على حدة؛ إنّه يسبغُ فرديةً ما على الكائن أو الشيء أو الفئة التي يشير إليها.»[١٦]

وسوف تترسّخ نشأة «المتوسّط» هذه، وتتعاظم خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

مع صدور قاموس «ليتري» – «(Littré) القاموس الاشتقاقي الجديد للغة الفرنسية» – والذي ترقى فكرة إعداده إلى العام ١٨٤١ وبداية تأليفه إلى العام ١٨٥٩ وإنجازه إلى العام ١٨٧٢، بتنا نمتلك أداةً ممتازة لفهم اللغة الفرنسية في القرن التاسع عشر : عبارة «méditerrané, ée»، تظهر فيه كصفة «ما يقع وسط الأقاليم – البلدان المتوسّطة»، وكاسم (موصوف) «بحر داخلي». «ثغور الخلجان، والأجوان، والأراضي المتوسّطة، لا شيء يخفى عن حكمة هذا الرجل العالم الصالح (بحسب شاتوبريان)». غير أن هذا الإقليم بات يحظى بالتعريف والاعتراف في قاموس «ليتري» : «المتوسّط أو البحر الأبيض المتوسّط، هو البحر الذي يقع بين أوروبا وإفريقيا وآسيا». لقد وجد حدوده واحتلّ موقعه في النسق الجغرافي.

إلى ذلك، فإنّ صفة «متوسطي، متوسطية» تظهر للمرة الأولى في قاموس كبير، وتعني، بحسب «ليتري» :

«ما ينتمي إلى البحر المتوسّط. ما يقع في وسط الأقاليم». فمن التبدّل في تسمية هذا الإقليم ندخل في صلب التحوّل. واللغة تظهر هذا الانتقال الذي سنتناوله لاحقاً. ولكننا نستطيع، منذ الآن، أن نشير إلى أنّ صفة «متوسطي» في معرض دلالتها على النسبة إلى هذا الإقليم، إنّما تشير إلى خاصيّته. وفي اقتفائنا نسب التصوّرات عن المتوسّط، ننتقل إذا من الواقع إلى القيمة.

يؤكّد «القاموس الوطني الجديد أو القاموس الجامع للغة الفرنسية» الذي أشرف على تدوينه إيميه بيشيريل (Bescherelle Aimé) تعريفات «ليتري» ويوسّعها. «البحر المتوسّط، أو المتوسّط بإطلاق». مع بعض الإيضاحات وخاصة تمييزه بين «المتوسّط الغربي» و «المتوسّط الشرقي». فما كان مجموعة مبهمةً، «واقعة في وسط الأقاليم»، صار شكلاً للعالم المنقسم، ومصنّفاً في مجموعتين متفرّعتين، غربية وشرقية.

مع «كنوز اللغة الفرنسية. قاموس اللغة للقرنين التاسع عشر والعشرين (١٧٨٩ – ١٩٦٠)»، يتمّ استعراض الطبقات المختلفة التي جرت من خلالها تطورات وتغيّرات وتحولات «الـ» متوسط في اللغة الفرنسية في غضون القرنين الأخيرين من الزمن. وفيه التنويعات المتعدّدة من «méditerranées» إلى «la Méditerranée» ومن الصفة «méditerranéen»، «ما ينتمي أو ما هو خاص بالبحر المتوسّط أو بالمناطق التي تحدّه و/أو بالحضارات التي نشأت فيه»، إلى «المناخ المتوسطي»»، إلى الاسم «méditerranéen ، شخص يتحدّر من مناطق متوسطية»، وكل تنويعات استخداماته النوعية.

قدر هائل من هذه السمات تجعلها اللغة في متناولنا، غير أنّ المقاربة النَسبية لا تكتفي بها وحدها. فوحده التاريخ الثقافي المتسع لنظراتٍ مختلفة ولميادين أخرى، ولفاعلين ونصوص أخرى، من شأنه أن يتيح لنا الإحاطة بتصوّرات «الـ» متوسّط بكلّ تنوّعه.

الحملة المصريّة أو التعبير الاستراتيجي للمتوسّط

«إنّ المتوسط ينبغي أن يكون هو البحر الفرنسي حصراً. إنّ تجارته بأكملها مُلْكٌ لنا، وكلّ ما من شأنه أن يبعد عنه الأمم الأخرى يجب أن يكون شاغلنا.»[١٧]

لا بل يضيف تاليران، على نحو أوضح، في «مذكراته» :

«عندما ندقّق في الموقع الجغرافي لهذا المُرَكّب الصُلْب، المتراصّ، الذي يسمّى فرنسا، وعندما نتتبع خطّها الساحلي بأكمله، يجوز لنا أن نعجب لكونها لم ترَ، على الدوام، إلى البحر الأبيض المتوسّط بوصفه مجالها ... إذ يتعيّن على فرنسا ... أن تحرز في المتوسّط تفوّق الغلبة التي تودّ أن تكون لها فيه. لقد أهملت المغانم الهائلة التي من شأنها أن تنجم عن مثل هذا التفوّق.» [١٨]

لم تنشأ رؤية استراتيجية للمتوسّط إلاّ عندما بدأ مشروع الحملة المصرية يتخّذ شكلاً عملياً، وخاصّة عبر الرسائل المتبادلة بين بونابرت وتاليران الذي كان أصبح، في الأثناء، وزير العلاقات الخارجية للإدارة. ففيما كان بونابرت يطلع الوزير على غزوه الجزر اليونانية، أجابه تاليران في آب/أغسطس ١٧٩٧ بما يلي :

«لا شيء يفوق أهمية أن نتخذ موقفاً ملائماً من ألبانيا واليونان ومقدونيه وولاياتٍ أخرى من ولايات الإمبراطورية التركية في أوروبا، لا بل كل الولايات التي تحاذي المتوسّط، وخاصّةً كمصر التي قد يكون لنا نفعٌ كبير منها في المستقبل .» [١٩]

هكذا يصبح المتوسّط المنطقة الملائمة لمشروع استراتيجي خاص بفرنسا. إذ أنه لم يعد مجرّد مجموعةٍ فرعية مبهمة، بل صار «خاصّة»، صار مكاناً «يتيح رسملة الفوائد المكتسبة والإعداد لأشكالٍ من التوسّع المستقبلي ما يوفّر استقلالاً حيال تقلّب الظروف» (دوسيرتو)، أي صار إذاً إقليماً لاستراتيجية ممكنة.

كانت فكرة تجريد حملة على مصر سابقةً على الرسائل التي تبادلها بونابرت وتاليران، وهو الأمر الذي أحسن البرهان عليه فرنسوا شارل رو[٢٠]. فهو يثبت، في دراسةٍ بارعة حول «المشروع الفرنسي لغزو مصر في عهد لويس السادس عشر»، «مذكّرة البارون دو توت» التي ترقى إلى العام ١٧٧٦ ، حيث يُعتَبَر المتوسّط إقليماً ناجزاً، وحيث يُعلَن بوضوح بأنّ مثل هذه الحملة على مصر «كانت لتضمن سيطرة أسطول الملك على المتوسّط».

هناك إذاً لفرنسا رؤية سياسية وعسكرية للمتوسّط منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر، والتي تشكّل الحملة المصرية نقطة تحوّلها إلى فعل. تماماً كما لاحظت إيمّا سباري :

> «إنّ الحملة المصرية – التي نشأ عنها «اختراع المتوسّط» في القرن التاسع عشر – قد «اخترعت» متوسّطاً، وشرقاً، وفهماً «للحملة» كما صاغتها احتياجات بونابرت من أجل ترقّيه الشخصي في فرنسا... إنّها رؤية فرنسية للعالم المتوسّطي اخترعها بونابرت بين ١٧٩٨ و١٨٠١، وبنجاحٍ كبير : فنحن نعلم أنّ الحملة المصرية قد أثارت شغفاً بالاستشراق، وهو الشغف الذي ألهب حماسة فرنسا.»[٢١]

تكمن فرادة مثل هذا التعبير الاستراتيجي الفرنسي للمتوسّط في أنّه لا يقوم فقط على المصالح التجارية أو العسكرية وهي، بأية حال، معلنة بوضوح. بل إنّه يأتلف، إلى حدّ بعيد، حول معنىً نشأ مع بداية عصر الأنوار : الحضارة [٢٢].

«سياسة حضارية»، على هذا النحو يمكن تعريف المشروع الفرنسي في المتوسّط بدءاً بالحملة المصرية. ولعلّ موكب العلماء الذي رافق بونابرت هو خير تعبير عن ذلك. وهو ذا جومار (Jomard)، أحد مرافقي بونابرت المبرّزين، يقول :

> «إنّ فرنسا بسعيها لعتقِ مصر من نير المماليك... قد جلبت لها أيضاً النور والحضارة التي تلقتها أوروبا في سالف الزمان من الشرق.»[٢٣]

ذلك أنّ المشروع العسكري والتجاري الذي ينتمي إلى لعبة ميزان القوى التقليدية، وخاصةً التنافس مع إنكلترا، يُزَيَّنُ هنا بالنعوت الفكرية والثقافية. وعلى هذا النحو يستطيع بونابرت، وقد أحيط بتلك «الهالة» التي توفرها له حلقة العلماء من مرافقيه، أن يقود حملاته العسكرية بمشروعية تامّة. فهذه الحملات قد أعطيت مغزىً، بما أنها تهدف إلى جلب «الـ» حضارة التي تيسّر توطيد سلطانه وتمنحه حتّى سبباً موجباً لممارسة هذا السلطان. يلاحظ هنري لورنس[٢٤]، بحق، أنّ بونابرت في مصر:

«يبتكر فكرة الرسالة الحضارية التي ستغدو العنوان الأكبر لمسعى أوروبا الاستعماري. وبذلك يصبح المفهوم الذي كان، حتّى ذلك الوقت، يُستخدم، خاصّةً، لتحليل تطوّر أوروبا التاريخي، مفهوماً جوهرياً في صلة الغرب بالشرق.»

تبرز مقدّمة «وصف مصر»، التي كتبها فورييه (Fourier) بمساعدة شامبوليون– فيجاك (Champollion - Figeac) ، ولاحظ عليها نابوليون، هذه الفكرة الجديدة على نحو لافت :

«إنّ البطل الذي قادها (الحملة)، ما كان ليقصر غاياته على الاقتصاص من العابثين بتجارتنا ؛ لقد أكسب مشروع الغزو رفعةً وعظمةً جديدين، ووسمه بميسم عبقريّته الخاصّة. لقد أدرك التأثير الذي قد يخلّفه هذا الحدث على تجارة الشرق، وعلاقات أوروبا مع الداخل الإفريقي، وعلى الملاحة في المتوسّط ومصير آسيا. فارتأى أن يقوّض طغيان المماليك، وأن ينشرَ الريَّ والثقافة، وأن يفتح الباب واسعاً لاتصالٍ دائمٍ بين المتوسّط والخليج العربي، وأن ينشىء مؤسسات للتجارة، ويقدّم للشرق المثال المفيد للصناعة الأوروبية، وأخيراً أن يجعل شروط (عيش) الأهلين أكثر يسراً، وأن يجلب لهم كلّ منافع حضارةٍ متقنة.»

لا ريب في أنّ ثنائية المعنى/السلطان، التي تضمن فكرة الحضارة توريثها، تتيح لفرنسا قدرةً هائلة على الفعل. و «الـ» متوسّط هو مسرحها الأول، بالمعنى المزدوج للعبارة : كمسرح عمليات، وحقل مناورات، وكمنصّة عرض عمومية، كمحلّ للتصوّر.

سوف تترك «سياسة الحضارة» هذه، على نحو دائم، سمتها في نسابة التصورات الفرنسية للمتوسّط. غير أنها لن تحافظ على المعنى نفسه في كلّ أشكاله، بل ستكون موضوع تجاذبات شتّى، وموازين قوى رمزية كيما تصوغ للمتوسّط تصوّراتٍ متمايزة بحسب تمايز الفاعلين.

في هذا السجال، سوف يؤدي السان سيمونيون (أتباع سان سيمون) دوراً رئيسياً.

السان سيمونيون أو حلم التحالف

لقد كان لحملة بونابرت على مصر تأثيرٌ ممهّد، ومحفّز، على التصوّرات الفرنسية للمتوسّط. ويندرج السان سيمونيون في سياق هذه الحملة العسكرية القائمة على «سياسة حضارية». سوف يذهبون إلى الشرق ويصوغون، للمرّة الأولى من دون ريب، تصوّراً جامعاً لـ «نظام المتوسّط».

ذاك كان عنوان مجموعةٍ من المقالات نشرت، بين كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير ١٨٣٢ في جريدة «Le Globe» بقلم ميشال شوفالييه (Michel Chevalier). كان شوفالييه أحد أبرز مفكّري الحركة السان سيمونية، مقرّباً من الأب أنفانتان (Père Enfantin اللقب الذي اشتهر به بروسبير بارتيليمي أنفانتان) وكان مؤمناً بيوتوبيا. كان حلمه هو تحالف بين الشرق والغرب يكون المتوسّط فيه هو نقطة التقائهما. «يجب أن يقوم السلام النهائي على شراكة بين الشرق والغرب»، كتب في مستهلّ مقالته المؤرّخة في شباط/فبراير ١٨٣٢ :

«نظام المتوسّط» الذي يسعى ميشال شوفالييه إلى بنائه هو مشروع تاريخي وفلسفي :

> «إنّ الصراع الأضخم والأعمّ والأشدّ رسوخاً والذي طالما ارتجّت الأرض لقرقعة معاركه، هو الصراع بين الشرق والغرب.

هذا الصراع هو السمة المميّزة لحقبة الحضارة التي استمرّت منذ بدء الأزمنة التاريخية إلى يومنا هذا. إنّه المظهر الأكثر بروزاً للحرب الدائرة منذ ستة آلاف سنة بين الروح و المادة ، بين النزعة الروحانية و النزعة الحسّية ؛ هذه الحرب هي التي جئنا لنخمد نيرانها.»[٢٥]

ثمّ يوضح معنى مشروعه :

«لطالما استباحت الأساطيل العدوّة مياه المتوسّط. كان المتوسّط ساحةً للصراع، حقلاً مقفلاً حيث، لثلاثين قرناً من الزمن، خاض الشرق والغرب معاركَ لا تحصى. ينبغي أن يكون المتوسّط أشبه بميدان لقاء حول كلّ النقاط التي توحّد بين الشعوب المنقسمة، إلى اليوم، فيما بينها. سوف يغدو المتوسّط مهد الشرق والغرب.»[٢٦]

من الواضح أنّ بيان هذا التصوّر في صيغة «نظام للمتوسّط» يضمرُ أغراضاً سياسية :

«ذاك أنّ السياسة الجديدة للقارة القديمة، والتي ينبغي أن تنزع إلى توطيد شراكة أكثر فأكثر وثوقاً بين الشرق والغرب، يتعيّن عليها أن يكون غرضها الأوّل، وغايتها الآنية المباشرة، هو تطبيق نظامٍ قادرٍ على إحياء البلاد المحاذية للمتوسّط.»[٢٧]

هكذا يندرج الأفق السياسي الذي يرسمه ميشال شوفالييه، في سياق معاكس لأي سياسة دينية :

«إنّ السياسة الرئيسية التي انتهجتها المسيحية حيال الشرق، يوم كان المعتقد الكاثوليكي في ذروة احتدامه، كانت دفاعيةً أكثر منها هجومية، لكنّها بأية حال، كانت سياسة مقاتلة : إذ كانت الغاية طرد الكفّار، وعتق الأماكن المقدّسة.»[٢٨]

لقد كانت سياسة دنيوية، سياسة حضارية، مبنيةً على فكرة التقدّم، وحاملها الحلم الصناعي، تلك التي أمل شوفالييه أن تنشأ في المتوسّط.

«ستكون غاية السياسة السلمية في المستقبل، وفي تطبيقاتها الأكثر مباشرةً، هي أن تتشكّل، حول المتوسّط، في حال من الشراكة، كتلتا الشعوب اللتان لم تكفّا، منذ ثلاثة آلاف سنة، عن التصادم بوصفهما ممثلتين للشرق وللغرب: فتلك هي الخطوة الأولى باتجاه شراكةٍ جامعة.»[٢٩]

ويوضح السبيل إليها:

«فلنرَ إلى هذا النظام المتوسّطي من زاوية العلاقة الصناعية؛ ذاك أنّ السياسة هي، على الأخصّ، تسوية مصالح الشعوب والأفراد هذه، من زاوية هذه العلاقة.»[٣٠]

وساعياً إلى المطابقة بين رؤيته الإقليمية للمتوسّط وبين رؤيته للأرض الفرنسية:

«إنّ نشر السكك الحديد، على نطاق واسع، في أنحاء المقاطعات، والسفن البخارية في البحار، من شأنه أن يشكّل ثورةً، ليست صناعية فحسب، بل سياسية أيضاً. فمن خلالهما، ويتوسّل بعض الاختراعات الحديثة الأخرى، كالتلغراف، يصبح يسيراً تدبير شؤون الجزء الأكبر من المناطق المحاذية للمتوسّط بنفس المعيار والفعالية المطبقين اليوم في فرنسا.»[٣١]

تعتبر نصوص ميشال شوفالييه غنية جداً في مجال نسابة تصوّرات المتوسّط، ليس فقط لما تتضمنه من رؤية شاملة، بل أيضاً لسلسلةٍ كاملةٍ من التأشيرات – كمثل «الشعوب المتوسطية»؛ «الأمم المتوسطية»؛ أو «الإقليم المتوسطي»– التي تتخلّلها وبذلك تخطّ ترسيمات لإدراكِ هذا الإقليم. وهي مجموعة غنية أيضاً بمشروعه القائم على «الشراكة في كونفدرالية متوسطية»، غير المسبوق، والذي هو مشروع ذو بعدٍ استراتيجي، باعتبار أنه يحدد بوضوح شكلاً جديداً للعالم.

لقد أسهم نداء الأب أنفانتان (هو بروسبير بارتيليمي أنفانتان، الملقب بالأب أنفانتان) ، في سانت بيلاجي، في ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٨٣٣، وإنْ على نحو عاطفي، في تحديد هذا

التصوّر للمتوسّط بوصفه حلم تحالف : «إنّ الشراكة العظمى قيد الإعداد ؛ والمتوسّط سوف يكون بهياً هذا العام !» إنّه نداء ذو دلالة بالغة نظراً لمكانة الأب أنفانتان الطاغية في حركة السان سيمونيين.

أميل بارّو، كان هو أيضاً مريداً لامعاً وعلَماً مساجلاً وصاحب قلم، وقد أصدر كتاباً على قدر كبير من الأهمية بعنوان : «الغرب والشرق»[٣٢] حيث اتخذ حلم التحالف حول المتوسّط هذا شكلاً نموذجياً. ففيه يدعو أميل بارّو، خاصّةً، إلى الاعتراف «بالإمبراطورية العربية» لجبه تسلّط الإمبراطورية العثمانية. ويعمد، على نحو واضحٍ، إلى تحديد دور فرنسا في المتوسّط باسم سياسة حضارية ذات مصطلحات بالغة الدقّة :

«اليوم، وقد أراد الشرق أن يتمثّل الحضارة الأوروبية، فبمدّ يدِ العون، دونما تقتير، إلى هذه الإرادة النبيلة وهذه الحاجّة الملحّة، تستطيع فرنسا أن تؤسّس لرصيدٍ لها راسخ. مهندسون، أساتذة، أطباء، حرفيو معامل، أي بعبارة واحدة : كلّ من يسمّون خبراء مدنيين ومدرّبين، هذا ما ينبغي أن يكون عليه تمثيلها الخارجي المطلوب بشدّة، والأقوى، والأوفر انتاجاً. وينبغي أن تعمل الدبلوماسية على توسيع مثل هذا التمثيل لكي يزداد كلّ يوم. إنّ مهمة تربية عقول وتراب الشعوب الشرقية، لهي مهمّة سياسية بامتياز؛ لا بل هي شرط الاتحاد الصادق بين الشرق والغرب؛ وهذه المهمّة هي مهمّة منوطة بفرنسا.»[٣٣]

ويضيف قائلاً بشأنٍ دور فرنسا :

«كيف لها، إذاً، في غمرة تطوّر ممالك الأرض وجمهورياتها، أن تحافظ على مكانتها، إذا كانت لا توازن التوسّع المادي للأمم الأخرى بتوسّع لا ينضب لنفوذها، وإذا لم تسم، إنْ عزّ نصب البيارق، كلّ الأماكن بميسمها ؟»[٣٤]

هذه النزعة الإرادية، السياسية والثقافية، تترافق مع تحديد للعلاقة المنفتحة بين فرنسا والعالم الخارجي. وهو هنا يعارض

بوضوح بعض المواقف الجامدة :

«هناك في فرنسا من يرون في حدود بلدهم الأفقَ المعتاد لأشكال تعاطفهم، من يرتعدون على الدوام لتورّط الدولة في تدخّلاتٍ، ويقولون طوعاً للشعوب الأخرى : تدبروا أنفسكم بأنفسكم : أناس التراب الوطني، والمنزل والداخل ؛ من يستبدّ بهم هوس الساكن الأصلي، والذعر من الكوسموبوليتية، يزاولون السياسة كأنهم ربّات بيوت حريصاتٍ على كنفِ منازلهنّ ونادراً ما يتطلّعن عبر النافذة.»[٣٥]

بارّو يفتح النوافذ ويحدّد وَضْعَةَ الإشعاع :

«لا تشعر الأمّة بكلّ ما تستطيع إنجازه إلاّ إذا بذلت كلّ ما تقدر عليه من العمل. افتحوا إذاً من دون خشية، افتحوا الشرق على فرنسا. فرنسا تحتاج إلى الشرق، والشرق يحتاج إلى فرنسا. (...)/ ففي ميدان الشرق ستستعيد فرنسا مجد الشؤون العظيمة، المجدَ، ذاك التاج الذي لن تقدر يوماً أن تتخلّى عنه ! هيّا إلى العمل، إذاً ! إلى العمل ! فالأفكار والعقائد والنظريات يجب أن تستتبعَ، أخيراً، بالأفعال، بالممارسة، بالإنجاز.»[٣٦]

إشعاع فرنسا، هذا الذي يدعو إليه أ. بارّو، لا يتطابق تماماً، بعدُ، مع المشروع الكولونيالي. إنّه يعترف بالشرق في خصوصيّته، وفي تمامه، فلا يُعقَل إذاً أن يتمّ تذويبه أو ابتلاعه من قبل أي سياسة حضارية :

«مع ذلك، إذا كان الشرق ينادي فرنسا، فيجب ألاّ يُرى إليه بوصفه المجال الاستعماري لأوروبا. قد يكون من قبيل الأرب أن تستعاد فيه الممالك المسيحية الصغيرة كما في آسيا الصغرى، وقد يكون من قبيل الإحسان أن نقترحَ عليه حصّةً من المعونة الإنسانية. غير أنّه من الأهمية بمكان، ومن دون حتّى أن نذكّر بالتوزيع الذي بدا لنا ناجماً عن موافقات الأقاليم والأعراق، أن نردّد بأنّ الشرق، وإن ارتهن جزئياً لوصاية القوى الأوروبية، فهو أبداً لن يقبل، ولو تحت قناع المسالمة والتسامح، بغزو قوانينه وأعرافه وتقاليده.»

ويتابع قائلاً :

«الشرق هو الشرق. له طابعه الخاص، القابل للتبدّل، ولكن المتعذّر محوه. وما يفصّل له من لباس على مقاس الغرب، ليس هو لباسه. ولنعلم يقيناً : الشرق ليس أرضاً عذراء ولا أرضاً قابلة لأن تحرق. إنه ليس وحشياً ولا بربرياً ولا طفلاً ولا شيخاً ولا خصيّاً. إنه يدرك ما يُعوِزه ويطلبه؛ غير أنّه مدرك أيضاً لكلّ ما يختزنه وأبداً لن يتخلّى عنه. شتّانَ ما بين الطغيان الفكري لأوروبا، السائد اليوم، وبين مزاعم التربية المستمرّة. فإذا أراد الشرق اليوم أن يستلهم عبقرية الغرب، فليس ذلك ليكون نسّاخها ومقلّدها ومحاكيها، وتلميذها السرمدي، بل لكي يضيف إلى عبقريته منها، ولكي يظهر على الملأ فرادته.»[٣٧]

يبدو أميل بارّو، في هذا النصّ المُلهَم، رائياً أكثر منه مبشّراً.

«على الغرب أن يتمتّع حقاً بالجرأة لكي يجبه الشرق بوصفه نموذجاً.»[٣٨]

ويضيف قائلاً :

«وسيتعيّن على هذه الحضارة أن تنصبّ على الشرق لكي تتبلور وفق النموذج الأوروبي ؟/ لا ! بل الأحرى أنّ الحضارة الغربية، في اختلاطها اليوم بحضارة الشرق المحتدمة والمضطربة، هي التي ستخصب نفسها : ومن هذا المزيج سوف تنشأ حضارة أنضر شباباً، لا غربية ولا شرقية، بل إنسانية.»[٣٩]

هذه «الحضارة الأنضر شباباً، لا شرقية ولا غربية، بل إنسانية»، هي الحضارة الوسيطة، المتوسطية، هناك حيث، بحسب بارّو، «يتمّ الاتحاد بين الشرق والغرب».

إنّ حلم التحالف، ومركزه المتوسّط، يقوم على نسابة ثقافية متعدّدة. وتندرج هذه النسابة في سياق أصل مزدوج ولا تقتصر على المنبتين اليوناني واللاتيني. ففي الوقت الذي هزّت فيه حركة أصدقاء اليونان الوسط الثقافي الأوروبي، وخاصّةً في فرنسا

وإنكلترا، ورجّحت كفّة التدخل العسكري لمساندة اليونان في وجه الإمبراطورية العثمانية، لا يتردّد أميل بارّو في صوغ «التماس من أجل الشرق» :

«ما تدين به أوروبا اليوم للشرق، هو أن تجلب له العلم والصناعة والفن. ولن يكون ذلك هبة تمنحها بل دينٌ سوف تسدّده، كما ينبغي أن تسدّده بسخاء.

لقد عمّت أوروبا مشاعر التعاطف مع اليونان، أمّ حضارتها. غير أن أوروبا ليست فقط ابنة اليونان، فقد رضعت أيضاً حليبَ الشرق.»(٤٠)

حول فكرة الميراث المشترك، لأنّ «أوروبا ليست فقط ابنة اليونان»، ينسج أ. بارّو حلم انصهار الشرق والغرب انطلاقاً من المتوسّط.

هل هو ميراث مشترك مع العالم السّامي – اليهودي والعربي – أم أنه ميراث منقسم باسم نسبٍ وحيد يوناني– لاتيني ؟ إنّه تباين مركزيّ في التاريخ الثقافي الفرنسي والأوروبي، سوف تأتلف من حوله، كما سنرى، الرؤى المتناقضة للمتوسّط. السان سيمونيون، وليس أميل بارّو وحده، ينضوون بوضوح تحت راية النسابة الثقافية المبنية على اشتراك المصادر. وفي رؤيتهم، لا يبدو الشرق غيرية جذرية، بل غرابة أليفة.

«ما هو الشرق إذاً ؟... تلك البقعة من آسيا التي منها تحدّرت حضارة أوروبا، المأهولة بأعراق مماثلة لأعراق هذه المنطقة .» (٤١)

ويلاحظ ميشال شوفالييه من جهته :

«أن العرب (...) هم غربيون [بما أنّ] «تقاليدهم هي تقاليدنا أو تقاليد اليهود ؛ و[بما أنهم] من نسل «سام» وحتّى من نسل إبراهيم، و موسى ويسوع في نظرهم نبيّان.»(٤٢)

هذه الرؤية المنفتحة والجامعة التي عبّر عنها السان سيمونيون، والمبنية بوضوح على فكرةٍ ما للحضارة، سوف تضفي بعض اللَبس على موقفهم. بعضهم، أمثال أميل بارّو، كان يعي، بوضوح، أنّ هذه السياسة الحضارية، التي من شأنها أن تفضي بفرنسا إلى تبني مشروع تحالف مع الشرق، حول المتوسّط، لا يمكن أن تكون مشروعاً استعمارياً. «مع ذلك إذا كان الشرق ينادي فرنسا، فيجب ألاّ يُرى إليه بوصفه المجال الاستعماري لأوروبا»، يقول شوفالييه. لكنّ هذا التمييز يبدو استثنائياً.

ذلك أن شوفالييه لن يتوانى عن الدعوة علانيةً، منذ نيسان/ أبريل ١٨٣٣ ، «هيّا إلى المستعمرات !»، كما سينشر الأب أنفانتان، المنتقل من الرحلة الطوباوية في مصر، إلى إسهامه في العام ١٨٣٩ كعضوٍ في «البعثة العلمية لاستكشاف الجزائر»، خلاصات أعماله ضمن مؤلفٍ ذي عنوان بليغ، إستعمار الجزائر[٤٣].

وفيه يدعو أنفانتان إلى الاستعمار عبر الشراكة. فالواقع أنّ الغاية من الغزو

> «ينبغي أن تكون هي الشراكة مع المهزوم، وأن يكون، بالتأكيد، لصالحه بمقدار ما يكون لصالح المنتصر.»[٤٤]

لكنّه، في صفحاتٍ لاحقة، يقول :

> «... لقد ألفينا أنفسنا في أفضل موقعٍ ممكنٍ للقيامِ بحكم الجزائر طلباً لهيمنة فرنسا على الأهلين، والإعداد، في الوقت نفسه، للاستعمار الأوروبي، والتنظيم المدني والزراعي للأهلين .»[٤٥]

ترجُحٌ مستمرّ بين مشروع صريحٍ للهيمنة، يستمدّ مشروعيّته من فكرة الحضارة، وبين السعي وراء غاية مشتركة من خلال مشروع شراكة.

فهل أنّ حلم التحالف الذي دعا إليه السان سيمونيون ليس، في آخر الأمر، سوى قناع ؟ خطابٌ ذو طابعٍ نبيلٍ يُستخدمُ لإخفاءِ

شراسة موازين القوّة ؟

إنّ رؤية السان سيمونيين تحتفظ ببعدٍ طوباوي وليست مرهونةً، مباشرةً، للسياسة. وفضلاً عن ذلك، إنّ بعض مشاريعهم قد تمّ تبنيها من قبل فاعلين من الطرف الآخر، كما كانت الحال مع محمد علي في مصر. ولكنّ اللبس المحيّر يبقى ماثلاً، ذلك أنّ الإشعاع الذي رُوِّج له والمعنى الذي خُطِّطَ له باسم الحضارة يخدمان سياسة النفوذ الفرنسي.

فكما يلاحظ أنفانتان، في خلاصة كتابه حول استعمار الجزائر، كانت كلّ شعوب أوروبا في ثلاثينات القرن التاسع عشر

«تبدي رغبةً لا تقاوم في التوسّع وكان الشرق قبلةَ أنظارها؛ كان هو الهدف من كلّ مساعي الدبلوماسية الأوروبية. ولم تشأ فرنسا أن تبقى في مؤخّر الصفوف، بل شاءت، على الأقلّ، أن ترى وتعلم ماذا تفعل، فأنشأت الملاحة البخارية في المتوسّط.»[٤٦]

والحالُ، يخلص أنفانتان قائلاً :

«... أنّ القلم والسيف والكلمة ما عادت هي فيصل القيادة؛ فقد استبدلت بالبخار الذي يقود علم فرنسا وقوتها وعدالتها إلى نهج السلام.»[٤٧]

السلام طبعاً، غير أنه السلام الذي يفرضه المنتصر !...

«الاختراع العلمي للمتوسّط»[٤٨]

كان أنفانتان في الجزائر طرفاً مشاركاً في واحدةٍ من تلك البعثات العلمية الكبرى (١٨٢٩-١٨٤٢). كانت هناك بعثات أخرى، في مصر أولاً، في سياق المشروع البونابرتي (١٧٩٨-١٨٠١)، ثمّ في موره - جزيرة البيلوبونيز اليونانية حالياً (١٨٢٩- ١٨٣١). هذه البعثات العلمية الفرنسية الثلاث كانت موضوع دراسات وأبحاث موسّعة أسهمت خلاصاتها، إلى حدّ كبير، في تعميق المعرفة التي قد يحصّلها المرء بشأن المتوسّط.

ربّما كانت حقبة البعثات تلك لحظة حاسمة في نسابة تصوّرات المستقبل. وهي حقّاً لحظة تبلور المعرفة وصوغ خطاباتٍ ذات دلالة. ليس غرضنا هنا أن نستعيد مجمل الأعمال التي قام بها فريق البحث المذكور. فالأحرى أن نحيل القارىء إلى الكتاب المنشور، والمقالات والملاحظات والتقارير المختلفة التي كتبت للمناسبة. غير أننا سنثبت مثلين أو ثلاثة للتدليل على ضرورة ذاك المسعى وأهمية إسهامه.

حول ثلاثة أوجه بارزة ، نيكولا ديماري (Nicolas Desmarest) وبوري دو سان فنسان (Bory de Saint-Vincent) وأوغستان بيراموس دو كاندول (Augustin Pyramus de Candolle)، سوف نسعى لمقاربة ميادين المعرفة الجديدة التي تمّ التمهيد لها بشأن المتوسّط.

مع عالم الطبيعيات نيكولا ديماري، جرى التمهيد للجغرافيا الطبيعية في استكشاف أبعاد المتوسّط. وكما لاحظت مارولا سيناريلّيس[٤٩] ، نعثر في الجزء الرابع من «دائرة المعارف المنهجية»، التي كلّف ديماري بتحريرها، على مقالتين من العام ١٨١١ ، «Méditerranées أو بحار داخلية» و«Méditerranée (بحر)» وفيهما يعرّف المؤلّف «بمعايير تشكّلها الطبيعي». فضلاً عن إثباتها نصّاً آخر، بالغ الوضوح، لديماري عن «بحار أوروبا» :

«إنَّ اللافتَ وما نُعنى به أولاً في أوروبا هو عدد البحار الداخلية واتساعها، باعتبارها، بحقّ، أولى قنوات الصناعة الثقيلة وأولى قنوات الحضارة لهذا المقلب من الكرة الأرضية، وتالياً، تفوّق هذا المقلب على المقالب الثلاثة الأخرى. فلو كانت إفريقيا مخترقةً إلى غربها ببحر داخلي كبير، لانتشرت فيها فوائد الصناعة بيسر. والمتوسّط يحظى، من بين البحار الداخلية، بتفوقٍ مستحقّ لأنه كان مهد حضارة أوروبا القديمة والحديثة. كانت أعمدة هرقل تعتلم حدوده إلى الغرب ؛ وكان جبل أو صخرة آبيلا، التي صارت اليوم سبته، والكالبي في إسبانيا، أي ما يعرف اليوم بجبل طارق الشهير. من هذه المعالم إلى أقصى أطرافه بسوريا،

يبلغ طول المتوسّط نحو ألف وسبعمئة ميل...»[٥٠]

وتلاحظ مارولا سيناريلّيس بحقّ :

«أنّ المتوسّط، في هذا الوصف، ليس فقط مهد حضارة أوروبا، بل هو أيضاً، وعلى الأخص، الحدّ الذي يفصل هذه القارة عن إفريقيا.»[٥١]

معنى الحدّ هذا بالغ الأهمية في تكوين تصوّرات المتوسّط. والواقع أننا سنصادفه في كثير من السجالات والمواجهات التي تناولت الشكل الذي ينبغي إسباغه على هذا الإقليم. ديماري يشدّد على هذا الحدّ، وهو تشديد له تبعاته بحسب مارولا سيناريلّيس :

«لم يحدّد المتوسّط صراحةً في أي وقت على أنه بحر بين يابستين (أو أكثر). بل، على الضدّ من ذلك، يوصف بأنّه بحر داخلي لأوروبا. وأعتقد أنه انطلاقاً من هذه الصورة لأوروبا وللمتوسّط تتهيأ جغرافيا متوسطية ما.»[٥٢]

بوري دو سان فنسان الذي كان له دور بارز في البعثتين العلميتين في موره والجزائر، يشدّد هو أيضاً على هذا الانقطاع، على هذا الفصل بين ضفّةٍ وأخرى.

«كلّما ابتعدنا عن مضيق جبل طارق ازداد توغلنا في ذلك المنبسط المائي الذي يفصل بين أوروبا وإفريقيا، ويتضح، أكثر فأكثر، فقر هذا المتسع.» [٥٣]

كما يشير إلى هذا الفصل على المستوى الأنتروبولوجي (الإناسي).

«(...) يختار بوري أن يقابل بين شعوب الضفة الأوروبية والعرق العربي الذي أقامَ على الساحل الأفريقي.»

تضيف ماري نويل بورغيه قائلةً :

«(...) في ما عدا ذكرى أسطورة الأطلنطيد، يبقى المتوسّط في نظر بوري دو سان فنسان سدّاً فاصلاً أكثر منه صلة وصل.»[٥٤]

وعلى هذا النحو تتميّز طروحاته بوضوح عن طروحات السان سيمونيين الذين هم أقرب إلى اعتبار المتوسّط كلاًّ، و «نظاماً». بالمقابل فإنّ بوري دو سان فنسان يميل، فيما يخصّ الثروة النباتية والمناخ والمشهد الطبيعي، إلى إبراز «الطابع المتوسّطي». ويحسب سيرج بريفو (Serge Briffaud) :

«في حدود علمنا أنّ عبارة «المشهد الطبيعي المتوسّطي» لم تستخدم مطلقاً، في ما نشر من خلاصات البعثة إلى موره. ومع ذلك فإنّ بوري دو سان فنسان يتحدّث في مطلع «أخبار» البعثة عن «الطابع المتوسّطي» للبلاد التي تجاوره، وذلك في الوقت الذي كان فيه على قمّة هضبة حصينة مطلّةٍ على مدينة إيير (Hyeres) ، في أواخر شهر كانون الثاني/يناير عام ١٨٢٩.»[٥٥]

كذلك الأمر في مجال الثروة النباتية، إذ يبرز بوري دو سان فنسان «فكرة شَبَهٍ» بين نباتات اليونان وإسبانيا وجنوب فرنسا. وقد تتسع هذه القرابة لكي تشمل المشهد الطبيعي كلّه كما في وصف خرائب قلعة إيير. فبوري دو سان فنسان يرى أنّ ذكرى هذا المشهد الطبيعي القاحل، الغارق في أشعّة الشمس والضاجّ بالحشرات، تذكّر بالبيلوبونيز :

«كان لكلّ شيء من حولي طابعٌ لم يبقَ تقريباً فيه أي ملمح، ولو ملطفاً، من الملامح التي تطبع الأنحاء الأخرى من فرنسا. كان ذاك ما يمكن أن نسمّيه بالمتوسّطي، ولكنْ معزّزاً، إذا جاز لي استخدام هذه العبارة، وصار هو طابع البلاد التي سأزورها...» [٥٦]

أمّا الباحث في الجغرافيا وفي علم النبات، أوغوستان بيراموس دو كاندول، فهو، من دون شكّ، مبتكر معنى «المنطقة المتوسطية». ومقالته المقتبسة من كتابه «الجغرافيا النباتية»، بالغة الدلالة على هذا الصعيد :

«... المنطقة المتوسطية التي تشمل الحوض الجغرافي للمتوسّط بأكمله : أي القسم الواقع من جانب الصحراء من إفريقيا، والقسم

الذي من شمال أوروبا تظلله سلسلة غير متصلةٍ تماماً من الجبال.»[٥٧]

لقد بدأت الخصوصية المتوسّطية تظهر في ميادين للمعرفة كعلم النبات والمناخ والمشهد الطبيعي. وقد غذّت ميادين التجربة هذه، وأشكال خطابها العلمية، تصوّرات المتوسّط. فتكوّنت فئات جديدة، لاسيّما في مضمار علوم الطبيعة. ولكن هنا، وكما أسلفنا بشأن الخطاب الذي صاغه السان سيمونيون، يبدو التداخل واضحاً بين البعد العلمي والبعد السياسي، بين الدائرة الثقافية والمطمع الاستراتيجي. فتلاحظ ماري نويل بورغيه أنّ

«هذين المسارين – إنشاء خطاب علمي حول المتوسّط وإبداء طمعٍ جيوسياسي في هذه المناطق، أو، بتعبير آخر، صوغ صورِ عالِمةٍ للمتوسّط وتكوين هويات ثقافية وقومية – ليسا حدّين منفصلين ومستقلين، بل هما حدّان متجاوران.»[٥٨]

على فكرة تجاور الحدّين هذه، والتي تفترض قدراً من الحياد، نحن نؤثر معنى التفاعل الذي لا يرهن أحدهما للآخر، بل يشدّد على سيرورة التداخل المتبادل والتأثيرات المتقاطعة. إنّ الخطابات العالِمة، ومن دون أن تكون مرهونةً بالضرورة للسياسي، تسهم في ترسيم «شكل للعالم»، ولذلك تجد نفسها، على الرغم منها أحياناً، طرفاً في «الورشة الاستراتيجية»، كما يعرّفها لوسيان بوارييه (Lucien Poirier) :

«إنّ الورشة الاستراتيجية تتماهى ومجموع النطاقات الذهنية أو الميادين الفكرية التي لطالما كانت، منذ نشأة العنف المسلّح، وهي اليوم، كما ستكون غداً، مسرحاً للعمليات الخاصّة لأفكار العمل والفعل.»[٥٩]

وسيكون الجغرافيون، أكثر من سواهم، معنيين بمثل هذه التفاعلات.

متوسّط الجغرافيين، أو باعث الحضارة

بدأت رؤية المتوسّط تتضح خلال القرن التاسع عشر. وسوف يسهم الجغرافيون إسهاماً ناشطاً في تحديد تخوم وتضاريس ومكّونات وأقسام هذا «البحر، المسمّى على هذا النحو لوقوعه داخل الأقاليم»، كما يعبّر «القاموس الجامع للجغرافية الحديثة» لعام ١٨٤٣. إذ تظهر الفروق، عندئذ، بوضوح :

> «هذا البحر الواسع يتضمّن أقساماً أو أحواضاً داخلية تحمل جميعها أسماءً مختلفة، وتعتبر بدورها بمثابة بحار صغيرة متمايزة : هكذا نجد أنه بين الساحل الغربي لإيطاليا وجزر كورسيكا وسردينيا وصقلية، يسمّى البحر التيراني ؛ وبين الساحل الشرقي لإيطاليا وتركيا الأوروبية، يسمّى البحر الأدرياتيكي ؛ وبين القسم الجنوبي من إيطاليا وصقلية واليونان، يسمّى البحر الإيوني ؛ وبين اليونان وتركيا الأوروبية وتركيا الآسيوية يسمّى أرخبيلاً ؛ وبين الأرخبيل والتركيتين الأوروبية والآسيوية، يسمّى بحر مرمره الذي يتصل بالبحر الأسود.»[٦٠]

وكذلك الأمر بالنسبة لرهانات التجارة والموانىء التي تتضح هي أيضاً:

> «هذا البحر، الحيوي جداً بالنسبة للتجارة، يشتمل على عدد من الموانىء المهمّة، مثل ميناء برشلونه، وقرطاج، ومرسيليا وتولون وجنوى وليفورن ونابولي وباليرمو ومسينه وسرقسطة والبندقية وتريستا وازمير وأكرا والإسكندرية وطرابلس وتونس والجزائر.» [٦١]

مما لا شكّ فيه أنّ إليزيه ريكلو (Elisée Reclus)، مؤلّف «الجغرافيا الجامعة»، هو الذي، من بين الجغرافيين جميعاً، سيمنح المتوسّط المكانة التي يستحقّها. ففي الجزء الذي كتبه عن «أوروبا الجنوبية»، نعثر على فصلٍ كامل بعنوان «المتوسّط»، ما يشير إلى تقسيم على قدرٍ من الجدّة لمادّة البحث الجغرافي. فهو يتبنّى، إلى حدّ بعيد، لا بل يذهب إلى أبعد من الفكرة التي اقترحها دو كاندول،

حول «المنطقة المتوسطية».

على الفور، لم يعد المتوسّط، في رؤية ريكلو، منظوراً إليه فقط بوصفه واقعاً جغرافياً، لا حياةَ فيه، بل هو، قبل أي شيء آخر، باعث حضارة، وحيّ:

«إنّ اليونان وكوكبة جزرها تبرهن على أنّ أمواج المتوسّط المتغيّرة كان لها مقدار من التأثير على تطوّر التاريخ ما يفوق، من حيث الأهمية، التأثير الذي تخلّفه الأرض على الإنسان الذي عاش فيها. وما كانت الحضارة الغربية لتنشأ البتّة لو أن مياه المتوسّط لم تغسل ضفاف مصر وفينيقيا وآسيا الصغرى، وهيلاس وإيطاليا وإسبانيا وقرطاجة.

ويتابع قائلاً:

من دون هذا البحر الذي هو صلة وصل بين ثلاث كتلٍ قارية هي أوروبا وآسيا وإفريقيا، وبين الآريين والساميين والبربر، من دون هذا العامل الوسيط الذي يلطّف أجواء كلّ البلاد المحاذية ويسهّل سبل بلوغها، والذي، تالياً، يحمل السفن ويوزّع الثروات، والذي يقيم الصلة بين الشعوب، من دونه إذاً لكنّا نحن الأوروبيين جميعاً قد بقينا في حال البربرية الفطرية.»[٦٢]

هكذا ينجز ريكلو عملاً نِسابياً (جينيالوجياً) مؤسِّساً. فالواقع أنّ المتوسط لم يعد، في التصوّر الذي ينشئه، مجرّد ساحة لسياسةٍ حضارية، بل صار مهد الحضارة الأوروبية بالذات.

«لطالما ساد اعتقاد بأنّ البشرية تدين بوجودها إلى جوار «بحر الوسط» هذا، لأنّ خارج حوضه ما كانت تُرى إلاّ شعوبٌ منحطّة أو لم ترقَ بعد إلى الحياة الروحية: «مثل ضفادع حول مستنقع، نقعي جميعاً على ضفاف البحر»، قال أفلاطون. وكان هذا البحر، هو المتوسّط.»[٦٣]

علاوةً على ذلك، يشدّد ريكلو على صلة الوصل وليس على الفصل بين تجمّعات الشعوب المختلفة. إنه يتحدّث عن «بحرٍ هو

صلة وصل... بين الآريين والساميين والبربر». فمثل هذه الرؤية للمتوسّط، التي تجمع بين مختلف الأقوام، سوف تلاقي، كما سنرى لاحقاً، معارضةً شرسة من قبل دعاة الاستعمار.

مع ذلك فإنّ ريكلو لا يبني تصوّراً جامداً أو جوهرياً للمتوسّط. بل، على العكس، إنه يشدّد على كون

«دراسة الشواطىء، شأنَ دراسة تقاليد الشعوب، تفيدنا بأن المتوسّط غالباً ما كان يغيّر تخومه ومداه.»(٦٤)

ويثبت في مقالته عدداً كبيراً من التعيينات حول شكله وعمق مياهه، وأحواضه، وضعف حركات المدّ فيه وتبايناتها... غير أنّ المهمّ في رؤية ريكلو لا يكمن في وفرة التفاصيل، بل في رؤيته للكلّ. فهو يعترف للمتوسّط بتفوّق فعلي :

«المتوسّط الذي من خلال دوره في التاريخ، يتمتّع بتفوّق على سائر البحار الأخرى.»(٦٥)

هكذا يغدو المتوسّط، من خلال رؤية ريكلو، باعثَ حضارة. وينشىء نسباً يجعل فيه المتوسّط مركزاً.

تلاحظ آن رويل (Anne Ruel)، بحقّ، أنّ

«أليزيه ريكلو قد أنجز بهذا التحليل الملْهَم قفزةً علمية كبرى : فمعه يغدو المتوسّط قيمةً.»(٦٦)

إنّه تحوّل لا يدحَض في تاريخ تصوّرات المتوسّط.

سوف يتبنّى الجغرافيون، بالإجمال، الرؤية التي مهّد لها ريكلو لمتوسّطٍ هو مولد حضارة. فبعد خمسين سنة على إنجاز «الجغرافيا الجامعة» لأليزيه ريكلو، سوف يشرف بول فيدال دو لابلاش (Paul Vidal de la Blache) بالاشتراك مع لوي غالوا (Louis Gallois) ، على تدوين «جغرافيا جامعة» على نطاق أوسع. وقد أنشىء فيها جزء، في قسمين، حول «المتوسّط، وشبه الجزر

المتوسّطية»[٦٧]. فكان ذلك بمثابة تكريس للمتوسّط في النسق الجغرافي. وكتب المؤلفان، في سياق رؤية ريكلو نفسها، في المقدّمة التي جاءت بعنوان «العالم المتوسطي»، وهو للمناسبة عنوان يفترض مسبقاً وحدة هذا الكلّ الشاسع الأرجاء، ما يفسّر بأنّه اعتراف بهذه الصلة بالأصل :

«إنّ أرفع أشكال الحياة الأخلاقية والحياة الاجتماعية قد نشأت على ضفاف البحر الداخلي. وإذا كانت عناصر الحضارة المتوسطية ليست كلّها فريدةً، فهي، على الأقلّ، تنجز مثالاً للتوازن مع إمكانيات ملحوظة للتقدّم. خارجها، لم يكن عندنا، ولأزمان طويلة، سوى برابرة، ونحن نحيا على ميراثها.»[٦٨]

بالمعنى نفسه، نجد في هذا العمل المرجعي، وفي الفصل المعنوَن : «مكانة المتوسّط في البشرية»، فقرةً بعنوان «الوقائع الدائمة»، وفيها تبرز أشكال الخطاب، وعلى نحو واضح، الوحدة المتوسّطية، وبُعدها الحضاري. إذ يرد فيها، على سبيل المثال، بشأن البلدان المتوسطية :

«كان البحر، وما زال، هو الذي يوحّدها؛ وقد جلبَ لسكان سواحله نهج الحضارة العريض، ومعه، الثروة، وفي الأغلب، السلطان.»[٦٩]

وأكثر من ذلك، بشأن الشعوب التي تعرّضت غالباً للغزو،

«لقد اضطرّ الأهلون مراراً إلى إعادة بناء ما كانوا قد بنوه، غير أنّ تفوّق حضارتهم لطالما أتاح لهم أن يحضّروا غزاتهم (التشديد لنا).»[٧٠]

المتوسّط هو، حقاً، باعث للحضارة. ويمتلك من القدرة على الاستقطاب وقوّةَ التمثّل ما يكسبه تفوّقاً فعلياً.

لقد أسهمت خطابات هؤلاء الجغرافيين الفرنسيين الكبار في صوغ تصوّرات المتوسّط كما أسبغت على هذا الإقليم، بمنطوقها «العلمي»، بعداً آخرَ، واعترفت له بموقعٍ في النسق العالمي،

فأوجدت بذلكَ فرعاً جديداً لنِسابته.

متوسّطُ أدب الرحلات، بين التاريخ والخيال

إنّ متوسّط الرحالة مختلفٌ، وإن وجدت أحياناً تلك التقاطعات والتغطيات بين مختلف أنساق الخطاب هذه، بين انطباع ذاتي، وانفعال ذي طابع جمالي أو أدبي، وبين تحليل موضوعي وعلمي لمشهد طبيعي ولمنطقةٍ من العالم.

إنّ المقدّمة لـ «العالم المتوسطي» في «الجغرافيا الجامعة» التي أشرف عليها فيدال دو لابلاش وغالوا، تبدو خير مثال على ذلك :

«إنّ الطبيعة والبشرية المتوسطية تشكلان تركيبة جغرافية فريدة مزدانةً بكلّ فتنِ التاريخ. والفكرة التي قد نكوّنها عنها لا تنفصل عن صورةٍ ما للمشهد الطبيعي الكلاسيكي. فالسحر الذي يستأثر بالمسافر الوافد من الشمال نزولاً إلى ضفاف المتوسّط، هو أحد الانطباعات التي لا يسأم منها البشر. صفاء الجوّ، وهدأة البحر ذي اللون البنفسجي، المتماوجة صفحته من الهبوب الخفيف، ونبل الجبال أيضاً، تبعث فينا شعوراً بالدَعةِ وتبعد عن أنفسنا كلّ ما ليس تناغماً وحُسناً. من يبتعد عن هذه الضفاف يحفظ منها حنين التذكار. إنّ تحليل السمات الجوهرية لهذه المشاهد الطبيعية، والبحث فيها عمّا تثيره في روعنا من انطباع الوضوح والدقّة، وفي الوقت نفسه، التوازن، إنما هو غوصٌ، منذ البداية، في معرفةِ العالم المتوسّطي.»

في موضعٍ آخر وفي سياقٍ مماثل :

«الوضوح والدقّة ينبعان أيضاً من تنافر الألوان، من خلوصِ تلاوين البحر والسماء، وعلى الأخصّ ، من نقاوة الضياء ورقّة الهواء. في الجوّ الملتهب تبرز تضاريس الأشياء بعضها بعضاً، وتتقارب الأشكال. النور يخترق أوراق الشجر الكثيفة التي ليس لظلالها ثقلٌ أو صفاقة. ولنضف إلى هذه الانطباعات الأساسية، شعوراً بالثبات والديمومة والاتزان ناجماً عن كون هذه المشاهد لا تتغيّر إلاّ قليلاً مع تبدّل الفصول.»[٢١]

لكي يتمّ التوصّل إلى مثل هذا الوصف «الجغرافي»، في ثلاثينات القرن العشرين، كان ينبغي، طيلةَ ما يقرب القرن، تكوين متخيّل للمشهد المتوسّطي يحمّله قيم «الشفافية والتناغم والوضوح والدقّة والديمومة والاتزان..» تلك.

بين التاريخ والخيال، هذه البلاغة الإنشائية لما يسميه بول ريكور «الهوية السردية»، كان أدب الرحلات هو المنهل، وهو العنصر الذي غذّى متخيّل المشهد المتوسّطي ذاك.

لا يسعنا أن نستعيد هنا كلّ سرديات أدب الرحلة في المتوسّط خلال القرن التاسع عشر، لكثرتها ووفرتها. فلن يتسع لذلك كتاب واحد، وقد تناولتها، إلى اليوم، مؤلفاتٌ قيّمةٌ كثيرة. بل سنحاول، في اقتفائنا نسابة تصوّرات المتوسّط، أن نميّز في هذه السرديات عدداً من الاتجاهات البارزة.

هناك تمايز على قدر من الوضوح بين الرحلة التصويرية، الاستجمامية، إلى متوسّط ساحليّ مُستأنَس، من جهة، وبين الرحلة إلى الشرق، نحو بلاد قصية، حيث تكون الرحلة سعياً وراء الغريب وغير المألوف، من جهةٍ أخرى.

لطالما نُظرَ إلى المتوسّط بوصفه «أرض الفراغ» تلك التي حاول ألان كوربان (Alain Corbin)[٧٢] استكشاف تخومها. ما من رغبةٍ في البحر، بل، على الضد من ذلك، خشية من الضفاف، وخوف حيال هذا المتّسع المائي الذي قد يبتلعنا. لن يتغيّر منحى هذه العلاقة مع البحر، كما برهن ألان كوربان، إلاّ في الفترة الممتدة بين منتصف القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر. عندئذ فقط سوف تتوطّد تلك «الرغبة في الضفّة»، وسوف تُعَدّ لها عدّةٌ جديدة وتتجسّد. وسوف يؤدي اختراع الآلة البخارية، ثمّ السفينة البخارية، عبر ما يشيعه من أمانٍ في حركة الملاحة، إلى انقلابٍ في منحى العلاقة بين الإنسان والبحر. إذ لم يعد البحر مخيفاً، بل بدأ بالتحوّل تدريجاً إلى مجالٍ مرغوبٍ فيه.

تنتمي الصلة بالمتوسّط إلى هذا المتخيّل البحري الجديد، إلى هذه الصلة الفريدة بوسطٍ طبيعي كفّ، تدريجاً، عن أن يكون معادياً في متخيّل الناس. المتوسّط الأليف، الذي تغذّيه فتنة العصور السحيقة، هو الذي بدأ يظهر. وجرى الانتقال من عهد «البرج العالي» في إيطاليا، الذي كان، فيما مضى، حكراً على الأرستقراطيين والمولعين بالفنّ، إلى عهد «البرج الخفيض» عند شاطىء البحر. وقد تكون «مناظر سواحل فرنسا من المحيط ومن المتوسّط» للرسام البحري لوي غارنوراي (Louis Garneray) [٧٣]، هي خير مثال على ذلك. كما يشهد للواقع نفسه النص الذي أرفق بـ «الرحلة التصويرية» لـ م. جووي (M. Jouy) :

> «في هذه الرحلة الجديدة، كلّ شيء سيكون في أعيننا جديداً. المناظر كما السكّان ؛ السماء كما المناخ ؛ البحر كما السفن التي تمخر عبابه. جنائن زيتون وليمون حامض، خضرة في كلّ الأرجاء وارفة، وأرياف تزدان بالقرى البيض ذات الأسقف الحمر، التي تبرق ألوانها بتلاوين شمس الظهيرة الحارّة. سماءٌ حيث العواصف، وإنْ كانت عنيفة أحياناً، عابرة (...) ذاك هو تاريخ البلدان التي سنمرّ بها. بدل الأشرعة المربّعة المنشورة لسفنِ الغرب (هكذا يُسمّى في المتوسّط كلّ ما يأتي من الغرب أو مغرب الأرض) سوف نصادف، في معظم الأحيان، الأشرعة المثلّثة للطراطن (مراكب وحيدة الصاري) أو الفُلُك، التي حفظها ثبات البحرية التركية من زمن القرون الوسطى، فحفظتها بحرية المتوسّط كلّه على غرار الأتراك. هكذا من خلال مشاهدتنا لنوتية هذا البحر سوف يدهشنا نحوٌ من وحدة التقاليد والعادات وشبه وحدةٍ في اللغة بينهم، تجعل من الشعوبِ الثلاثين المختلفة التي تمخر سفنها عباب المتوسّط، أشبه بشعبٍ واحد من البحّارة.»

إنّ قيم المشهد المتوسّطي التي وجدناها كبديهة في الخطاب الجغرافي، بعد ذلك بقرنٍ من الزمن، تظهر بوضوح في هذا النص الذي يرقى إلى العام ١٨٢٣. لا بل إنّنا نعثر فيه على فكرة المتوسّط ككلٍّ ذي سمات مشتركة. يتحدّث النص عن «نحوٍ من وحدة التقاليد والعادات وشبه وحدة في اللغة ...»

أدب بأكمله، تصويري وبحري، أدب رحلات واستجمام، سوف يكتَبُ خلال ذلك القرن جاعلاً من المتوسّط مقصداً جذّاباً ومرغوباً به.

على هذا النحو نقرأ كتاب لوي إينو (Louis Enault) : المتوسّط جزره وضفافه[٧٤]. لقد أصبح هذا الكتاب، الصادر عام ١٨٦٢ ، بعد عشرين عاماً من صدوره، أحد المؤلفات التي يكافأ بها التلامذة المبرّزون في المدارس. وفيه نعثر على قصيدة حبّ صريحة بالمتوسّط :

«لقد وفيت بعهدي : التقينا مجدّداً أكثر من مرّة. حاذيت شواطئه وزرت كلّ جزره، وعبرت كلّ مضائقه وأمكنني أن ألخّص كلّ انطباعاتي بكلمة، أحسب أنها كافية لتسرد حكاية كلّ الصداقات وكلّ الغراميات ! كلّما شاهدته، ازددت حبّاً له !»[٧٥]

وهو، من جهة أخرى، يعقد المقارنة بين المحيط وبينه :

«المحيط الذي طالما أنشدتُ مآثره، ليس المحيط إلاّ محدث نعمة : فهو لا ماضيَ له. أمّا ماضي المتوسّط فيرقى، إذا جاز لي القول، إلى نشأة العالم في أيامه الأولى، وذكرياته تتصل بذكريات البشرية. كم من الشواطئ تلامس مياهه، وكم من الأنهر يحتضن، وكم من القارات تجتمع من حوله، وكم من الجزر يحوطها بأمواجه الجميلة ! إنّه يتعطّر من أريج شجرات الليمون في قادش، ويغفو في خليج إزمير...»[٧٦]

ودائماً يمتدح، في سرد رحلته، قيم المشهد المتوسّطي :

«ما من مكانٍ آخر تكون فيه السماء والأرض والبحر متواطئةً بمثل ذلك التناغم المدهش الذي يفتن النظرَ بتألّق خطوطه وانسجام ألوانه. ما من مكان آخر تزدان فيه الشواطئ والجزر والخلجان والجبال بمثل تلك الخطوط النقيّة، وتلك الحركة الرشيقة، وذاك التموّج المنساب، وتلك التضاريس الصارمة. إذ يمكننا أن نجوب المشهد ونحن ما زلنا على جانب السفينة.»[٧٧]

فالمتوسّط، في نظر أولئك المسافرين، هو أرض أليفة :

«... المتوسّط هو، حقاً، بحيرة تتخللها مجموعات من الجزر؛ حتّى لو طوينا الأشرعة : فيقيننا أننا سنبلغ ساحلاً مضيافاً؛ ليس حتماً علينا أن نختار لكي نعثر في تعرّجات شواطئه على موانئ جميلة، وخلجانٍ أنيقة، وثغورٍ رائعة وشواطئ فاتنة.»(٧٨)

إلى جانب لوي إينو، نعثر في فرنسا، بين عامي ١٨٧٠ و١٩١٤، أدباً كاملاً ووافياً عن متوسّطٍ استجمامي زاخر بالصور(٧٩).

أمّا الرحلة إلى الشرق فتنتمي إلى تصوّر آخر، مختلفٍ، للمتوسّط. الغرض هنا مختلف. ذلك أنّ الجاذب وأصل الرحلة إلى الشرق وأنواع السرد التي تثيرها، ليس لها أي بعد بحري.

في معظم هذه النصوص السردية، هناك، بحسب الصيغة التي اقترحها جان روبير هنري (Jean-Robert Henry)، «حذفٌ للبحر». وإذا كان المتوسّط ليس غائباً عن الرحلة إلى الشرق، فهو، على الأقل، ليس مركزياً، ويبقى، في الأغلب، هامشياً. فهو هنا لا يشكّل لا بؤرة اهتمامٍ ولا موضع إلهام لأولئك الرحالة. ما يسعون وراءه هو، أولاً، صلةً بالبعيد، بالمجهول، بالآخر. وما يجذبهم ليس متوسّطاً ساحلياً أو أليفاً، بل، قبل أي شيء، أرض بعيدة، غريبة، غير مألوفة، هي الشرق...

ذلك أن المتوسّط يعاود تعيين المركز بالنسبة لهم في الوقت الذي يسعون فيه وراء فقدان أيٍ مركز. هذا البحث عن الشرق، عن الآخر، هو، في الوقت نفسه، بحثٌ عن الذات. الشرق المتخيّل أو كيف يمكن أن نفكّر الآخر بحسب ذات النفس، بحسب التحليل المتميّز الذي اقترحه تييري هنتش في كتابه(٨٠).

ليس هذا سوى نزعة، على قدرٍ من الدلالة برغم ذلك، بين نصوص أدب الرحلة إلى الشرق التي ألّفها بعض أبرز الكتّاب الفرنسيين في القرن التاسع عشر، من نرفال (Nerval) إلى فلوبير

(Flaubert)، ومن شاتوبريان (Chateaubriand) إلى لامارتين (Lamartine)، ومن دوما (Dumas) إلى موباسان (Maupassant)...[٨١]

المتوسّط والمشروع الاستعماري

لقد شهد المشروع الاستعماري الفرنسي عِدّةَ مراحل وعدّة أطوار، كما شهدَ مظاهرَ سياسية وإيديولوجية متمايزة، اختلفت، انطلاقاً منها، أشكالُ الخطاب. كانت الجزائر هي البلد الذي شهد القبضة الاستعمارية الأشدّ لفرنسا. فقد كان هذا البلد وأرضه مسرح الصراع المتمادي على شرعية المشروع الاستعماري. وقد تمثّل ذلك، على الأخصّ، في تبرير استملاك المستوطنين ذوي الأصول الأوروبية، وتحديد الشروط المرجعية لانتماءٍ مستديم، من شأنها أن تقيم التمايز عن «الأهلين». ففي ظلّ ظروف كهذه تشكّلت، في مطلع القرن، سلسلة من الخطابات حول المتوسّط بشأن الجزائر الاستعمارية.

طبعاً سوف يبرز المتوسّط كمرجعية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، غير أنّ هذا ما كان ليتمّ لا وفق رؤيةٍ للكلّ ولا وفق مشروعٍ إيديولوجي ناجز. إذ نعثر، على سبيل المثال، لدى لوي فوييو (Louis Veuillot)، وهو كاتب كاثوليكي نشر في العام ١٨٦٣ كتاباً حول الجزائر بعنوان: «ذكريات رحلة جرت عام ١٨٤١»، على ذكرٍ واضح للمتوسّط:

> «المتوسّط هو بحر الأفكار والحضارة والفنون، إنّه البحر الملحمي. ليس المحيط من دون المبشّرين الأقداس الذين يعبرونه أحياناً، سوى طريق البالات وبحرٍ تجاري. على المتوسّط تعاقبت اليونان وإيطاليا والإنجيل؛ وفيه أغرق القرآن. أمواج المتوسّط كانت أوّل من شهد الصليب فحملته من ضفّةٍ إلى ضفّة.»[٨٢]

إنّ قراءته للمتوسّط تبدو دينية في المقام الأوّل، باعتبار أنّ الإسلام يجسّد العدو.

في نهايات القرن التاسع عشر، سوف تتشكّل إيديولوجية متوسّطية حقيقية بشأن الجزائر :

«حريٌ بنا أن نمنح مجدداً هذه الأمّة الناشئة ماضياً، وأن نعثر لها مجدداً على جذور. فالمتوسّط يغدو المركز السطحيّ لثقافةٍ تمثّل الجزائرُ فرصتها الخلاصيّة.»(٨٤)

في مواجهة الثقل الديموغرافي «للأهلين»، كان المطلوب أن ينشأ شكل من أشكال التكتّل بين مختلف فئات السكّان ذوي الأصل الأوروبي. فما عساه يكون، في مثل هذه الحال، أفضل من تحديد أصلٍ مشترك ؟ فيغدو المتوسّط اللاتيني هو المبدأ المؤسّس، هو هذا المرجع النَسَبيّ الذي انطلاقاً منه ينبني الانتماء المشترك.

ومنذ ذلك الحين سوف يجهد المؤرخون وعلماء الآثار والمنظّرون في رفد هذه الرواية المؤسّسة بأجزاءٍ لا تستقيم إلاّ بها. هكذا ستظهر علامات وآثار ورموز من «إفريقيا الرومانية» لتشكّل نَسَباً أسطورياً. ذلك أنّ هذا الميراث اللاتيني، الروماني، المسيحي لا يستقيم، بنظرهم، في شرعيّته إلاّ إذا كان أوّلاً، أي سابقاً على ظهور الإسلام.

وفي مثل هذه الحال، لِمَ لا يضرب صفحٌ عن «القرون المظلمة للإسلام» والانتماء مجدداً إلى هذا الميراث السابق عليه ؟ إنّ انبعاث النزعة اللاتينية في الجزائر الاستعمارية سوف يسم بميسم دائم نِسابة تصوّرات المتوسّط. فكما يلاحظ، بحقّ، فيليب لوكا وجان كلود فاتان (Jean- Claude Vatin) :

«إنّ نبش خرائط الصروح الأثرية، وإطلاق الكتابة بالحرف اللاتيني مجدداً، وافتتاح ورش الحفريات، كان مسعىً لردّ إفريقيا الشمالية إلى أصلها اللاتيني. كما كانٍ يهدف، خاصّةً، إلى منح بؤرة الاختلاط الجزائرية نسباً، وشجرةً عائلية. وكان ذلك بمثابة استبدال الأسلاف الحقيقيين لأبناء الجنسيات المختلفة بسلفٍ أسطوري مشترك يليق بالحلم الكبير الذي قرّر لوي برتران (Louis Bertrand) على سبيل المثال، أن يجعله حلم أوروبيي

المتوسّط هؤلاء قاطبةً، والذين جاؤوا لاستيطان ما يغدو، بحسب المنطق السليم، أرضهم الخاصّة، أي الجزائر.»[٨٥]

كثيرة جداً هي النصوص التي تعبّر عن إيديولوجية المتوسّط اللاتيني هذه، في الجزائر. ومع ذلك يمكن القول إنّ هناك شخصية مركزية، نموذجية، أشبه بـ «مثقّفٍ عضويّ» للمتوسّط يستحق نتاجه التوقف عنده والتمعّن في النظر إلى تفاصيله.

نتاج لوي برتران غزير جداً، ما يزيد على الأربعين مؤلفاً، من دون ذكر المقالات والمحاضرات والنصوص الأخرى التي كتبها هذا المؤرّخ، والأديب، الذي انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية. لا يسعنا هنا إلاّ أن نقتبس من مجمل أعماله، ما يعبّر عن مشروعه الفكري الذي لخّصه، هو، على النحو التالي :

«بدايةً، أعتقد أني أدخلت إلى الأدب الروائي فكرة إفريقيا لاتينية معاصرة، لم يكن أحد من قبل قد تنبّه إليها. لقد أزحت الديكور الإسلامي والعربي المزعوم الذي كان يفتن الأبصار الساذجة، وأظهرت، من وراء هذا الرسم الباطل، إفريقيا حيّة تكاد لا تختلف عن باقي البلدان اللاتينية في المتوسّط. (...)

هذه الإفريقيا اللاتينية، برهنت فيما بعد على أنها لم تكن حادثاً قط، لم تكن واقعاً غير سويٍّ وحديث العهد أوجده الغزو الفرنسي، بل أنّها تملك جذوراً راسخةً في الماضي. بعبارة أخرى أقول إنّ إفريقيا الفرنسية اليوم، هي إفريقيا الرومانية التي ما زالت حيّة، والتي لم تكفّ يوماً عن الحياة، حتّى في أعتى عهود الاضطراب والبربرية. علماء الآثار كانوا يعرفون جيّداً إفريقيا الماضي تلك. ولكن يبدو أنهم كانوا يقطعون الجسور بينها وبين إفريقيا الحاضر. إنّ فضليَ الوحيد يكمن في أني استطعت ترميم هذه الجسور، وصوغ الخلاصة، وتصوّر إفريقيا كلّ الأزمنة على أنّها واحدة، لها كيان واحد، وروح جمعية واحدة وحيدة، تتواصل فيها الحياة عبر العصور. (...)

إنّ تقرير أمر مثل هذا لا يضمر أي عداوة للساكن الأصلي اليوم، بل على العكس. إنّه يعيد الصلة بين الأفارقة من السكان

الأصليين ولاتينيي الغرب، باعتبار أنّ هؤلاء وأولئك هم مستفيدون، على نحو غير متكافئ، من الحضارة نفسها. فما الذي يضير الجزائري أو التونسي المسلم إذا جاء من يذكّره بأصوله اللاتينية ؟ فكم سمعتُ، في مصر، مسلمين يفاخرون بالحضارة المصرية القديمة، ويقولون أمام معابد الأقصر ووادي الملوك : «هذا ما أنجزه أجدادنا الفراعنة» !

لِمَ لا يقول عَرَبُنا، هم أيضاً، أمام خرائب تيمغاد وتيفيست ومادوره : «هذا ما أنجزه أسلافنا الرومان» !

أمّا نحن الفرنسيين فليس لنا إلاّ أن نغتبط لأنّ الأمر على ما هو عليه. فلدى عودتنا إلى إفريقيا لم يكن علينا إلاّ أن نستعيد مقاطعة ضلّت عن اللاتينية. وهذه هي الفكرة الثالثة المولّدة لإنجازي الإفريقي. فلمجرّد أني سلّطتُ الضوء على هذه الفكرة، أعدتُ لمستوطنينا شرف كونهم السكّان الأوائل.

نحن، ورثة روما، نطالب بحقوقٍ لنا سابقةٍ على الإسلام. ويمواجهة العربيّ الغاصب، وحتّى الساكن الأصلي المستعبَد الذي رَبيَ على هوى الغاصب، نحن نمثّل نَسْلَ المهاجرين، أسياد الأرض الفعليين الذين أبحروا من «بلاد الغاليين» بذخائر كنائسهم ومحفوظاتها. فحيثما ارتفعت الفؤوس الرومانية المحزّمة ونسور الجوقات، نكون في ديارنا. نحن نمثّل إفريقيا الأرقى والأقدم. والنصب الرمزي للبلاد ليس المسجد بل قوس النصر. فمن العبث أن يفرض عليها، رسمياً، معمارٌ إسلاميّ مزعوم بذريعة أنّه المعمار الوطني أو الأكثر قدماً. إنّ المعمار الأقدم الأكثر أصالة هو المعمار اليوناني اللاتيني (...).»[٨٦]

يريد لوي برتران أن يكون باني حضارة، ولهذا الغرض ينشيء نَسَباً :

«أخيراً وجدت في المتوسّط، اليوم، اللاتيني الذي طالما كانه. كانت إفريقيا اللاتينية تخترق لأجلي خدعة الديكور الإسلامي الحديث. كانت تنبعث في مدن الموتى الوثنية وفي مدافن المسيحيين، في خرائب المستعمرات والأقاليم المستلحقة التي ملأت بها روما أرضها (...). إفريقيا أقواس النصر والمسلاّت،

إفريقيا أبوليوس والقديس أغسطينس كانت تنبثقُ أمام عينيّ. إنّها إفريقيا الحقّة. إفريقيا الشمال، البلاد التي ليس فيها وحدة عرق، بلاد العبور والهجرة الدائمة، والمقدّر لها أن تخضع لنفوذ أو سلطة الغرب اللاتينية. كان كافياً أن تأفل روما موقتاً، أو أن تأفل الهوية اللاتينية، لكي يبسط الشرق البيزنطيّ، العربي أو التركي، هيمنته عليها. وما أن يضعف الشرق فإمّا أن تستعيد إفريقيا الشمالية فوضاها الموروثة وإمّا أن تعود إلى قبضة الهيمنة اللاتينية التي منحتها قروناً من الازدهار، الازدهار الذي أبداً لم تشهده في السابق، والذي منحها للمرّة الأولى ما يشبه الوحدة، وشخصية سياسية وثقافية.

في حين أن العربي لم يجلب لها إلاّ البؤس والحرب المستمرّة والبربرية.» (٨٧)

هذا النَسَب الذي يرقى إلى قرطاجه وروما، والذي يفصّله لوي برتران، إنّما يريد أن يكون في خدمة مشروعٍ استعماري فرنسي :

«لقد حضّرت قرطاجه كلاً من إفريقيا الغربية والاستوائية ؛ ذاك هو المعطى الأرجح للتاريخ. لذلك، فإنّ فرنسا هي وريثة قرطاجه في إفريقيا، كما هي وريثة روما هناك. وعلى قدر اتساع الإمبراطورية البونيّة (القرطاجية) ينبغي أن تُبسط الهيمنة الفرنسية وتمتدّ. فإفريقيا السوداء هذه، هي قرطاجة الجديدة، وقد شرّعنا أبوابها مجدداً، بمضيّ آلاف السنين، لفكر المتوسّط وفنونه، وأنقذناها من فلول المستَعْبِدين التي كانت تعبث بها فساداً وتغرقها أكثر فأكثر في البربرية : إنّها قرطاجتنا أخيراً، لكي أستعيد العنوان الذي، لحسن الطالع، اختاره بول آدم (Paul Adam) عنواناً لكتابه.» (٨٨)

وباسم «مشروعٍ حضاري» يدافع عن المسعى الاستعماري :

«يتعيّن على الحضارة أن تبرهن على تفوّقها من خلال إحسانها. إذ لا ينبغي لنا أن نكتفي بردع البربريّ عن إيذاء سواه ونفسه، بل ينبغي أيضاً أن نخفّف عنه بؤسه. فلا يمكننا أن نبرّر وجودنا على هذه الأرض العدوة إلاّ بإتيان الخير.

هذا ما صنعته روما حتّى جاء اليوم الذي فقدت فيه، إلى قوّتها، وعيَ رسالتها. وها هي تعود إلى إحدى مقاطعات اللاتينية الكبرى. ونحن المتحدّرين مثلها من سلالة الإمبراطورية ومكمّلي رسالتها، لا يسعنا إلاّ أن نحيي بحبور عودة الفيالق والنسور إلى هذا المكان.»[٨٩]

عبر هذا التمجيد لروما واللاتينية، المتزامن مع نشأة الفاشية في إيطاليا التي لا يغفل برتران عن التوجّه بالشكر إلى كهنتها الذين أعانوه خلال رحلته إلى سيرينا، نجد أننا أصبحنا على طرف النقيض من الرؤية التي عبّر عنها السان سيمونيون، لقرن خلا، وخاصّة أميل بارو الذي كان يرى :

«أن الشرق ليس أرضاً عذراء ولا أرضاً قابلة لأن تحرق. إنه ليس وحشياً ولا بربرياً ولا طفلاً ولا شيخاً ولا خصيّاً. إنه يدرك كلّ ما يُعوِزه ويطلبه ؛ غير أنه مدرك أيضاً لكلّ ما يختزنه وأبداً لن يتخلّى عنه».

على الضدّ من ذلك، فما يسعى إليه لوي برتران هو أن يسفّه قيمة الشرق وأن يصنّف الإسلام على هامش الحضارة :

«ذاك أنّ الغالب في فرنسا هو حكمٌ مسبقٌ مؤيّد للإسلام، مؤيّد للشرق، يرقى إلى نشأةِ الرومنسية ويتضافر للدفاع عنه عنصران هما الرتابة الأدبية وإيحاؤها الذاتي، وكذلك التعصّب الفئوي كما أكثر المصالح سوقية. من الماسونية إلى الأدب، ومروراً بالمشاريع الرأسمالية والوكالات السياحية، هناك أفواج من السذّج والماكرين والحمقى، هذا إذا أغفلنا بعض الفنانين العباقرة، يستميتون في بعث سراب الشرق القديم أمام أعيننا.»[٩٠]

وكانت هذه المودّة الثقافية والأدبية حيال الشرق إنما تهدف إلى وضع

«المهزوم على منصّة تمثال. كان يمجّد بما يجافي الحسّ السليم كما يجافي كلّ عدلٍ. فبأي معجزة تستحيل القمامة والقذارة والبؤس والدمامة المكدِّرة، والحمَق والبربرية الخالصة،

إلى مزايا مذهلة ما أن تنسب إلى عربٍ أو شرقيين ؟ (...) ولكن لو كان مديح الأهلين هذا صحيحاً لما تبقّى لنا سوى أن نرحل ! فإنّها لجريمة أن نستعبد/ عرقاً هو ندّ لنا أو ربّما كان متفوّقاً علينا، وأن نفرض عليه حضارة لا ترقى إلى مستوى حضارته. سواء من قبيل التحيّز المحض أو لهوى أدبي أو لحكمٍ خيريّ مسبق، كنّا نرفض أن نرى مثالب المهزوم ورذائله التي لا سبيل لإصلاحها، كنّا نرفض أن نرى كلّ ما يحتّم عليه، في ظلّ الحالة الحضارية الراهنة، أن يكون على قدرٍ مستحقٍّ من الدونية، وبلا رجاء.»[٩١]

في مواجهة هذا الشرق المُسَفَّه، المحكوم بـ «دونية» لا فكاك منها، يستطيع المتوسّط اللاتيني أن يفرض حضوره على نحوٍ شرعي.

«إنّ علمهم المزعوم، وباستثناء خليط من الشروحات الفقهية والشرعية، يكاد يقتصر على مؤلفات منتحلةٍ وتحريفاتٍ للعلم والفلسفة اليونانيين واللاتينيين.»

ويتابع قائلاً بشأن الأندلس :

«إنّ العصر الوسيط الإسلامي في إسبانيا كما في إفريقيا، هو عبارة عن رتابة العالم المتوسطي القديم، إنّه لاتينية راكدة. في حين أن ذهنية النهضة، الذهنية الغربية الحقّة، ليست مجرّد عودة إلى العصور اليونانية اللاتينية القديمة بقدر ما هي ابتكار حرّ في الأطر التقليدية للعصور القديمة نفسها. إنّها جمال جديد، وعلم جديد. ولكن ما هو الجديد الذي استطاع العرب أن يأتوا به إلى إسبانيا ؟ كانوا لا يعلمون شيئاً ولم يجلبوا معهم شيئاً إلاّ إيمانهم المتشدّد.»[٩٢]

انطلاقاً من هذه المنتقيات الدالّة من فكر لوي برتران، يمكننا القول إنّ فكرة المتوسّط التي كان من أشدّ الداعين إليها، تختلط لديه بالمشروع الاستعماري. وقد توّجت هذه النزعة في احتفالات العيد المئوي لاستعمار الجزائر في العام ١٩٣٠، ومؤتمر القربان المقدّس في قرطاج الذي احتفل، في العام نفسه، بالقديس أوغسطينس والأسقف لافيجوري. وبذلك تكون النزعة الداعية إلى

قيام المتوسّط اللاتيني قد شهدت أوج بروزها، غير أنّ هذا الأوج كان، كما قال جاك بيرك (Jacques Berque)، «أوجاً مزيّفاً» :

«إنّ حماسة أناشيد الحرب، والمآدب، ومسيرات المئوية تثير لدى الكثيرين من الفرنسيين والمسلمين بدايةَ تشكيك.»(٩٣)

وسوف يكون أثر هذا «التشكيك»، من الداخل، كبيراً جداً على تصوّرات المتوسّط.

في الجزائر نفسها سوف يتشكّل، في الثلاثينات، تصوّر للمتوسّط في أوساط الناشر أدمون شارلو (Edmond Charlot) وألبير كامو (Albert Camus) وغابرييل أوديزيو (Gabriel Audisio). وتندرج هذه الرؤية الجديدة للمتوسّط، فضلاً عن التطورات الداخلية الخاصّة بالعالم الاستعماري، في سياق سياسي ودولي أكثر اتساعاً.

الواقع أنّ السجال السياسي والإيديولوجي والثقافي، في الثلاثينات، كان يدور حول الفاشية والمعاداة للفاشية. وعندما نشر كامو الشاب وغابرييل أوديزيو نصوصهما حول المتوسّط، كانت الأوساط الفكرية الفرنسية تخوض سجالاً محتدماً بشأن غزو أثيوبيا من قبل إيطاليا الفاشية.

وقد أجاب أندريه مالرو (André Malraux) المثقفين الذين أيدوا إيطاليا الفاشية، باسم الدفاع عن الغرب وعن النظام اللاتيني والحضارة، بالعبارات التالية :

«إنّ الحضارة تعني أن توضع قوة البشر، على قدر الإمكان، في خدمة أحلامهم، لا أن توضع أحلامهم في خدمة قوتهم.»(٩٤)

وباسم فكرةٍ مماثلة للحضارة كتب ألبير كامو، في محاضرة افتتاحية ألقيت في «بيت الثقافة في الجزائر»، في ٨ شباط/فبراير ١٩٣٧ :

«إنّ مناصرة قضية تدعو إلى نزعة إقليمية متوسطية قد تبدو،

في الواقع، دعوةً إلى إعادة الاعتبار لنزعةٍ تقليدية لا طائل تحتها ولا مستقبل لها، أو حتّى من خلال التغنّي بتفوّق ثقافة على أخرى، وأيضاً، إذا اتخذنا الفاشية من وجهة معاكسة، تحريض الشعوب اللاتينية على الشعوب الشمالية. فهنا يكمن سوء الفهم المتمادي. غاية هذه المحاضرة أن توضح سوء الفهم هذا. كلّ الخطأ يتأتى من الخلط بين المتوسّط وبين الانتماء اللاتيني ومن نسبتنا إلى روما ما يعود حقّاً إلى أثينا. بالنسبة لنا الأمر واضحٌ وصريح، إذ لا يسعنا أن ننتمي إلى «قومية الشمس». ولا يسعنا أن نرضخ لتقاليد وأن نربط مصيرنا الحيّ بمآثر ميتة منذ زمن طويل. فالمتوسّط الذي يحيط بنا هو، على الضدّ من ذلك، بلاد حيّة، زاخرة باللعب والبسمات.»[٩٥]

ويتابع كامو قائلاً :

«هذه النزعة اللاتينية هي التي يحاول مورّا (Maurras) ضمّها. وباسم هذا النظام اللاتيني وقّع أربعة وعشرون مثقفاً من الغرب بياناً حول القضية الأثيوبية، يمتدحون فيه الصنيع الحضاري الذي قامت به إيطاليا في الحبشة البربرية.

ولكن لا. ليس هذا هو المتوسّط الذي يدعو إليه «بيتنا الثقافي». لأنّه ليس المتوسّط الحقيقي. فهذا ليس سوى المتوسّط المجرّد والتقليدي الذي تصوّرته روما والرومانيون. فشعب المقلّدين ذاك، المجرّد من أية مخيلة، تخيّل، مع ذلك، أنه يستطيع أن يستبدل العبقرية الفنية ومعنى الحياة التي كانت تعوزه، بعبقرية المحارب.»[٩٦]

وفي موضعٍ آخر، يوضح كامو مفهومه الخاص للمتوسّط :

«المتوسّط هو في مكانٍ آخر. وهو بالذات نفيٌ لروما والعبقرية اللاتينية. إنّه حيٌّ لا يعوزه التجريد. وبالإمكان القول، طوعاً، إنّ السيّد موسوليني هو المكمّل اللائق لقيصر وأغسطس القديمين، إذا كان القصد من ذلك بأنّه يضحّي، مثلهما، بالحقيقة والعظمة لقاء العنف الفاقد الروح.»

إنّ رؤية المتوسّط التي يدعو إليها تقوم على تحالفٍ ممكن بين

الشرق والغرب :

«بوصفه حوضاً دولياً تعبره كلّ التيارات، المتوسّط وحده ربّما، من بين كلّ البلدان، هو الذي تلتقي فيه كلّ الأفكار الشرقية الكبرى. ذلك أنّه ليس كلاسيكياً ومنسّقاً، بل غامض ومضطرب، كحال تلك الأحياء العربية أو تلك الموانئ في جنوى وتونس. ذلك الحسّ المنتصر بالحياة، ومعنى الانسحاق والسأم، الساحات المقفرة وقتَ الظهر في إسبانيا، القيلولة، تلك هي، كلّها، المتوسّط الحقّ، وهي ما يقرّبه من الشرق. لا من الغربِ اللاتيني. إنّ إفريقيا الشمالية هي إحدى البلدان الوحيدة التي يتعايش فيها الشرق والغرب. وفي هذا الملتقى ما من فرقٍ بين الطريقة التي يحيا بها الإسباني أو الإيطالي من سكّان مرافئ الجزائر العاصمة، والعرب الذين يحيطون بها. وما هو جوهريٌ في عبقرية المتوسّط ينبثق ربّما من هذا اللقاء الفريد في التاريخ وفي الجغرافيا التي نشأت بين الشرق والغرب (ولا يمكننا إلاّ أن نحيل القارئ، بهذا الشأن، إلى ما كتبه أوديزيو).»[٩٧]

في هذا النصّ/ البيان يتبنّى كامو، بوضوح، موازين القوّة الرمزية بشأن تصوّرات المتوسّط، ويكتب :

«إنّ مهمتّنا هنا هي أن نعيد الاعتبار للمتوسّط، وأن نستعيده من الذين يطالبون به من دون وجه حقّ، وأن نعدّه لتلقّي أشكال الاقتصاد التي تنتظره. (...)

نكون على استعداد لأداء هذه المهمّة بقدر ما نكون مستعدّين للتماس الفوري مع هذا الشرق الذي بمقدوره أن يعلّمنا الكثير بهذا الشأن. نحن هنا مع المتوسّط ضدّ روما.»[٩٨]

سوف يكون إسهام غابرييل أوديزيو في هذا النقاش بشأن تصوّرات المتوسّط في زمن الاستعمار، أشدّ وقعاً. فيكتب في «ملح البحر» :

«إني واثق من أنّ هناك صراعاً دائماً بين الشرق والغرب. للمتوسّط حوضان : الشرقي والغربي، بحر الغروب وبحر الشروق.

قطبان جغرافيان، قطبان روحيان. (...) غير أن الشرارة تبرهن أيضاً على أنّ تيّاراً قد ينشأ ويجري بين القطبين. فلطالما كان دور البحر لا أن يفصل بل أن يجمع.»[٩٩]

ففي التصوّر الذي يبنيه أوديزيو، ليس المتوسّط حدّاً فاصلاً بين ضفّتين، بل هو صلة وصل. حتّى أنّه يرسم شكلَ دائرة :

«يبقى المتوسّط المعاصر شبيهاً بعالم الأقدمين، ذلك أنّ عالمهم كان هو، ولا شيء سواه، المتوسّط : إنّها دائرة. كلّ النقاط فيها تقف على نفس المسافة من المركز، وكلّ ما فيها يرجع إلى المركز بفعل ضربٍ من ضروب الديناميكية الجاذبة.»[١٠٠]

رؤية المتوسّط هذه، المبنية حول دائرة، تتعارض بوضوح مع فكرةِ متوسّط لاتيني طالما مجّده لوي برتران :

«إلى أبعد ما تأخذني ذكرياتي أجدني ضدّ روما، إلى جانب أعدائها وضحاياها، إلى جانب أولاء الذين هزمتهم روما.»[١٠١]

ويقول بإصرار :

«إذا كنت أعود إلى تناول الموضوع مجدداً، فذلك لأنّ المعجبين بروما يرغمونني على اتخاذ موقف. لست ممن يعشقون خوض السجالات، غير أنّ صلفَ «النزعة اللاتينية» ومغالاتها يتخذان أشكالاً من الاستفزاز بحيث أجدني في حال دفاعٍ شرعي عن النفس : قد يكون ارتكاس تمرّد، أو فطرة عدالة. إنّ قَسَمَ هنيبعل، طفلاً، بأنّه أبداً لن يكون صديق الرومان، يستبدّ بي كأنني، طفلاً، قد نطقت بمثل هذا القسم ! لماذا ؟ لأنّ متملّقي اللاتينية ينطقون بألف لسان عبر مؤتمرهم وعبر نشراتهم وعبر أكاديمياتهم. لأنّ روما هي قبلة مشاعرهم الوحيدة : ضروب الحبّ والملذّات والأراغن، أنقذوا روما وفرنسا ! لأنّ عشقهم الهاذي لروما يجعلهم يكتبون الترّهات الخالصة. يتباهون بأنّهم يوقّعون أبياتهم الشعرية على وتائر خطى الفيالق، والنسق الروماني في الصفّ الرباعي بقيادة هؤلاء المعاونين الغنائيين يجلب لنا... والحقّ ما الذي يجلبه لأرواحنا الجائعة لغذاء الروح ؟ مبانٍ وعساكر : جسور وطرقات معبّدة، مارشاليّة ! بلغ بهم الأمر أنّهم امتدحوا تباينات

وتناقضات المتوسّط بدلَ أن يروا أنّه يغذي هذه التباينات لكي يرسّخ، على نحو أفضل، ألف تشابه هي التي تصنع وحدته. وقد يذهبون، في غيّهم، إلى حدّ تحريض الغرب، الذي يطابقون، بوقاحةٍ، بينه وبين اللاتينية، ضدّ الشرق بدلَ أن يدركوا بأنّ سرّ المتوسّط العظيم يكمن في التوفيق بين الشرق والغرب. ويمضون في غيّهم حتّى العنصرية.»(١٠٢)

صحيح أنّ لوي برتران ما كان يتردّد في القول :

«لامساواة أساسية، جوهرية، لا تعوَّض بين الأعراق البشرية : هذه هي الفكرة التي ينبغي أن نلجأ إليها إثر كلّ معاينة دقيقة للكائن البشري. إني أرى أنّ قراءة تحفة غوبينو (Gobineau) ، رائعته تلك، المسمّاة «مبحث في لا تكافؤ الأعراق البشرية»، راهنة اليوم أكثر من أي وقتٍ مضى.»(١٠٣)

لكنّ أوديزيو يوضح في معرض هذا السجال :

«غير أني أودّ أن تصغوا إلي جيداً. ليس الغرض، في طويّتي، أن ألغي روما، والحضارة اللاتينية ودورهما التاريخي، ولا أن أستبعدهما من المتوسّط. بل غرضي مجرّد الاعتراض على استغلالهما، على المكانة المفرطة التي تنسب إليهما.

باسم المتوسّط والعبقرية المتوسّطية، أرفع صوتي ضدّ حصرية تأليه روما، لأنّ روما قد تكون الأقلّ متوسطية من بين ما أنتجه المتوسّط. أودّ أن أضع روما في «المرتبة التي تستحقها»، وهي مرتبة بارزة، غير أنّها ليست ذروة المراتب ولا كلّ المراتب. أودّ أن أبرهن على أنّ مسكونية روما ليست سوى خدعة. وأؤكّد أنّ عبقرية المتوسّط ترفض أن تختزل بالعبقرية اللاتينية ونزعتها الإنسانية حيال البشرية. فمقابل لاتينية التبحّر بالعلم والأبيات الموزونة، حيث الميثولوجيا الفيرجيلية (نسبةً إلى فيرجيل) هي اللغة السائدة، أضع الرومنسية المتوسّطية التي لا سبيل لدحضها. ومقابل هذه اللاتينية المتصلّبة أضع كلّ ما يصنع الحضارة المتوسّطية : اليونان، مصر، يهوذا، قرطاجه، المسيح، الإسلام. وفي آخر الأمر، أضع اللاتينية ذاتها.»(١٠٤)

ذلك أن غابرييل أوديزيو يرى، بالفعل،

«أنّ مطابقة الواقع اللاتيني على الواقع المتوسّطي، هي برأيي، خلاصة خطيرة. وأندّد بها. فلن أكفّ يوماً عن التمييز بين روما الموقتة وبين المتوسّط السرمدي، ولن أكفّ يوماً عن القول إنّ روما لم تكن سوى لحظة من لحظات المتوسّط، كما لن أكفّ عن المقارنة بين جندي المشاة الروماني بحقيبة ظهره، وبين بحّارة عوليس ومتاعهم، وأن أقارن بين اللاتينية البرية، القاسية والمحافظة، وبين شمولية البحر المتحرّكة والحيّة.»(١٠٥)

ويجيب أوديزيو على رؤيةِ البعض «نظاماً رومانياً، باعثاً للحضارة» بقوله :

«لقد تابعت الحضارة المتوسطيّة نموّها على هامش النظام الروماني، العسكري والسياسي، وليس بوساطته : وذلك عبر بقاء اليونانيين يونانيين، والبربر بربراً، وعبر احتفاظ أهل مرسيليا بالتقاليد الفوسيدية (اليونانية)، وتلقّي العالم بأسره رسالته الفلسفية من اليونانيين، ورسالته الدينية من الشرق السامي.» (١٠٦)

تدور المواجهة بشأن تصوّرات المتوسّط حول المواريث وخاصّةً حول قبول أو رفض «الشرق السامي»، أي حول الإسهام اليهودي والعربي. وهي المسألة المركزية في السجال الإيديولوجي والثقافي الذي أسهم فيه غابرييل أوديزيو بإجابةٍ واضحة تستحقّ أن نقتبس فقرات طويلةٍ منها :

«لقد بذلوا الكثير من طاقاتهم لكي يقنعونا بأنّ النزعتين الإنسانية واللاتينية ليستا، في آخر الأمر، سوى نزعة واحدة. وفي ذلك ثقة مفرطة بالنفس. فإذا ما أمعنّا النظر نكتشف كم هي فريدة من نوعها النزعة الإنسانية التي يقترحها علينا معظم «اللاتينيين». نلاحظ مثلاً إنّها صيغت لخدمة الأعراق الغربية، والبيض من بينها، إن لم يكن لبعض البيض المحظوظين. كما نرى أنّها، في نظر هذه الأعراق المختارة، مبدأ حضارة مبنية على النسق الروماني وتفرض تراتبية معدّة للحفاظ على الأشكال

الاجتماعية، وحفظ التقاليد الفكرية وأولوية الأمم المختارة.

ليس على هذا النحو أرى إسهام المتوسّط في ترسيخ معنىً للإنسان، أو للعرق، أو للمجتمع، أو للأمم.

العرق أولاً.

من يقول إنسانية يقول قيمة جامعة : حركة تنتقل من الإنسان إلى الإنسان، ومعدّة من أجل الإنسان. وتستبعد، على الأخصّ، العنصرية التي، تعريفاً، تضع أسرةً بشرية في مواجهة الأسر البشرية الأخرى. لقد أعلنت رأيي بشأن معاداة الساميين. فإذا شئنا التعمّق في المسألة، لافترضنا أنّ الغرض، مثلاً، هو تعبئة العنصرية اللاتينية ضدّ العنصر الجرماني، وإذ ذاك لا أحد يدري كيف كان سينظر للأمر. أكرّر هنا : أنا لا أرى، على الرغم من ميسترال (Mistral)، أنّ هناكَ ما يسمّى «بالعرق اللاتيني». لقد فرضت روما شرائعها على العالم لكنّها لم تفرض دمها عليه.

في المقابل أرى عرقاً «متوسّطياً»، غير أنّه مثال العرق غير الخالص، المكوّن من كلّ الإسهامات ومن كلّ الأخلاط : تماماً على الضدّ من تلك الكيانات الإتنية التي كانت، لظنّها بأنّها فريدة، لتستغلّ الأمر ذريعةً لفرض نفسها على الآخرين. من هم اللاتينيون الذين تتحدّثون عنهم، حكّوا القشور قليلاً فإذا باليهودي والعربي، والأسود أحياناً، على قرابةٍ منهم.

كذلك الأمر في إسبانيا وفي إيطاليا، وعلى سواحل البروفانس خاصّتنا : أقصد تلك الهياكل العظمية التي يسمّيها علماء الأنترويولوجيا « زنوج غريمالدي الصغار».

إذا كان المتوسّط، من زاوية نظر عرقية، يستطيع أن يعطي أمثولةً للعالم، فهي، بالضبط، أمثولة التجمّع بدافع التجانُس، بدافع الاجتماع، لجماعةٍ بشرية موجودة برغم فواصل الدم وفوق كلّ الحدود القومية. ومن شأن أي دستور متوسّطي أن ينصّ، في مادته الأولى، على حقّ الأعراق والمساواة بينها. بالنسبة لي، أنا مواطن في هذا المتوسّط، شريطة أن يكون مواطنيَّ هم كلّ شعوب البحر، بمن فيهم اليهود والعرب والبربر والسود.» [١٠٧]

في تصوّر المتوسّط الذي يصوغه، يعارض أوديزيو، على نحوٍ حاسم، كلّ مشروعٍ قومي أو إمبريالي. إنّ ما يدعو إليه هو يوتوبيا المتوسّط، بالمعنى الذي أراده بول ريكور لليوتوبيا، والذي يضعه بمقابل الإيديولوجيا :

«إذا كانت الإيديولوجيا تصون الواقع وتحفظه، فاليوتوبيا تضعها، جوهرياً، موضع الشكّ. اليوتوبيا، في هذا المعنى، هي التعبير عن كلّ الطاقات الكامنة لمجموعةٍ ما والتي تجد نفسها (أي الطاقات) مكبوتة من قبل النظام القائم.»[١٠٨]

النظام القائم هو، في نظر غابرييل أوديزيو، النظام الاستعماري، ويبدو له المتوسّط، على نحوٍ ما، خارجاً عنه، متجاوزاً له :

«كما أني لا أرى في المتوسّط عرقاً مختاراً، كذلك لا أجد فيه أمةً مختارة. وإذا عمدنا إلى تأسيس الشعور الوطني المتوسّطي على اللاتينية وعلى «بحرنا نحن» (mare nostrum)، فهذا يعني أننا نخونه. فوطن مبني على هذا الأساس لا أتحرّج من هجره طوعاً. وأرفضه، وربّما أكثر من أي وقت مضى عندما أرى زعماءه الزمنيين وحتّى الروحيين يحيون أشدّ المطامع المتوسطية جنوناً. إنّ أصداء نبراتهم العسكرية الانتصارية لن تسكت النغمَ الذي يصغي إليه شعوري الوطني المسالم : وحدة متوسّطية مبنية على شراكة الروح واحترام الحقائق الإنسانية، وطن متوسّطي يتقوّم بروحيةٍ أمميةٍ لشعوب البحر، منفتحة، مثلاً، على العالم، على كلّ الأسر البشرية طلباً لأشكال أوسع من التجمّع. يوتوبيا إذا شئنا. غير أنها يوتوبيا العصر، وأوكسيجين المستقبل. كم أؤمن بمستقبل المتوسّط، لأنني مؤمن بريعانه، وأؤمن بعبقريته التي هي قيمة خالدة، ومبدعة إلى الأبد.»[١٠٩]

إذا كان النقاش حول المتوسّط، كما بيّنت على ذلك الرؤى المتناقضة لأمثال لوي برتران وغابرييل أوديزيو، مرتبطاً على نحو وثيق، بالنقاش الدائر حول *المشروع الاستعماري*، فقد كانت له أيضاً أصداء واسعة في الوطن الأمّ، وخاصّة في بروفانس.

المتوسّط وبروفانس

سوف تتشكّل من حول شخصية ميسترال والفيليبريج (Félibrige) أو مذهب العاميّة، حركة واسعة تدعو إلى تجديد لغوي وثقافي في بروفانس. وسوف يتمحور نشاطها حول الفكرة اللاتينية.

هكذا سيصرّح ميسترال، في ٢٤ أيار / مايو ١٨٧٨ لمناسبة الألعاب الزهرية في عيد القديسة أستيل في مونبلييه :

«في الأعياد الكبرى التي تحتفل بها مونبلييه لنصرة فكرةِ اللاتينية، يقود الفيليبريج اللعبة كلّها. وإذا كان لأحد بالفعل أن يحمل طموحَ الوصل فيما بين الأمم الشقيقة كلّها، فإنّ هذا الأحد هم الشعراء العاميون الذين يدعون باستمرار، ومن قلب الأمم الرومانية السبع، إلى قيام نهضةٍ قومية. إنّهم هم الشعراء العاميون الذين يدعون، إذ ينقبّون التاريخ عن ذكريات نبيلة من شأنها استنهاض القلوب وبثّ التآخي فيما بينها، إلى احترام كلّ الأوطان، وما من غاية نصبَ أعينهم إلاّ العمل على قيام إمبراطورية الشمس.»

مرّة أخرى، تكون المسألة، في التاريخ الثقافي، مسألة أصول ونَسَب : فهؤلاء الشعراء العاميون الباحثون في التاريخ «عن ذكرياتٍ نبيلة» ينشئون هوية انطلاقاً من اختيار ميراث، من انتماء لنَسَب فريدٍ وحصريّ، هو نَسَب «العرق اللاتيني».

في اليوم التالي، وفي مونبلييه أيضاً، سوف يتلو فردريك ميسترال، وللمرة الأولى في ساحة بايرو، نشيدهَ «إلى العرق اللاتيني» :

«هيا انهض، أيها العرق اللاتيني،
تحتَ قرص الشمس !
العنب الأسمر يغلي في الدنّ
وسوف ينبجس نبيذ الله

لغتك الأمّ، ذلك النهر الكبير،
الذي يتشعّبُ سبعةَ روافد،
ساكباً الحبّ والضياء
مثل صدىً من الفردوس
لغتكَ الذهبُ، سليلة رومانية
من شعبٍ ملك، هي أنشودة
سوف تردّدها الشفاه
ما بقيت الكلمة على حقّ.
(...)

هيا انهض، أيها العرق اللاتيني،
تحت قرص الشمس !
العنب الأسمر يغلي في الدنّ
وسوف ينبجس نبيذ الله
بحرك الرقراق، هو البحر الصافي السريرة
حيث تبيضّ القلوع التي لا تعدّ
نسيج رقيق عند قدميكَ حلبته السائلة
عاكسةً لازورد السماء.
هذا البحر الضاحك أبداً
سقاه الله من روعته
كالنطاق اللامع
الذي سيجمع شعويك السمر.
هيّا انهض أيّها العرق اللاتيني
تحت قرص الشمس !
العنب الأسمر يغلي في الدنّ
وسوف ينبجس نبيذ الله
على شواطئك المشمسة
ينبت الزيتون، شجرة السلام.
وبالكرمة الوافرة
تفاخر حقولك

أيّها العرق اللاتيني، لذكرى
ماضيك المشرق دوماً،
أنهض نفسكَ نحو الرجاء
وليكن تآخيكَ تحت راية الصليب !
(...)»[١١٠]

إنّ نداء ميسترال الموجّه إلى العرق اللاتيني يتّخذ له المتوسّط مرجعاً، من دون أن يذكره صراحةً. إنّه يتحدّث عن «ذلك البحر الضاحك أبداً»، وعن «شواطئه المشمسة»، وعن الكرمة والزيتون، وعن «ماضيه المشرق دوماً»، وباسمه يوصي بالتآخي «تحت راية الصليب» !

لا شكّ في أن رؤية ميسترال راسية عند ضفّةٍ وحيدة، هي الضفّة اللاتينية، التي ينبغي أن تتوحّد وأن تتضامن. وقصيدته La Coupo (الكأس) وهي، بأية حال، سابقة على النشيد «إلى العرق اللاتيني»، ربّما كانت خير مثال على ذلك. لقد نظم ميسترال هذه الأنشودة لاستقبال كأس فضيّة مرصّعة كان الكتالانيون قد أرسلوها إلى شعراء العامية في العام ١٨٦٧ :

«يا أهل بروفانس، هي ذي الكأس
الوافدة إلينا من عند الكتالانيين :
فلنشرب معاً، وكلّ بدوره،
نبيذ خوابينا الصافي
(...)
من الشعب العريق الأبيّ الحرّ
ربّما كنا نحن الختام ؛
فإذا سقط الشعراء العاميون
سقطت أمتنا.
(...)
من عرقٍ يجدّد براعمه
ربّما كنّا أوّل تفتّحه ؛

ومن الوطن
ربّما كنّا نحن الأعمدة والقادة.
(...)
في سبيل مجد بلادنا،
جئتم، أخيراً، أنتم شركاؤنا
الكتالانيون، من بُعدٍ، أشقاؤنا،
معاً نبني هذه الشراكة !» [١١١]

من خلال هذا النشيد، «الكأس المقدّسة» (la Coupo Santo) الذي ذاعَ في أوساط الحركات البروفانسية، يعبّر ميسترال عن تضامن، وعن الحاجة إلى معركة مشتركة تخاض جنباً إلى جنب مع الكتالانيين، «هذا الشعب الشقيق». فرؤيته للمتوسّط حين تتعدّى حدود البروفانس، أرضه، هي، في المقام الأوّل، قاريّة، وتتعارض مع «العرب». كما يلاحظ جان كلود بوفييه (Jean- Claude Bouvier) :

«تدفعه قصائده، Calendal أولاً، ولكن أيضاً Nerto (١٨٨٤) و Lou Poemo dou Rose (١٨٩٧) ، إلى ترداد ذكر الصلات التاريخية بين بروفانس وشعوب المتوسّط، لاسيّما، كما سنرى لاحقاً، اللقاءات والنزاعات القديمة مع العرب أو الشرقيين الذين طبعوا، بلا ريب، الذاكرة الجمعية البروفانسية بسمة حاسمة.» [١١٢]

تحالف مع الكتالانيين، من جهة، ورحلة إلى إيطاليا من جهةٍ أخرى، حيث سيجد ميسترال أوجه شبه وقربى مع مسقط رأسه، بروفانس :

«استيقظنا ذات صباحٍ مشرقٍ على منظر البحر، غير أنّه لم يكن بصفاءِ ما نشهده في بروفانس، ولم نجد فروقاً كبيرة بين هذا المناخ ومناخ بلدنا»

كتب واصفاً من نابولي. ويضيف قبيل مغادرته :

«بعد أن سلّمت على العزيز هنري كاردونا، مراسل وعضو

الفيليدريج في نابولي، غادرنا آسفين ذاك البلد المرحِ الذي لطالما كان، على غرار بروفانس، مسحوراً بالغبطة من لمسةِ مليكتنا جان.» (١١٣)

يندرج ميسترال في سياق نزعة لاتينية يسهم بتكوينها في أعماله. فبروفانس الأسطورية والسرمدية التي يتغنّى بها، إنّما تحدّد انتماءً :

«لا شيء أبهى من قضيتنا : إنّها قومية تريد الحفاظ على نفسها من خلال اللغة التي فيها تكمن روحُ عرقنا، وشعراءُ هم رسل هذه العقيدة غير المؤذية، أقسم لكم، لوحدة فرنسا.»

في معركته من أجل بروفانس، لم يكن ذكر المتوسّط مركزياً. فقط الفكرة اللاتينية كانت ماثلةً بوضوح. وسوف ينهل شارل مورّا (Charles Maurras) من معين هذه المرجعيّات.

لقد كرّس شارل مورّا، المولود في مارتيغ (Martigues)، قسماً لا يستهان به من نتاجه لمسقط رأسه البروفانسي، عند أحواض بيرّ (Berre)، وللمشهد الميسترالي ولميسترال نفسه.

«يشقّ عليّ مجرّد التفكير في أنني قضيت نهاراً كاملاً في مايان، في المنزل الرماديّ والأبيض الذي يقيم فيه ميسترال، وأنّ لا شيء سيبقى، في ما سأكتبه، من كلمات ومن طابع هذا الشاعر المذهل، الأوّل والأكمل، برأيي، من بين شعراء القرن التاسع عشر.» (١١٤)

ومن خلال ميسترال، سوف يمجّد مورّا الأصول، والوطن الحقّ، منبت الشعور الوطني المكتمل :

«دعونا لا نخشى معاودة الحجّ إلى مذبحِ أصولنا ؛ فكثير من التقاليد والذكريات علِقَت به ! ذلك أنّ من العودة إلى كلّ موطن خاص نستمدّ القوّة لكي نخدم الوطن المشترك بما يليق به. سيكون للبروفانسيين من جيلنا فرصة أن يولدوا في لحظةٍ كانت فيها كلّ أفكار الروح البروفانسية وكلّ مشاعرها، التي لا ترضى الحياةَ

منثورةً بين الأهلين، قد اجتمعت وبلغت آيةَ رفعتها في شخص واحد عزيز علينا ومقدّسٍ كأنّه نصف إله. من يتعرّضون له بالانتقاد بذريعة الحرص على اللغة الفرنسية لا يبالون باللغة قط، هم الذين لا يتنطحون للدفاع عن الذهنية الفرنسية ضدّ أيّ من مظاهر الكوسموبوليتية.»(١١٥)

إنّ الرؤية المتحيّزة لبروفانس، كما يصوغها مورًا في تمجيده لأعمال ميسترال، تبقي على المسافة بينها وبين المتوسّط، أو على الأقلّ بينها وبين إحدى ضفتيه.

فما يستغرق تفكيره إنما هو الأصل اليوناني الروماني :

«إنّ حسّ الانتماء اليوناني الروماني بادٍ في مظاهر حياةِ بروفانس. ويوميات رحلة ميسترال إلى إيطاليا تعلّمنا ذلك ببساطة غير مدعية وبوقائع بليغة. إذ لم يكن على ميسترال أن يغادر دياره لكي يرفع نشيده السرمديّ للآباءِ المشتركين لحضارةٍ ولذهنية !»(١١٦)

إنّ المتوسّط الوحيد الذي قد يكون حاضراً في تصوّر مورًا هو متوسّط كلاسيكي، يوناني لاتيني، والتعبير عنه له شكلٌ بالغ الدلالة ؛ إنّه متوسّط هندسي. في السرد الذي كتبه بعنوان «الرحلة إلى أثينا»، يروي مورًا تفاصيل رحلته ويتحدّث عن البحر على النحو التالي :

«يقال إنّ بحراً بلا ضفاف هو قبس من اللانهاية. الآن أرى أنّ المقارنة باتت أقلّ إقناعاً بالنسبة لي. فالحقيقة أنّ لا شيء يحدّه حدّ أكثر من البحر. فالتنافر بين السماء الشاحبة وبين هذا البحر الأكثر دكنةً يعطي، على العكس مما نحسب، انطباعاً صارماً عن شكله. فهذه الأسطوانة اللازوردية الجميلة ذات شكلٍ هندسي تام.»(١١٧)

ويجد شكل المتوسّط الكلاسيكي هذا تمام تعبيره الجمالي في «ذلك الإنشاء الدوريّ (نسبةً إلى لهجةٍ يونانية قديمة – المترجم)، النبيل، المتين، والذي توفّر له قاعدته، وفقاً لاقتضاء الطبيعة

والعقل، متناً ذا رحابة»(١١٨). ما من عريسة أو زخرفة عربية، وما من تأثيرات وافدةٍ من الشرق من شأنها أن توحي بالكوسموبوليتية، وهي الفكرة التي ينتقدها موراً بحدّة.

أثناء رحلته إلى أثينا سوف يشارك، في العام ١٨٩٦ ، بافتتاح الألعاب الأولمبية الجديدة، كما صمّمها البارون بيار كوبرتان (Pierre Coubertin)، فيكتب بهذا الشأن ما يلي :

«عندما أعلن عن فكرتها للمرّة الأولى، أعترف أني لُمْتُه من أعماق قلبي. إذ لم ترق لي فكرة الاحتفال الأممي بالألعاب الرياضية. كنت أخشى أن تكون مجرّد تدنيس لاسمٍ جميل (الأولمبياد – المترجم) مصحوبٍ بتفسيرٍ معكوس. كما كنت أرى فيها مفارقةً تاريخية. الأولمبياد اليونانية كانت ممكنةً عندما كانت هناك يونان. منذ عهد الإصلاح، وعلى الأخصّ منذ الثورة الفرنسية، لم يعد هناك أوروبا : فماذا تعني الأولمبياد التي تشرّع أبوابها للعالم بأسره ؟ ذلك أن هذا الخليط من الأعراق من شأنه أن يؤدي، لا إلى اتحادٍ ذكيّ ومعقولٍ للشعوبِ الحديثة، بل إلى اضطرابات الكوسموبوليتية الغامضة.»

ويتابع :

«غير أنّ التجربة التي شهدتها أقنعتني أخيراً. لم تكن أسباب رفضي، في البداية، لتعوزها المبرّرات، لكنّها كانت غير مكتملة. (...) أمّا الكوسموبوليتية، فأحسب أنّ ليس هناك ما نخشاه منها، وذلك لسببٍ وجيه، وهو أنّه في أيامنا هذه إذا ألفت أعراقٌ مختلفة نفسها في جوارٍ بعضها البعض وكانت مرغمة على التواصل والاختلاط، فإنّ بعضها ينفر من البعض الآخر وتتباعد في اللحظة التي يخيّل لها فيها بأنّها تختلط.»(١١٩)

المتوسّط كما يرى إليه موراً يريد أن يبقى صرفاً من أي اختلاط ومن أي كوسموبوليتية، وخاصّةً حيال الشرق السّامي.

«ما نسعى وراءه في اليونان هو ما يعطيها سبق المكانة على العالم القديم والجديد، وما يميّزها عن الباقي كلّه، ما يجعلها تكون

هي ذاتها، وليس البربرية.»

ويضيف:

«أخمدت اليونان شعلتها وقد أنهكتها الحروب، عندما نقلت آسيا الإسكندر لفاتحيها لا أنماطَ فنّ جديد، بل حالة من القلق، من الحمّى والرخاوة التي تغذّيها أديان الشرق. فأدونيس وميترا كانا السبّاقين إلى تفكيك العالم القديم. ولا يظنّن أحد أنّ الفنانين اليونانيين قد أضفوا الطابع الإغريقي على هذه المفاهيم العدوة ؛ إنّهم لم يفلحوا في مثل هذا المسعى قط. والمؤكّد أنهم اكتسبوا الطابع البربريّ منها.»[١٢٠]

ذلك أنّ مورّا يرى أنّ:

«الكلاسيكي، الأثيني هو أكثر شمولية كلّما كان أكثر أثينية، أثينية عصرٍ وذائقةٍ أكثر تجرّداً من كلّ تأثير أجنبي.»[١٢١]

يتعيّن على أثينا وروما أن يحصّنا نفسيهما من التأثير المهلك «للجذام السامي»[١٢٢]. إنّه الهاجس الفعلي لمورّا، الذي يرسم حداً فاصلاً يقسم المتوسّط بين عالم متحضّر، يوناني روماني، وبين العالم البربريّ، السامي، حيث يقطن اليهود والعرب ومشرقيون آخرون.

وينبغي استبعاد أي صلة، أي تفاعلٍ مع هذا العالم البربريّ الوافد من آسيا :

«تدور نقاشات عديدة حول الخدمات التي أسدتها روما للعالم. إني أعارض من ينكرون ذلك، لكنّي ألوم من يمتدح صنيعها هذا. لقد نشرت روما الهلّينية، ومع الهلّينية السامية وما رافقها من جوقة المشعوذين والأنبياء والعرّافين، والمضطربين ومثيري الفتن البلا أوطان. كم كانوا قصيري النظر أولئك المقرضين والولاة ! فهم لم يخطئوا فقط في التمييز بين الهلّيني الصرف والهلّيني الهجين، بل نشروا وباءهم هذا حتّى آسيا.»

وعندما يتحدّث مورّا عن مرسيليا، تلك المدينة الوسيطة بين

بروفانس البرّ وبرفانس البحر، يكتب ما يلي :

«علينا الامتناع عن إطلاق أحكامنا على مرسيليا القديمة انطلاقاً من أحكامنا على ناحية من المدينة، هي الجديدة، حيث ملتقى المشرقيين والزنوج واليهود.»[١٢٣]

هذه الرؤية الأحادية الجانب لبروفانس في المتوسّط، نجدها أيضاً في أعمال لوي برتران الذي، إلى اهتمامه بإفريقيا اللاتينية، قد كتبَ عن بروفانس وأقامَ فيها لفترة طويلة حيث التقى صديق الشاعر الإيكسي (نسبةً لإيكس في بروفانس)، المقرّب من الشعراء العاميين، جواشيم غاسكيه (Joachim Gasquet) . «إنّ وطني الحقيقي، هو الضفّة المزدوجة للبحر اللاتيني»، هذه الصيغة التي أطلقها لوي برتران تلخّص رؤيته للرابطة التي يدعو إليها بين بروفانس والمتوسّط. إنّها رابطة تواصل بين الجزءين من كلٍّ لاتينيّ واحد. فخارج الحضارة اللاتينية لا يوجد شيء يُذكَر إلاّ خطر الغزو الذي يتردّد ذكره مراراً في مؤلفاته. لا بل جعله عنواناً لإحدى رواياته الأولى[١٢٤]، التي ندّدت، في العام ١٩٠٧ بالغزو الإيطالي في مرسيليا. إذاً نحن هنا أبعد ما يكون عن التضامن بين اللاتينيين كما كان سائداً في الجزائر الاستعمارية، غير أنّ ذلك لم يكن مقصد لوي برتران ولا قبلة اهتمامه. لقد أعيد طبع رواية «الغزو» عام ١٩٢١ ، مع مقدّمة بليغة التعبير عن رؤيته للعالم :

«بعض القراء طالبني أكثر من مرّة بتغيير عنوان هذا الكتاب الذي قد يثير، اليوم، بعضَ اللبس، خصوصاً إثر هذا الغزو الجرماني الجديد. وبعد تفكير وجدت أنني ينبغي أن أحافظ على العنوان الأصلي. إنّ الموضوع الذي عالجته في هذا الكتاب، هو ما عرفَ منذ الأزل بالغزو، أي الهجوم الذي شُنَّ على «حاضرة» كلّ الأزمان من قبل فاتحٍ أحدث سنّاً وأعظم بأساً، وبصفة عامّة، من قبل قوى الاضطراب والفتنة والانحلالِ الواقفة دائماً على أهبة. والمأساة المتضمَّنة في هذا الموضوع هي أنّ هذه القوى نفسها، المتخاصمة مع قوى التضحية والمحافظة السرمدية، سوف تنتصر، آخر الأمر، أو، في الأقلّ، سوف تجعل الحياة ممكنةً،

والأرض قابلة للسكن.

> وفي وقتٍ مثل هذا، حيث الحضارة الغربية مهدّدة بالجنون الأعمى لأفظاظ دمويين، الذين نشعر بأنّ وراءهم تقف كلّ البربريات الآسيوية وإلى جانبها دعاوى اليهودي المترحّلة المسيحانية (messianique) والثورية، تبدو موضوعة كهذه شديدة الراهنية.» (١٢٥)

وبالفعل، كما سيكتب، بعد ذلك بسنوات، في كتابه «حيال الإسلام»:

> «إنّه كابوس لا يفارقني. حتّى في فرنسا، أجدني مهجوساً به مجدداً...» (١٢٦)

ورؤيته لبروفانس بالنسبة للمتوسّط هي وليدة هذه الخشية، وليدة هذا الهاجس :

> «لم تكن الحضارة ولن تكون يوماً سوى جزيرة صغيرة ضالّة وسط أوقيانس من البربرية.»

كتبَ في مفتتح كتابه. فالمطلوب إذاً هو الصمود على غرار إسبانيا الغالية، تلك الشقيقة اللاتينية :

> «إنّه المتحضّر العريق، ذلك اللاتيني المفتون بالحرية، الذي يعتزم امتلاك الحقّ في البقاء هو نفسه، والاستمرار في كيانه وفي تقاليده عنوةً وضدّ الجميع، وأبداً لن تنال منه عبودية. ضدّ غزو أشكال الطاعون الشرقي، تبقى إسبانيا الذخر الأسمى للغرب. وكلّ شيء سوف يتحطّم عند قدمي الركيزة الثابتة التي ينبغي أن تبقى في مكانها حتّى نهاية العالم...» (١٢٧)

هذا التوتّر بين بروفانس والمتوسّط ينعقد حول خطّ تماس يفصل إحدى ضفتي المتوسّط عن الأخرى، بين عالم يوناني لاتيني وعالم سامي. هناك هوّةُ معنى تجعل الميراثين متضادين، انطلاقاً من بناء إيديولوجي وثقافي مركزيّ في فرنسا ما بين الحربين. غير أنّ هذه العلاقة بين بروفانس والمتوسّط ليست هي الوحيدة التي

ستسود. هناك موازين قوى رمزية سوف تخوض السجال في بروفانس، بشأن المتوسّط. وستكون مجلّة « Cahiers du Sud » الأداة المفضّلة لهذا السجال، لهذه المعركة الإيديولوجية الثقافية.

كانت المجلّة ثمرة لقاء، جرى في مدرسة «تيير» الثانوية، بين مرسيل بانيول (Marcel Pagnol) وجان بالار (Jean Ballard)، وصدرت في البداية باسم « Fortunio »، قبل أن تصبح « Cahiers du Sud » بدءاً بالعام ١٩٢٥. وقد تميّزت عندها عن « Feu »، المجلّة الأدبية التي كان يشرف على تحريرها أميل سيكار (Emile Sicard) ثمّ جوزف داربو (Joseph d'Arbaud)

> الذي اختار الانكفاء، تدريجاً، باتجاه منطقته، نحو مناطق بروفانس الداخلية، بدلَ التعاطي مع حركات الترانزيت المستمرّة التي منحت مرفأ مرسيليا قوّته.

لاحظَ، بحقّ، ألان بير (Alain Paire) الذي يوضح أنّه بدءاً بمنتصف العشرينات، كانت صفحة الغلاف الثانية

> «توضح أنّ Feu «وهي نشرة لتيّار الإقليمية المتوسّطية» ليست سوى «منبر للمطالب التاريخية واللغوية والإقتصادية لمقاطعات (بروفانس) جنوب فرنسا» كما أنها «أداة الحركة الأدبية والفكرية لبلاد اللانغدوك». وعليه، فإنّ المجلة غالباً ما كانت تتخذ صيغةً ثنائية اللغة، كما كانت تستقبل أغلب النصوص باللغة البروفانسية. »[١٢٨]

أمّا الموقع الثقافي والفكري لمجلّة « Cahiers du Sud » فسوف يكون مختلفاً. فهي لن تنكفىء باتجاه الداخل، بل سيكون الخارج وجهتها، نحو المتوسّط. ولن تنشر فيها، على سبيل المثال، أية نصوص باللغة البروفانسية، كما أنّها ستعامل حركة الشعراء العاميين، بقدرٍ كبير من التحفّظ.

> «وكنّا نشعر بأننا متوسطيون أكثر منّا برفانسيين. كما لم يكن دافعنا لا الرغبة في تغيير العالم ولا الرغبة في طرد القديم الذي

كان يجرفنا خارج إطار إنسانيّتنا، بل كان دافعنا الرغبة الملحة في استكشاف ميادينا واكتشاف آفاقٍ أخرى،»

كتب جان بالار في العدد الخمسين، حيث يعرض لتوجّهات المجلّة قائلاً :

«... ذلك أنّ مصيرنا تطابق مع مصير مدينتنا، مسقط رأسنا، المنفتحة على كلّ تيارات الفكر، ورسالتنا الوحيدة قد ترسّخت، بوصفها رسالة الإنسان المتوسطي، العالمي.»[١٢٩]

سوف تكون هذه النزعة المتوسّطية إلهامَ المجلّة الدائم، وسوف يحرص العاملون فيها على أن يبقى كذلك، من غابرييل أوديزيو إلى لوي بروكييه، إلى شارل سالوفرانك وآخرين، ومعهم بالطبع جان بالار، مديرها. وسوف ينشأ عنها، ومن خلال أعدادها الخاصّة تحديداً، تفكير متميّز حول المتوسّط انطلاقاً من مرسيليا.

كما أنّ اللافت في هذه المجلّة هو صلتها بالإسلام. فعلى الضدّ من مواقف موراّ ولوي برتران، كان جان بالار يأمل في تكريس عدد خاص بالإسلام والغرب. وبعث، لهذا الغرض، برسالةٍ إلى المستشرق أميل درمنغهام (Emile Derminghem) في نيسان / أبريل ١٩٣٢ ، كتبَ فيها :

«منذ بضع سنوات، حلمتُ أنا وبيزيت (Baisette) وبويش (Puech) وليريس (Leiris) وبعض الآخرين بأن نجمع مساهماتٍ كان من شأنها أن تدعم مفهوماً أكثر اتساعاً بما لا يقاس، للثقافة المتوسّطية، كما كان من شأنها أن تظهر في صلبِ الحضارات القديمة التي استخرج خطباء فصحاء، أمثال موراّ، من قوانينها وصيغها القاصرة على أصحابها، كالعبقرية اللاتينية، ذهنيةً ديونيسية وبيثيارية الجوهر نجدها في الآداب كافةً وفي كتب الشعوب المقدّسة كافةً (...). كلّ هذا قد عجّت به ضفاف هذا الحوض، وتخمّر وصار نمط عيش. لذا أوليسَ من العبث أن يجمع هذا القدر من التباينات، وهذا القدر من التناقضات تحت الراية المزعومة «للمعجزة اليونانية» أو تحت راية «اللاتينية» ؟»[١٣٠]

«مفهوم أكثر اتساعاً بما لا يقاس للثقافة المتوسّطية»، هذه العبارة التي استخدمها جان بالار تشير إلى فحوى سعيه والدور الذي ستؤديه الـ «Cahiers du Sud» في تعيين مقاربةٍ جديدة للمتوسّط.

في رسالة أخرى وجّهها إلى درمنغهام في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٣ ، كتب بالار ما يلي :

> «هل لنا أن نحلم (بتعريف) نيوكلاسيكي للمتوسّط، يكون ذا صيغةٍ أرحب، حيث يتدخّل الإسلام، كما في القرون الوسطى، لتلطيف وصقل الذكاء اليوناني اللاتيني، وللمساعدة على إيجاد «توافق» جديد يكون بحرنا هو مطرحه وحامله السحريّ.»(١٣١)

يصوغ جان بالار هذه «الصيغة الأرحب» التي يسعى إليها بشأن المتوسّط، متخطياً الحدود التي كانت سائدةً آنذاك بين مختلف الثقافات. ولنذكر هنا أننا في الثلاثينات، أي في أوج المرحلة الاستعمارية. ولنتذكّر ما كان يكتبه لوي برتران في تلك الأثناء :

> «ولكن لو كان مديح الأهلين (السكان الأصليين) هذا صحيحاً لما تبقّى لنا سوى أن نرحل» !

ويردف قائلاً بشأن الإسلام المهزوم :

> «يحتّم عليه، في ظلّ الحالة الحضارية الراهنة، أن يكون على قدرٍ مستحقٍّ من الدونية، وبلا رجاء.»

جان بالار يتبنّى نقيض هذه الرؤية للإسلام. فهو لا يخشى على بروفانس من «غزو أشكال الطاعون الشرقي» أو «العدوى بواسطة السامية»، بل على العكس من ذلك. فهو يطمح لأنّ يحلّ «توافق» متوسطي، وسوف تكون مجلّته هي أداة دعواه. هنا أيضاً تدور المسألة حول اختيار ميراث، وحول نسابةٍ ثقافية وتاريخية يجب أن ينتمي المرء إلى سياقها. في رسالة موجّهة إلى فرنسوا

بونجون (François Bonjon) يفسّر بالار بأنّ «مسعاه يكمن في تتبع نهرٍ من منبعه حتّى البحر، وهذا البحر هو المتوسّط...»

إنّ أحد المنابع العميقة التي تربط بين بروفانس والمتوسّط، بوساطة عالم أوك (d'Oc) والشعراء الرحّالة المنشدين (troubadours)، يتمثّل بالحضارة الأندلسية. وسوف تتغنّى المجلّة بهذا الرابط من خلال كتابات شارل سالوفرانك وبول زومتور وجوي بوسكيه ورينه نيلّي، ومعهم أميل درمنغهام ومحمد الفاسي الذي كتب نصّاً حول «الشعر العربي الأندلسي وأثره» في العدد الخاص بـ «عبقرية أوك وإنسان المتوسّط».

في التمهيد لهذا العدد الخاص، يلاحظ بالار :

«نجد لدى الناس في جوارِ جوي بوسكيه (Joe Bousquet) ذلك الترحاب العميق بالإنسان الذي هو ميراث مجتمعٍ متسامح، وميراث نزعةٍ توافقية تلتقي فيها التيّارات الروحية للعالم القديم. كما لفتني لديهم تنوّع في الأصداء تغلب عليه النبرة الشرقية، ليس شرق البدو المتعصّب، بل شرق إسلامٍ ملطّف، مصقولٍ بالثقافة، كما كان سائداً في بلاطات الأمويين في قرطبة أو مساجلات بغداد الشعرية كما وردت في «مروج الذهب». لفتني ميلٌ مشابه لديهم لرواية القصص، والترف الفكري، وحتّى المشاجرات الودّية التي تحجب قرارة الذات بزخرف الروح.»[١٣٢]

ردّاً على الميراث المنقسم للبروفانسيين الذين تتلخّص الحضارة في نظرهم بالمعجزة اليونانية والعبقرية اللاتينية، تقترح مجلّة «دفاتر الجنوب» (Cahiers du Sud) تأسيس ميراث مشترك باسم «الإنسان المتوسّطي». وسوف تشكّل النزعة الإنسانية المتوسّطية ركيزة القيم التي انطلاقاً منها ستبني المجلّة برنامجها الفكري. والواقع أنّ جان بالار يذكّر في هذا السياق

«بتلك الحكمة التي غالباً ما يحجبها النسيان والقائلة بأنّ الحضارة التي هي صنيع الإنسان قد وجِدت أولاً لكي تخدمه لا لكي تسحقه.»[١٣٣]

بانفتاحها على كلّ جديد، وخاصة في مجال الآداب والشعر، ويتبنّيها الصادق لمغامرات الحداثة، حظيت المجلة، منذ الثلاثينات، بتأثير كبير على الصعيدين الوطني والعالمي. غير أنها لم تكفّ عن كونها مجلّة للجنوب، تود أن تفكّر العالم والثقافة انطلاقاً من الجنوب. والمؤكّد أن موقعها، في مرسيليا، قد وفر لها وسائل الحظوة تلك : ممثلةً بالشركات البحرية الكبرى.

«كانت الحاجّة ماسّة في البداية لشركات قوية. وفي مرسيليا لم يكن ممكناً إلاّ أن تكون شركات تجهيز السفن.»(١٣٤)

وبفضل خطوط النقل البحرية، تمكّنت المجلّة من تأسيس حضور لها في أميركا الشمالية ومن الانتشار في أنحاء العالم كافّة،

«باعتبار أنّ المجلّة كانت متوفّرة في مقاصف وصالونات السفن، كما في ردهات عدد لا بأس به من الفنادق المتعاقدة مع الشركات.»(١٣٥)

لقد أدّت هذه القدرة على الانتشار، مضافةً إلى القيمة الأدبية للمجلّة، إلى إحلال «دفاتر الجنوب» في صلب النقاش حول المتوسّط، في فرنسا، وخاصّةً في بروفانس.

هناك مبادرات متوسطية أخرى سوف ترى النور أيضاً في تلك المنطقة. من بينها «المركز الجامعي المتوسّطي» الذي أنشىء في نيس في شباط / فبراير ١٩٣٣ ، بموجب مرسوم أصدره م. دو مونزي (M. de Monzie)، وزير التربية الوطنية آنذاك، ووضع تحت إشراف بول فاليري (Paul Valéry) وموريس مينيون (Maurice Mignon)، الأستاذ في جامعة إيكس مارساي، الذي عيّن مديراً للمركز.

لا بدّ أنّ مرسوم إنشاء هذا المركز كان عرضةً لبعض التجاذبات، فقد نشرت مجلّة «Illustration» في العام ١٩٣٤ مقالة لريمون بوانكاريه (Raymond Poincaré) يقترح فيه ما يلي :

«أليس من الأضمن أن تتولّى باريس إدارة المركز وأن يجاز، لهذا الغرض، إنشاء معهد للدراسات المتوسّطية يكون مقرّه في نيس ؟ هذا مضمون المشروع الذي تقدّمت به للسيد فاليري وللسيد شارليتي، ولعدد من الأساتذة، وقد لاقى تأييداً من قبل الجميع ؛»

ويضيف بوانكاريه قائلاً :

« إنّ إظهار الروابط التي تجمع أمم المتوسّط وأقوامه، والجوانب المستديمة لحضارتهم، وقوّة تقاليدهم، وأوجه القرابة في تربيتهم، يتطلّب جهداً علمياً واسعاً وعميقاً ستستكمله البلدان المعنية بموجب اتفاق مشترك يعقد برعاية جامعة ذات نفوذ وغير متحيّزة. لن ننسى طبعاً لا تأثير اليونان ولا تأثير روما، وسوف ننقّب أيضاً عن تأثير مصر، وسوريا وإفريقيا الشمالية. (...) لننشىء إذاً مركزاً متوسطياً قابلاً للاستمرار، ولنمنحه القدرة والازدهار، ولكن دعونا لا نقفُ لا عند الحضارة اليونانية، ولا حتّى اللاتينية، فلندرس القرون التالية من الزمن، لندرس غزوات العرب، والمقاومة التي تصدّت لهجماتهم (التشديد للمؤلّف). العمل معقّد وواسع الميادين؛ لذلك ينبغي أن تتولّى الإشراف عليه إحدى أفضل جامعاتنا.»[١٣٦]

هنا أيضاً يبدو أن المواجهة بشأن المتوسّط تدور حول المواريث والأنساب الثقافية.

بول فاليري، في محاضرته الافتتاحية، بوصفه أوّل مشرف على المركز، يحدّد التوجّهات الأساسية كما يلي :

«إنّ المعنى البالغ الغنى للمتوسّط يجب أن يكون إذاً المعنى المولّد لبرامجنا، وموضوعنا الأساسي. (...) نرجو، في سبيل رفعةِ نيس والأمّة، أن يبرز مركزنا ويفرض نفسه، ذات يوم، بوصفه المكان الذي صيغت فيه معرفة المتوسّط، والنقطة التي يتشكّل فيها وعي أكثر فأكثر وضوحاً واكتمالاً بوظائف هذا البحر المحظوظ في مجال نموّ المُثُلِ والموارد البشرية. فالنظام، قد نشأ، بأية حال، عند ضفافه. والأحرى بزماننا المفرط في كلّ شيء ألاّ يغفل عن ذلك.»[١٣٧]

ويوضح فاليري بشأن «البرنامج العام للدراسات المتوسّطية»:

«لا يبدو أن عبارة «متوسّط» كانت كافية : فعبارة انضمام لا تصلح خطّةً للعمل.

لهذه الغاية، ارتأينا أن نختار كفكرةٍ محورية معنى الدور الذي أدّاه بحرنا أو الوظيفة التي اضطلع بها، بسببٍ من مزاياه المادية الفريدة، في نشأة الذهنية الأوروبية أو في نشأة أوروبا التاريخية لكونها غيّرت العالم الإنساني بأسره. (...)

بفضل سهولة التنقّل والحركة التي أشرنا إليها، تقيم هذه الشعوب صلاتٍ من كلّ نوع : حرب، تجارة، تبادل للأشياء طوعيّ أو غير طوعيّ، معارف، أساليب؛ اختلاط دماء وألفاظ وأساطير وتقاليد. ذلك أنّ تعدّد العناصر الأتنية المؤتلفة أو المختلفة، عبر العصور، كما تعدّد العادات واللغات والمعتقدات والشرائع والمؤسسات السياسية، لطالما ولّدَ حيويةً لا تضاهى في العالم المتوسطي. وفي وقتٍ مبكرٍ جداً بلغت المنافسة (وهي إحدى السمات الأبرز للعصر الحديث) حدّاً فريداً من نوعه في المتوسّط : منافسات التجارة والنفوذ والأديان. لم تشهد منطقة أخرى من العالم مقاربةً عن كثبٍ لمثلِ هذا التنوّع في الظروف وفي العناصر، لمثل هذا الغنى الذي أنتجَ وأعيد إنتاجه مراراً. والحال أنّ عوامل الحضارة الأوروبية هي نتاج هذه الظروف، بمعنى أنّ ظروفاً محلية كانت لها مفاعيل (معروفة) ذات منفعة وقيمة عالميتين.

نذكر على الأخصّ، بناء الشخصية الإنسانية، وتوليد مثال للنموّ الأمثل، أو الأكثر فرادة، للإنسان، اللذين كانت بدايتهما، أو كان إنجازهما، على شواطئنا. وكذلك الأمر مبادىء : الإنسان هو مقياس الأمور؛ والإنسان ككيان حقوقي يحدّده القانون؛ والإنسان المساوي للإنسان أمام الله واعتباره «ما يقع عليه بصر الخالق»، هذه كلّها تقريباً ابتكارات متوسّطية لا حاجة بنا للتذكير بأثرها الحاسم على تطور الإنسانية. (...) لم يحدث من قبل في أي مكان آخر، ضمن مساحة ضيّقة نسبياً وخلال حقبة زمنية قصيرة، أن توقّدت الأذهان بهذا القدر، وأن تحقّقت مثل هذه الثروات. لهذا السبب، وانطلاقاً مما سبق، فرضت علينا نفسها فكرةُ

اعتبارِ دراسةِ المتوسّط كدراسةِ جهازية، وكدت أقول : آلة لصنعِ الحضارة. (التشديد للمؤلّف)

ذلك هو رهان برنامجنا.»[١٣٨]

هذه «الجهازية»، أو الأحرى، هذه «الآلة لصنع الحضارات»، التي يشير إليها فاليري، تندرج في سياق الرؤية التي حدّدها، فيما مضى، أليزيه ريكلو. يغدو المتوسّط ذاتاً منتجةً للمعنى، فمن المشروع إذاً أن تتمّ مقاربته بوصفه كذلك، وأن يخصّص له مركز لدراسة متخصّصة به.

إلى ذلك، يختم بول فاليري تحليله للمتوسّط بإضافته معنى جيوثقافي، من شأنه أن يسهم في رسمِ هيئةٍ للعالم. فهو، في الواقع، يتحدّث

«عن توازن متوسطي... يكون قائماً أحياناً، ويكون مختلاً في أحيان أخرى، وهو معنى يتخطّى ميدان التاريخ السياسي، لأنّه قائم في ميادين أخرى : توازنات، على هذا القدر أو ذاك من الثبات، في المعتقدات، واللغات، والتأثيرات الأخلاقية أو الجمالية، لا بل في العملات وفي القيم التبادلية، إلخ... إنّ انزياح هذه التوازنات أو انقطاعها، أي الأحداث، لا يمكن إدراكها جيّداً إلاّ إذا أخذت التوازنات بالاعتبار منذ البداية.

نحن لا نشير إلى هذا المعنى إلاّ باعتبار ما توفّره من سهولةٍ لبناءٍ منهجيٍ لفكرة نظام المتوسّط. ما يتعايش في المتوسّط في حقبةٍ زمنية ما ؛ ما يدخل إليه، وما يصدر عنه. فهذه أسئلة جوهرية في صيغٍ بسيطة جداً من شأنها أن تتيح لنا، في كلّ مجال، استعادة أو تدعيم مبدأ برنامجنا.»

بعد ريكلو، و «آلة صنع الحضارات»، يستعيد فاليري روحية السان سمونيين عندما يشير إلى نظامٍ متوسّطي، وهو المصطلح الذي استخدمه، قبل ذلك بقرنٍ من الزمن، ميشال شوفالييه في سلسلة مقالاته لصحيفة Le Globe .

بعيداً من أي انطواءٍ بروفانسي أو أي نزعة بروفانسية، يطوّر فاليري رؤيةً جامعة للمتوسّط. ذلك أن النزعة الإنسانية المتوسّطية التي دعا إليها جان بالار وغابرييل أوديزيو في «دفاتر الجنوب»، والتي كان فاليري أحد كتّابها البارزين، هي نزعة شمولية جامعة. ولا تتطابق مع النزعة اللاتينية.

> «ولكن حدث أنّ بعض القيم المتوسطية قد أساءَ لقيمٍ أخرى : مثلاً مجد اليونان العظيم، ومجد روما العظيم قد أنسيا أو أهملا منابع أخرى للحضارة. إنّ استكشافاً منهجياً من شأنه، بالتأكيد، أن يظهر أنّ المتوسّط يشتمل على قدر أكبر من الأمور التي ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار، لكنّ عاداتنا تحجبها عن تفكيرنا.»[١٣٩]

إنّها، بالفعل، «صيغة أرحب» للمتوسّط تلك التي يسعى وراءها بول فاليري. والتوجّه الذي وضعَ على أساسه برامج الدراسات للمركز الجامعي المتوسّطي، منفتحٌ، على نحو واضح، على التأثيرات غير الأوروبية.

أمّا مشروع الأكاديمية المتوسّطية، التي أنشئت، عام ١٩٢٦ ، في نيس، على يدِ جورج آفريل، وجان ديستيو وهنري جيرو، والتي سينضمّ إليها أيضاً لوي برتران، فيبدو على قدرٍ من الالتباس والغموض. فبدعوة من حكومة موناكو، التي كان يرأسها آنذاك السيّد بويو–لافون (Bouilloux-Lafont)، سوف تجعل الإمارة مقرّاً للأكاديمية منذ العام ١٩٣٥ ، حيث ستنظّم حتى العام ١٩٣٨ ، سلسلةً من المؤتمرات. وسوف يكون مؤتمر العام ١٩٣٥، الذي سيضمّ كوكبةً من الأدباء والعلماء والدبلوماسيين، مناسبة لإطلاق سلسلة من المطبوعات البالغة الدلالة. وقد وزعت قسيمة تتضمّن عدداً من الأسئلة تحضيراً للمؤتمر الأول ذاك، حيث ذكرت ثلاثة أنماط من الحضارات : «حضارة يونانية لاتينية، وحضارة مسيحية، وحضارة يهودية وإسلامية» وقد طلب من المشتركين أن يجيبوا عن السؤال التالي :

> «ألا يمكن السعي لوضع جدولٍ بمختلفِ القيم الروحية

المشتركة بين أنماط الحضارات تلك ؟ ألا يمكن لهذه القيم أن تكون جامعةً فتشكّل بذلك العناصر الجوهرية لا في الحضارات المتوسطية، بل في الحضارة المتوسّطية (التشديد لنا).»

إنّ غاية الأكاديمية المعلنة هي غاية توحيدية حول معنىً يفترض بأنه مشترك، ألا وهو النزعة الإنسانية المتوسّطية :

«ألا ترون أنّ المرجو هو قدرتنا على أن نستخلص من هذه الأبحاث المعطيات المثالية لنزعةٍ إنسانية متوسّطية من شأنها أن تسهم في إيجاد حلّ للأزمة العالمية.»[١٤٠]

صحيح أن المؤتمر عُقِدَ في أوج الأزمة بين إيطاليا الفاشية وحبشة النجاشي التي جرى اجتياحها عسكرياً. لكنّ المؤتمر لم يأتِ على ذكر هذه الأزمة نزولاً عند رغبة رئيس الأكاديمية المتوسطية، م. لاباند (Labande)، الذي يأمل

«في أن تحافظ النقاشات المجرّدة من أي إشارة إلى أحداث راهنة على الرصانة المطلوبة، مجتنبين إطلاق أي حكمٍ على الحكومات أو أنظمة حكم أو سياسات الأمم سواء كانت ممثلةً في القاعة أم لا.»

كما أنّه يصرّح في عرضه الافتتاحي :

«بأنّ مشاركة فرنسا في مؤتمرنا هي الراجحة تماماً، وهو الأمر الذي تسرّني الإشارة إليه.»[١٤١]

ولقد كانت عديدة تصوّرات المتوسّط التي جرى نقاشها في ذلك المؤتمر. لاسيّما أنّ المقرّر العام لمؤتمر ١٩٣٥، جان ديستيو، كتبَ ما يلي :

«إنّ النزعة الإنسانية كما تصوّرناها قد أسهمت في تضييق حقل المعارف الخاصّة بمصادر الحضارة وذلك لأنّها بالغت في إهمال الإسهامات السامية، المسيحية والإسلامية لصالح الميراث اليوناني اللاتيني وحده.

وهكذا توصلنا إلى فهمٍ لاجغرافي ولامتكافىء لمتوسِّطٍ جُعِلَ على قياس بحيرةٍ لاتينية.»[١٤٢]

ولكن بدءاً بالصفحة الثانية، يوضح رئيس الجلسة، ورئيس الأكاديمية الفخري، لوي برتران، ما يلي :

«(...) إني لا أرى سوى عوائق، إن لم تكن عداوات، بين الشعوب المتوسّطية.»

ويضيف قائلاً :

«قال باريس (Barrès) ذات يوم، ويفخرِ ليس في غير موضعه : «لقد صنعتُ اللورين (Lorraine) كما صنع آخرون الجمهورية .» وأنا بدوري أستطيع القول بأني صنعتُ إفريقيا اللاتينية، كما صنع آخرون اللورين والجمهورية. ولهذا السبب أثق فيمن يريدون صنعَ المتوسّط، ويريدون أن يستخلصوا، كما يقولون أو كما يقول جان ديستيو، مبادىء «نزعةٍ إنسانية متوسطية».»[١٤٣]

ولكن عن أي «نزعةٍ إنسانية متوسطية» نتكلّم ؟ فهذا التعبير يشتمل على رؤى مختلفة باختلاف المؤلفين.

بالنسبة لجان ديستيو :

«النزعة الإنسانية كما أراها، وكما يعرّفها مؤتمر الأكاديمية المتوسطية، في موناكو، في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٥ ، تشمل في وقتٍ معاً اليونان والإسلام، قرطاج واليهودية، كما تشمل طبعاً الواقع اللاتيني. فالمتوسّط ليس لاتينياً حصراً تماماً كما هو ليس سامياً حصراً. ليس مسيحياً أكثر منه وثنياً. وليس يهودياً أكثر منه مسلماً. والنزعة الإنسانية لا توفّق بين هذه المظاهر إلاّ لأنه، إلاّ لأننا ينبغي أن نرى فيه، خلافاً لكلّ المذاهب التي تفرّق بين البشر والشعوب، مذهباً يمرّسهم بالقيم الروحية والإنسانية والتمدينية بنسبيّتها، بالقيم القادرة على إنجاز أنسنة البشر الذين غالباً ما يفسدهم المال، وتهزمهم المادّة كما يهزمهم الوحش الذي فيهم؛ فلنحرص هنا، على اجتناب أي تنازلٍ حيال العنصرية عبر تضييق مساحة نقاشنا وحصره في حدود اللاتينية.»[١٤٤]

على الرغم من هذا النداء الذي أطلقه أمينها العام، تبدو النزعة الغالبة للأكاديمية المتوسطية في موناكو، هي اختزال «الروحية المتوسّطية» بالحضارة اليونانية اللاتينية. فهذا التصوّر للمتوسّط كان غالباً، آنذاك، أو في الأقلّ كان غالباً على أجواء المؤتمر حيث يدلي لوي برتران بدلوه كرئيس فخري للأكاديمية، في حين يبدي جان بالار و غابرييل أوديزيو موقفاً متحفظاً حيالَ مبادرة كهذه.

إنّ رؤى المتوسّط التي عبّر عنها كتّاب تستكمل هذه النقاشات من دون أن تكون مرهونةً لها.

متوسّط الكتّاب

الواقع أن المتوسّط ليس فقط موضوع خلافات ومناقشات ومواجهات فكرية وموازين قوى رمزية حول مواريث. فما كان، في سالف الأزمان، مجرّد بحر وسط يابسة، ومجرّد إقليم غير معتلم الحدود، قد تحوّل تدريجاً إلى مصدر إلهام: تحوّل إلى مكان بالمعنى الذي حدّده مارك أوجي (Marc Augé)، لتمييزه عمّا هو مجرّد «فضاء» (espace). «المكان حامل هوية، وهو علائقي وتاريخي». كونه ينتج هوية يعني أنه ينتج انتماءً، ويكسب شكلاً للعلاقات بين البشر. من خلال نصوصهم يمنح الكتّاب شكلاً للمكان. إنّهم يصوغون متخيّلاً، ويبدعون مشاعر، ويستثيرون ترقّباً. فكما لاحظ غاستون باشلار (Gaston Bachelard)، بوصفه رائداً لـ «شعرية المكان» :

> «المخيّلة هي أكثر الملكات طبيعية. (...) كلّ مشروع هو نسيج من الصور والأفكار ويفترض تأثيراً على الواقع.»[١٤٥]

لا أحد يستطيع تحديد التأثير الفعلي للمتخيّل الذي ينتجه الكتّاب على الواقع، وعلى النحو الذي يتيحون من خلاله رؤية المكان. يبقى أنّ الأثر محسوس، وأن المكان يتأسّس عبر المتخيّل، ويغدو مقروءاً ومرئياً أحياناً من خلال النصوص، وانطلاقاً من كلمات هي منابع للتصوّرات.

فماذا عن المتوسّط على هذا الصعيد ؟

هناك كمٌّ من النصوص والروايات والقصائد التي لا يتّسع المجال هنا لتعدادها. لذلك سنتوقّف عند بعض الشذرات، عند بعض الكواكب التي نحسب أنها تضيء، على أفضل وجه، المشهد الأدبي الفرنسي حول المتوسّط، في النصف الأول من القرن العشرين.

بعض الكتّاب يستعيد موجة أدب الرحلات، كما سنرى لدى كلود فارّير (Claude Farrère) وبول موران (Paul Morand).

في نصّ يعود إلى العشرينات، ونشر عام ١٩٢٦ ، يلاحظ كلود فارير، في التنبيه الذي يفتتح كتابه :

«... سيّدة مرموقة من وسطنا الأدبي أصرّت بإلحاح أن أدوّن في المقام الأول ذكرياتي عن المتوسّط.

قلت لها في البداية ممانعاً : أن يجد القراء الفرنسيون بعضاً من المتعة في معرفة ما يجري في الصين أو أميركا أو استراليا، لهو أمرٌ مقبول. ولكنّ المتوسّط يعرفه كلّ واحدٍ منهم حقّ المعرفة كما قد يعرف ساحة الكونكورد. فالحديث عن المتوسّط في القرن العشرين أشبه بالحديث عن الذئب الأبيض. ولكن لا بأس ! لقد علّمتني الأيام، قبل اليوم، أنّه ينبغي الرضوخ، طائعاً أو مرغماً، لطلب امرأة. فليعذرني إذاً من يرى منكم أنني استجبت لما طلب مني، ولأني أقدّم اليوم للجمهور كتاباً لن يجد فيه شيئاً لم يألفه من قبل...»(١٤٦)

إلى ما يتضمّنه هذا التنبيه من حذاقة، هناك في سياقه ما يشير إلى رواج موضوعة «المتوسّط» في آداب تلك الحقبة. فقد تآلفت فرنسا معه حتّى باتت، على نحو ما، تعتبره مجالها. فلا يتردّد فارير في أن يكتب :

«إنّها رحلة معايناتٍ أكثر منها رحلة استكشاف، هذه التي سنقوم بها سوياً. غير أنها لا تخلو من فائدة. ذلك أن المتوسّط الذي

أحملكم إليه كان، ومن المفترض أنه الآن ملكية فرنسية. بلى، إني أشهد على ذلك : نحن، الفرنسيين، أبناء روما الأبكار، لنا كلّ الحقّ في أن نسمّي المتوسط «mare nostrum»! بحرنا...»[١٤٧]

يتبع ذلك وصفٌ لما صار بالفعل سلسلةً من الأفكار الشائعة عن المتوسّط :

«... أحسب أننا لن نجد في مكان آخر أجمل من هذه الشواطىء، وأنقى من هذه السماء، أو بحراً أبهى زرقةً ، ومواقع أثرية أوسع شهرةً من تلك الموزّعة فوق كلّ شناخٍ وفي كلّ خليج. هيّا بنا إذاً : فالطرقات المطروقة ليست فاقدة الفتنة... »

في رحلته الجامعة هذه يبني فارير تصوّراً واضحاً ومنظّماً للمتوسّط :

«بدا لي أنّ المتوسّط قد يقسم إلى أربعة أرباع، وأنه من المنطقي أن يشمل الربع الأوّل ذلك المثلّث الواقع بين إسبانيا إلى الشمال، وإفريقيا إلى الجنوب، وسردينيا وكورسيكا إلى الشرق. في الأطالس يسمّى هذا المثلّث ببحر الباليار. وبدا لي أنّه كان الأحرى أن يسمّى ببحر القراصنة.»[١٤٨]

إنّ القدرة على تسمية الأماكن التي يتمتّع بها الكاتب بحرية كاملة وباقتدار، يمارسها فارير على أكمل وجه في حديثه عن المتوسّط ويتابع تقسيمه مع : البحر الإيطالي، والبحر الهلّيني، ويبقى الإسم الرابع غير واضحٍ حول القسطنطينية والبحر الأسود وقلخيس...

لكنّ البحر المألوف مع كلود فارير، يتحوّل مع بول موران إلى «بحر المفاجآت»[١٤٩]. مع أنّ سرده ليس من النوع غير المرتقب أو المفاجىء، باستثناء تلك النبرة السياسية الدبلوماسية التي تمازجه، حين يقول كرجلٍ ذي خبرة في هذا المجال :

«هذا البحر الذي يغسل تخوم أوطان العقل، يهجم بغتةً على البحّار، ويهبط فجأةً على الدبلوماسي. كلّما نظرت إلى كتلته

وجدتها محفوفة بالمخاطر، ليس فقط، على غرار المحيطات كافّة، بقحطه (من قال إنّ البحر يخصب العلاقات الدولية ؟) بل بما يخبّئه من مفاجآت مرطابية غير سارّة، ومن الأشراك السياسية، الماضية أو المستقبلية.»[١٥٠]

تصوّره للمتوسّط دائري، حتّى أنه يعنون أحد فصول كتابه : «المتوسّط الدائري» ويلاحظ :

«لم يكتفِ عصرنا بأنه افتتح الخطوط الجوية العابرة للقارات والعابرة للمحيطات، بل هو الآن يعيد بناء طريق انمحت منذ القرن الثاني : أقصد النطاق الدائري الأرضي المشمس الذي بات يحيط بالمتوسّط كما تحيط الحلقات بزحل.»[١٥١]

وعلى هذا النحو يتابع موران سرده بشأن المتوسّط :

«قبضة ممدودة أم كفٌ مبسوطة، كل طريق هي مبادرة جانبية نحو الجيران، إنّها ضدّ حدود، خطّ طولٍ جديد. لقد أصبح للمتوسّط جادّته حول حلقة الزيتون. وهذا إنجاز ملكٌ للجميع : إنها جادة فرنسية وإنكليزية وألمانية وإيطالية، مسيحية ومسلمة. مسالمة أو استراتيجية، سياحية أو متشدّدة، لا فرق، إنّها : التماس الحاصل ويعبر التيار ؛ مثل رئة جديدة يغذيّها دمٌ نابض أكثر حرية، وسوف يتيح المتوسّط للعالم بأن يتنفّس بارتياح.

التيّار يعبر، وما يشرّفنا أنه تيار أوروبي.

إنّه لجهل بماضينا ويمعنى كوكبنا أن نغفل عمّا أتاحه المتوسّط لعرقنا : أثينا وبيزنطية ضدّ آسيا، روما ضدّ البرابرة، الكرسي الرسولي ضدّ الكفار، البندقية ضد الأتراك، غرناطة ضدّ العرب، إشبيلية ولشبونه المظفرتان على الشعوب الملونة، وفرنسا أخيراً، حامية قيمنا في المشرق، فرنسا التي طالما أكدت، لا على طول المتوسّط فقط، بل في كلّ مكانٍ آخر، امتياز الأبيض. عبر هذه الأراضي يعبر خطّ الزاوية السلتي الليغوري، الذي يمكن اعتباره، من البروتاني إلى رومانيا، مفتاح قارتنا : وجبال الألب ليست فقط العمود الفقري للمتوسّط بل هي البنية التحتية لأوروبا.»[١٥٢]

هكذا ينشىء موران تحليلاً جيوثقافيا للمتوسّط يُحِلّ فيه فرنسا في موقع المركز بوصفها البلد الذي أمكنه أن يؤكّد «امتياز الأبيض». وبهذا يلتقي رؤى لوي برتران الأحادية والعرقية، والتي لا يتردّد، بأية حال، في ذكرها.

غير أنّ موران ينصرف أيضاً إلى نزهته الأدبية في أرجاء المتوسّط والتي لن تنجو، بدورها، مما كان قد أصبح آنذاك رؤية كلاسيكية وباقةً من الأفكار الشائعة (كما كان فارير قد أشار بحقّ) :

«بالنسبة للكتاب والفنانين الذين أتوا للإقامة على شواطئه التي لا تشهد حركة المدّ، بقي المتوسّط بحر سلام واتحاد، مياه / أمّ مشبعة بملحٍ هو رمز الديمومة لا رمز العقم، حمّامٌ عجائبي نخرج منه متعافين، مغسولين من قروحنا المعنوية إثر كلّ سباحة.

إنّه يتيح لنا أولاً أمثولةً كبرى في الانسجام الروحي والمعماري، إذ يستحيل أن تؤلّف على مقربةٍ من أعماقه الزرقاء كتاباً مفكك البناء ؛ ويستحيل تحت أنواره الساطعة وفي هوائه الرخيم، أن تواتيك الأفكار الثقيلة؛ إنّ التحف الأدبية القديمة التي وضعت على ضفافه تحيل مبدع الروايات، لمرّةٍ واحدة هي الأخيرة، إلى احترام الإطار السرمديّ الذي رسموه للأثر الفني.» (١٥٣)

مع ذلك يبدو متوسّط الكتّاب هذا الذي يصفه بول موران، خلواً من أي «مفاجأة حقيقية».

وفي المقابل يبدو مذهلاً تصوّر هذا الإقليم الذي ينشئه في ختام فصله الأخير الذي جعل عنوانه «فيما أنظر إلى الخارطة» :

«للمتوسّط شكل دائرتين متضمّنتين في قطعٍ إهليلجي. شواطئه على هيئة أهلّة. شعوبه كلّها نمت في خطوطٍ متراكزة: الفراعنة بسطوا قطاعهم حتّى سوريا؛ وخارطة العالم اليوناني ليست سوى شتاتٍ من الأهلّة؛ روما توسّعت في حركة لولبية باتجاه أوروبا

وإفريقيا، كما بسط الإسلام هلاله حتّى بواتييه؛ من كورسيكا أطلق نابوليون «ثورته» باتجاه مصر؛ والعربة الإيطالية لها عجلتان هما ليبيا وقطاعها الشمالي. في المتوسّط تنمو الأمم كما ينمو بعض العشب، بدايةً كشدفة، وبعدها كنطاقاتٍ وبعدها كحلقاتٍ ثمّ أخيراً كتاج. إنه التاج الإمبراطوري.

كما أنه الحلقة المفرغة. فسياسة المتوسّط تعجّ بخطوط المماسّ والخطوط القاطعة ! المهمّ اليوم ألاّ يلتقي مدار الكوكب إيطاليا مدارَ الكوكب فرنسا. ففرنسا تسيطر على ممرّات الألب فيما إيطاليا ممسكة بمضائق البحر. وكأنّ العالم ليس فيه ما يكفي من الجبال، لكي ينشىء المزيد منها : خط ماجينو وخط سيغفريد، إنه لبنان الساحلي ولبنان الداخلي بالنسبة للغرب. لذا يجب ألاّ يصبح المتوسّط جبلاً هو أيضاً.

لا تعلّق فرنسا على المتوسّط ما يستحقّه من الأهمية، ولهذا تجد أن إيطاليا توليه الكثير من الأهمية. فرنسا تفكّر في المتوسّط، لكنّ إيطاليا تفكّر متوسطياً. والسبب في ذلك يعود إلى أن فرنسا تلامس المتوسّط، أمّا إيطاليا فسابحة في خضمّه.

فلنقارب قضايا المتوسّط بأعين جديدة وبذكرياتٍ زال عنها الهاجس التاريخي. فلننسَ أن يونان الإسكندر بلغت حدود الإندوس، وروما بلغت قرطاجة، والإمبراطورية الكارولنجية بلغت إيبرا، إلخ... العيون الجديدة هي عيون بشرٍ يحلّقون على متن الطائرات ذلك أن الطائرة أنجبت لنا متوسطاً جديداً. وسماء المتوسّط من الصفاء بحيث لا تبقى الفضلات غامضةً لوقتٍ طويل.» (١٥٤)

كـ «رجلٍ مستعجل» من أوروبا، يلاحظ بول موران، الكاتب الدبلوماسي، والرحّالة المثابر، التغيّرات التي تفرضها التقنية على تصوّرات المتوسّط. «... ذلك أنّ الطائرة أنجبت متوسّطاً جديداً» فكما بدّدتِ السفينة البخارية الخشيةَ من الغرق، كذلك الطائرة، بتقريبها المسافات، مدعوة لتغيير الصلة بالمتوسّط. ولكن كيف ؟ موران لا يقترح إجابة عن هذا السؤال، غير أنّه بالتأكيد أوّل من

بادر إلى صوغ سؤالٍ مماثل.

أندريه سواريس (André Suarès) لا يطرح هذا النوع من الأسئلة. فالمرتزق اللامع يقيم صلةً شعرية بالمتوسّط، انطلاقاً من صلةٍ قديمة ومتجدّدة.

«التوفيق بين القديم والجديد، تلك هي القاعدة، والغاية من كلّ فن، في نظري، منذ أن وجدت.» (١٥٥)

كتبَ سواريس لصديقه النحّات بورديل (Bourdelle). وكرحّالة متحمّس، يمجّد سواريس «المعابد اليونانية، بيوت الآلهة» :

«القرطاجيون، الرومان، المسلمون، البرابرة، كلّ شعوب البحر القديم قد غزت، على التوالي، صقلية وأغريجنتو؛ لقد مروا، جميعاً، من هنا. وأنتِ وحدك ما زلت حيّةً لكي تعيدي للإنسانِ المنهوك حضور الآلهة، أعمدة زهرية ومذهّبة، حمرٌ وصهبٌ، مختزنة حرارة الشمس، راعفة في النور، منتصبة على البلاط البنفسجي أشكالاً من جسدٍ حيث تزدهر دماء الأرض.»

قراءته أشبه بتأمل لوحة لنيكولا دو ستايل (Nicolas de Staël).

كان مفتوناً بإيطاليا، فقام بعددٍ من الرحلات إليها، وكانت ثمرتها «رحلة المرتزق»، كتابه الشهير الذي ضمّنه رؤيته للعالم وفلسفته الشخصية التي هي نقيض النزعة الكلاسيكية والروحية الهندسية :

«خُلِبَ الساحر في مرآة الأفكار. سوف أمضي ضدّ عبادة النسبة في زعمها إحلال الذكاء محلّ الحياة، إن لم تكتفِ بإخضاعِ الغريزة للذكاء. إنّ البهاء الأسمى ليس كامناً في ما نبتكره بالتناسب، لأنّ البهاء ليس هندسياً. إنّه يكمن في النِسَبِ المثالية التي نبيّنها ونضفيها على ما نلحظه من معنى الحياة نفسه. ذلك لأنّ لا شيء من شأنه أن يفوق الحياة في مُنحناها المتغيّر.» (١٥٦)

ما يسعى إليه سواريس، هو ما يسمّيه «اللاتينية الحقّة» :

«إنّ اللاتينية الحقّة هي شكل مثالي للمجتمع الأوروبي : إنها رجاء، وفي أفضل الأحوال، شعور؛ ليست واقعةً على قدر من العمومية لكي تصلح أن تكون قاعدة. هناك أسلوب في التفكير وفي الشعور، وأحياناً في التصرّف، يمكن أن نسميّه «miéterrane»، أي خاصاً بشعوب المتوسّط قاطبةً. أجد العبارة في ما كتبه ميسترال، الذي هو ضمير المتوسّط الأكثر توقّداً ولسان حاله المثير للإعجاب. ما يجعله حقاً عبقري بروفانس وشاعرها. ذلك أن بروفانس، على الرغم مما تدعو إليه الأنظمة والأحزاب، هي يونانية أكثر منها رومانية؛ وهنا وهناك، تجد أنها أويلية (oïl) أيضاً وشرقية وليغورية وسلتية، وفي العمق مسيحية بطبيعة الحال.» (١٥٧)

هذا البحث عن «اللاتينية الحقّة» لا يقرّبه، مع ذلك، من دعاة إفريقيا اللاتينية ومن فكرة العرق. فسواريس، المولود في كنف عائلة جنوية من أصل يهودي، والمقيم منذ صباه الباكر في مرسيليا، يتصدّى بعنف للإيديولوجية العرقية :

«إنّ خرافة العرق هي الأحقر من بين المعتقدات المادية. هذا الوثن ليس سوى فرضية، ولا شكّ في أنها أكثر الفرضيات بطلاناً. غير أنهم يعتبرونها حقيقة ناجزة. فإذا كان للعرق حقيقة ما فهي أنه وظيفة من وظائف التاريخ، ووليد الحياة المشتركة ونتاج الأمة. ومما لا شكّ فيه أنّ اعتباره الرمز الحقيقي للدم وأثره الذي لا يخطىء هو من قبيل ردّ الإنسان إلى حال الحيوان، وجَعْلِ الأمة حظيرةً للمواشي.» (١٥٨)

على الرغم من عشقه لإيطاليا، يبقى بعيداً عن أي ميلٍ فاشي :

«ما يسمّونه، على ضفاف التيبر، هذا المجرى الضيّق والموحل للمياه، «انتماءً رومانياً»، أميل أنا إلى تسميته «العلّة الرومانية»، بتجريد اللفظة من نبرتها التفخيمية. والعلّة الرومانية هي حمّى مُقْلِعة ومن أخطر الأنواع.» (١٥٩)

ويضيف :

« إني أحبّ إيطاليا. (...) أمقت روما والسياسة الإيطالية وكلّ

من يقود هذه السياسة، من رجال دولة أو ممن يزعمون أنهم كذلك، من دبلوماسيين وقادة أجهزة عاملين. جميعهم، لا يكاد يتولّى أحدٌ منهم جانباً من جوانب السلطة حتّى يكرّس نفسه لخدمة الإمبراطورية.» [١٦٠]

سواريس يعارض بحزمٍ إيطاليا الفاشية مع أنّه، في الوقت نفسه، يدافع عن السياسة الإمبريالية «للغرب الكلاسيكي» :

«لم أقل بعد ما يتراءى لي أنه الأصوب، وما لا يدحض : من الأهمية بمكان أن لا تخضع كل الأراضي المحاذية للمتوسّط، والتي تشكّل العالم المتوسطي، إلاّ لأمم الغرب الكلاسيكي، أي اليونان وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا.»

من خلال هذا النمط من التصريحات يكرّس سواريس قسمة المواريث، بين عالمٍ يوناني لاتيني وعالم سامي، وهي القسمة التي يعترض عليها بشدّة في مواضع أخرى. موقف متناقض ربّما كان متأتياً من الفكرة التي يتبنّاها بشأن دور فرنسا في المتوسّط :

«ما مثّلته إيونيا واليونان في العالم القديم، مثّلته فرنسا وما زالت تمثّله في العالم المسيحي : إنّ الجسر بين الشرق والغرب، بين آسيا وأوروبا، كان يونانياً صرفاً في الأزمنة القديمة؛ أمّا الجسر بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب، فهو فرنسا.

ما مثّله الإيونيون في حياة المتوسّط، مثّله الفرنكة، وما زالوا يمثّلونه، بين المتوسّط والأطلسي. وبهذا المعنى تكون بروفانس، وهي مستعمرة يونانية، قد استعمرت روح فرنسا. وإذا كانت فرنسا هي يونان العالم الحديث فهي مدينة بذلك للتأثير البروفانسي.» [١٦١]

غير أنّه يتمكّن من التعالي على صلته هذه بفرنسا وببروفانس وبمرسيليا وبالمتوسّط، عبر تألّق أسلوبه وعبر جمالية خاصّة بالبحر والنور هي التي تحدّد انتماءه الحقّ :

«البحر والريح هما مناخي، والشمس تغذّيني. إنّ البشر الذين ولدوا على هذه الأرض قد ولدوا في النور ولا يستطيعون العيش إلاّ

لأجله...»

كتبَ سواريس لصديقه رومان رولان (Romain Rolland). وفي نصّ آخر يصف فيه مدينته، مرسيليا، كتب ما يلي :

«هناك، أعلم، البحر يهدر عند رصيف الميناء، ويلطم صالِبَ السفن؛ هناك السفن الراسية غداً سوف تنشر قلوعها؛ هناك السفر والمغامرة والشمس وطرقات اليونان وآسيا. هناك الموازين الكتالانية، وعلى أرصفة المرفأ القديم، دفق الليمون، ذهب جزر الإسبيرياد الذي جُعِلَ كريّاتٍ. البحر هو ذروة عشقي، والسماء السائلة حيث نبحر وتطيب الملاحة : ترفع المراسي فإذا بنا على المتن كأننا بعثنا من جديد، في حياةٍ أخرى : المجرى الطويل، وساعات الملاحة الكولونيالية المحسوبة بدقّة اعتماداً على النجوم، وصحراء الفضاء المستدير حيث الإنسان داخل الكرة، وداخل كلّ شيء وداخل ذات نفسه. في البحر عشت أجمل أيامي، وفيه تبقى، البحر الذي عرفته كأني منه ولدتُ.» (١٦٢)

لبول فاليري رؤية أكثر كلاسيكية للمتوسّط. إنّه لا يقطن البحر والريح، بل يقطن «المقبرة البحرية». فهو المولود في «سيت» (Cette) كان لمشاهدات طفولته الأثر الأكبر على أعماله، كما يقول هو :

«هل كنت في الخامسة عشرة أو في السابعة عشرة من عمري، لمّا عثرت، عند شاطىء البحر، على مقربةٍ من ماغيلون، على تلك الصَدَفة أو قطعة العظم التي صقلتها وحتّتها الأمواج، وألهمتني قصيدة «أوباالينوس» ؟ وعلى غرار لعبة رَجْعِ الخواطر، تلك المجهولة التي لا يمكن توقّعها، مثلت مجدداً أمام ناظريّ صورة مقبرة «سيت» الجليلة المتوقّدة، أو صورة ذلك الانطباع الساكن، العلمي، الكئيب الذي كان ينتابني، فيما مضى، في حديقة النبات في مونبلييه، واستحالت أبياتَ شعرٍ ونثراً.

كما لا أرتاب للحظة بأنّ وصفة بايرو الأريبة، وأسلوبها الراقي الذي يبني للأفقِ عمارةً أمام ناظريك، وقبل ذلك، في طفولتي المبكرة، أذكر خطوط المرفأ في «سيت»، ومشهد هياكل

المراكب وحركتها، والبحر، أخيراً، كلّها فرضت عليّ، طيلة حياتي، الديكورات الروحية لأفكاري.» [١٦٣]

في نظر فاليري ليس المتوسّط مشهداً لبروق خاطفة ومغالاة. إنّه، في المقام الأول، نظرية، وفكرة عن الحضارة. فهو في ذكره لمناظر المتوسّط يتحدّث عن «الديكورات الروحيّة لأفكاري». طبعاً هناك مشاعر في «استيحاءات متوسطية» :

«إني أعترف أمامكم بأني شهدتُ جنون الأنوار الحقّ مصحوباً بمسٍّ المياه.» [١٦٤]

ويتابع :

«لم يعلّمني أو يحلّ في أعماقي أو يثقفني أو يبني معارفي شيءٌ أكثر من تلك الساعات التي كنت أسرقها من انكبابي على الدرس، ساعات شرودٍ في الظاهر، غير أنها مكرّسةٌ، بالفعل، لعبادتي اللاشعورية ثلاث ربّات : البحر، السماء، الشمس. كنت أشعر حيالها بما يمكن وصفه بالدهشة والحماسة البدائيتين. ولا أرى اليوم كتاباً أو مؤلفاً قد يستثير فينا ذاك الذهول الخصب وذاك التأمّل وذاك الاتحاد التي خبرتها في سنوات طفولتي الأولى .» [١٦٥]

ولكن في ختام هذا الوصف لمشاعره التي انتابته في سنوات الطفولة أمام الطبيعة المتوسّطية، ينهي فاليري كلامَه بفكرة :

«نحن نمتلك، على نحو ما، معياراً لكلّ شيء ولأنفسنا.

إنّ قول بروتاغوراس، الإنسان هو معيار كلّ شيء، قولٌ تعريفيّ، وهو، في الجوهر، متوسّطي.» [١٦٦]

وسوف نعثر على فكرة المعيار، المميّزة للمتوسّط، لدى ألبير كامو (Albert Camus) وخاصّةً في «منفى هيلانة».

ذلك أنّ تأثير فاليري على كامو سيكون ملحوظاً، وخاصّة في نظرته للمتوسّط. فـ «قصيدة عن المتوسّط» هي أحد نصوص كامو

الأولى حول هذا الموضوع، وكما يوضح روجيه كييو (Roger Quillot) :

«كان كامو في العشرين من عمره عندما نظم هذه القصيدة في العام ١٩٣٣ . التفت إلى الشمس، إلى البحر وربّما تجسّدت أسطورة المتوسّط... عندئذٍ، وبتأثير من فاليري، كتب هذه الأنشودة في مديح المتوسّط، هذا النشيد الفتيّ في مديح العصور القديمة، لا اليونانية، بعدُ، بل اللاتينية.»

ولكن سرعان ما سيدرك كامو، وخاصّة بعد قراءته غابرييل أوديزيو، مواضع اللبس التي تحيط بالمتوسّط اللاتيني. وعندها سوف تنشأ رؤية جديدة للمتوسّط، في محيط الناشر أدمون شارلو (Edmond Charlot)، كما يذكّر أمانويل روبليس (Emmanuel Roblès) :

«أطلق شارلو إذاً تلك السلسلة الجميلة «Méditerranéennes» حيث نشر تباعاً «L'Envers et l'Endroit» لكامو و «Santa Cruz» لجان غرونييه، و «L'annonciation à la Licorne» لرينيه جان كلو (René Jean Clôt) ، و «A la vue de la Méditerranée» لكلود دو فريمنفيل (Claude de Fréminville)، و «Amour d'Alger» لغابرييل أوديزيو، وهذا الأخير هو لنا بمثابة أستاذ في هذا المجال إذ سبق له أن أصدر لدى «غاليمار» «Jeunesse de la Méditerranée» «Sel de la Mer»، وهما كتابان لهما أهمية خاصّة بالنسبة لنا.» (١٦٧)

مع «أعراس» (Noces) و «الصيف» (L'Eté) سيضفي كامو شكلاً على متخيّلِ المتوسّط وفكره. هذه النصوص، المكتوبة كأناشيد فلسفية حقيقية، هي أشبه بأنشودة للجمال، مصدّعة بالحسّ التراجيدي.

«لقد ترعرعتُ في كنفِ البحر، وكان الفقر ترفي، ثمّ فقدتُ البحر، فتراءى لي كلّ ترفٍ رمادياً، وتراءى البؤس لا يطاق. ومذّ ذاكَ أنتظر.»

كتبَ في «البحرِ عن كثب». وكان قد ختمَ هذا النصّ في العام

١٩٥٣ ، قائلاً :

«لطالما شعرتُ بأنّي أحيا في عرض البحر، مهدّداً، في كنفِ غبطةٍ ملكية.» (١٦٨)

المتوسّط ملاذه، ومصدر إلهامه وفكره :

«للمتوسّط مأساته المشمسة التي ليست هي مأساة الضباب. في بعض الأمسيات، عند البحر، يهبط الليل على المنحنى المرسوم لخليجٍ ضيّق، وعندها، من المياه الصموتة، ينهض امتلاء قلِق.»

وهذا القلق هو الذي سيواجهه كامو فلسفياً، خاصّة في «الإنسان المتمرّد» (L'Homme révolté). يحاول أن يجبهَ العدمية وأن يصدّها بـ «فكرة الجنوب»، التي هي سعي دؤوب وراء الحدود، وراء المعيار في مواجهة العصر الفاقد معاييره.

«غير أنّ الطابع المطلق للتاريخ، على الرغمِ من انتصاراته، لم يكفّ يوماً عن الارتطام بنازعٍ لا يقهر في الطبيعة البشرية، والذي يحفظ المتوسّط، حيث الذكاء شقيق النور الصلب، سرَّه. (...) لكن شبابَ العالم لطالما أقام على الضفاف نفسها. وإذ رمت بنا الأقدار في أوروبا البشعة، حيث يموت، محروماً من الجمال والصداقة، أكثر الأعراق اعتزازاً، فإننا، نحن المتوسطيين، نحيا على الدوام بالنور نفسه. ففي قلب الليل الأوروبي هناك الفكر الشمسي، الحضارة ذات الوجهين، تنتظر فجرها. غير أنّها، منذ اليوم، تضيء دروب السيادة الحقّة.» (١٦٩)

ويختم قائلاً :

«سنختار إيثاكا، الأرض الوفية، الفكر الجريء المقتصد، والفعل الصاحي، وسخاء الإنسان الذي يعلم.» (١٧٠)

«سخاء الإنسان الذي يعلم» هذه، نجدها في «*الإنسان الأوّل*» (Le premier homme)، الكتاب الذي صدر بعد وفاة ألبير كامو، والذي كان منهمكاً بتأليفه عندما وافاه الأجل على نحوٍ مفاجئ وعنيف. كما أنّه الكتاب المشبع بذكريات طفولته على الضفّة

الأخرى من المتوسّط.

لدى مغادرته باريس، كتبَ كامو :

«لكنّه فرّ هارباً، كان يتنفّس على ظهر البحر الواسع، كان يتنفّس أمواجاً، تحت تموّج الشمس، وبات باستطاعته أن ينام وأن يعود إلى طفولته التي لم يشفَ يوماً منها، إلى سرّ النور ذاك، سرّ الفقر الدافىء الذي أعانه على العيش وعلى التغلّبِ على كلّ شيء.» (١٧١)

إنّ نواة النور هذه هي في صلب الفلسفة المتوسّطية التي يحاول كامو أن يصوغها. وفي معركته هذه يلتقي مجدداً أستاذه وصديقه جان غرونييه الذي، هو أيضاً، كان يسعى للعثور على المتوسّط،

«بأماكنه المقدَّرة للسعادة، ومناظره التي يستطيع فيها أن يتفتّح على الحياة وأن يعرف، فيما وراء لذّة العيش وحدها، بهجةً هي أشبه بانخطاف كتلك التي يتحدّث عنها فلوبير: «لقد خبرتُ أحياناً حالةً نفسية تفوق الحياة، والمجد مقارنةً بها ليس أمراً يُذكر، ولا السعادة ذات نفع».

من شأن المتوسّط أن يلهم حالاً كهذه. فلا خشيةَ من أن يرمي بكَ في خضمّ المشاعر الملتبسة التي كانت تدفع الرومنسيين لأن يروا في المناظر غذاءً روحياً لا بل، حتّى، حدساً روحياً. فعبر الخطوط والأشكال التي يفرضها يجعل الحقيقة ملازمةً للسعادة؛ حتّى ثمالة النور نفسها إنما تستثير فيه روحيّة التأمّل. وبذلك يقدر أن يوحي بميتافيزيقا ما لكنّها تقف على مسافةٍ متساوية من عبادة المطلق ومن عبادة العمل.» (١٧٢)

يذكّر جان غرونييه في هذه المقدّمة التي ترقى إلى العام ١٩٣٩، بما يدين به لبول فاليري الذي أجاز له استعادة عنوانه «استيحاءات متوسطية». تلي المقدّمة صفحات سرده لوقائع رحلته إلى إفريقيا الشمالية وإيطاليا وبروفانس واليونان، حيث يسعى غرونييه إلى تجسيد فلسفته المتوسّطية، وهي ميتافيزيقا تقف على مسافةٍ متساوية من «عبادة المطلق وعبادة العمل».

من خلال نصوص كامو أو سرديّات غرونيه، يتشكّل نسقٌ للقيم المتوسّطية، كما يتجسّد نمط وجود في العالم. وبذلك يغدو «فكر الجنوب» تعبيراً غير مكتمل عن فلسفةِ مكان.

جان جيونو (Jean Giono)، وهو كاتب من برّ بروفانس مقيم في مانوسك، لم يتخلّف يوماً عن تلبية نداء البحر. بل على العكس من ذلك، فإنّ أحد مؤلّفاته الأولى، «ولادة الأوديسّة»، يسهم في مديح المتوسّط الذي سيكون ماثلاً، على أوجه مختلفة، في بقية أعماله، ومن بينها أحد أواخرها، «نوح» (Noé)، وفيه إحدى الشخصيات الرئيسية هي مدينة مرسيليا، التي يصفها، لحظة مغادرتها، على النحو التالي :

«هذه المدينة التي تتخذ الآن، لحظةً تلو لحظة، طابعَ المدن الصحراوية الأشبه بالهياكل. فوقها ينام البحر الذي نرى حدّه الأخير عند طرف السماء لصقَ خطّ مستقيمٍ أسود، ولكنه يأتي إلى أسفل الجدران هادراً بين كتل الإسمنت والمصانع الصامتة. التماعات شمس الصيف تشكّل على صفحة البحر مدينةً هائلةً من الشرفات المأهولة بسكّانٍ خضرٍ وأحياء، في برانس فضفاضة وأشرعة من نسيج الكتان، معتمرين العمائم والطرابيش والتيجان الذهبية، لاهين بألعابٍ معجزةٍ وبهلوانيات من نور.» (١٧٣)

لم يكتف جيونو في سرديّاته بأن يعطي شكلاً لتصور المتوسّط. بل اقترح، في نصّ قصير، رؤية مبنية لأفكاره حول المسألة :

«هذا البحر لا يفصل بل يوحّد. وهو يفرض على شعوب ضفافه، وإن كانوا من أعراق مختلفة، وأديان متعارضة، الإيماءات نفسها. (...) لم يجر التبادل فوق هذا البحر أو رغماً منه، بل جرى بفضلِ هذا البحر. ضعوا مكانه قارة فترون أنّ لا شيء كان ليعبر من اليونان إلى بلاد العرب، ولا شيء من بلاد العرب كان ليعبر إلى إسبانيا، ولاشيء من الشرق كان ليعبر إلى بروفانس، ولا شيء من روما إلى تونس. ولكن فوق هذه المياه، ومنذ آلاف السنين، كان تبادل القتل والحبّ جارياً ومن هذا التبادل نشأ نسق متوسّطي خاص.» (١٧٤)

فبالنسبة لجيونو المتوسّط هو أرض العبور المفضّلة للمواريث الثقافية المختلفة.

كذلك الأمر فعل المؤرخون. فعلى طريقتهم، وبحسب اقتضاء أشكال سردهم، سعى المؤرخون لإعطاء المتوسّط شكلاً بوصفه كلاً فريداً، بوصفه مكاناً متعيّناً، وبوصفه «شخصيّة تاريخية».

متوسّط المؤرخين

لقد بذل فرنان بروديل (Fernand Braudel) جهوداً كبيرة لتأسيس المتوسّط بوصفه «شخصية تاريخية». ويسمُ عملُه مرحلةً حاسمة من النحو الذي يُنظَر من خلاله للمتوسّط في فرنسا. ومعه يحظى المتوسّط بالاعتراف الكامل من قبل الوسط العلمي وما يتعدّى هذا الوسط أيضاً. نظراً للمكانة التي يحتلّها في ميدان الدراسات التاريخية وفي الحيّز الثقافي الفرنسي [١٧٥] أضفى فرنان بروديل على المتوسّط مكانةً لم تكن له من قبل. وغدا إشكالية مشروعة، وكلاً ناجزاً، ومقياساً مكانياً موافقاً للتفكير في التاريخ.

ولكن كيف توصّل فرنان بروديل إلى الاهتمام بالمتوسّط ؟

بروديل رجل ينتمي إلى عصره، أي أنه ينتمي إلى الزمن الكولونيالي عندما تمّ إيفاده، كمدرّس تاريخ شاب إلى ثانوية القسنطينية عام ١٩٢٣، ثمّ إلى الجزائر العاصمة بين ١٩٢٦و١٩٣٢. وعندها يكتشف المتوسّط، هو القادم من اللورين، لكنّه «متوسّط مقلوب». في الفترة التي كان بروديل يدرّس فيها في الجزائر كان المشروع الكولونيالي في أوجه، والاحتفالات بالذكرى المئوية للحملة الفرنسية على الجزائر جارية على قدمٍ وساق. في ذلك الوقت سوف يخضع بروديل لتأثير الأوساط الكولونيالية الحاسم، حيث ينشط أساتذة أمثال أ. ف. غوتييه (E.F. Gautier) وس. غسيل (S. Gsell) أو أدباء أمثال ل. برتران.

إنّ جزءاً من رؤيته للمتوسّط ولتاريخ الحضارات يتأتى من هذا التأثير، وخاصةً عندما يشدّد على الغيرية العميقة للإسلام :

«الإسلام حيال الغرب، هو القط حيال الكلب. بإمكاننا القول إنه ضدّ–غرب، مع كل الالتباسات التي يشتمل عليها أي تعارض عميق هو، في الوقت نفسه، تنافس وعداوة وأخذ... إنّه، في ذاته، المتوسّط «الآخر»، المتوسّط النقيض الذي تكمّله الصحراء.»[١٧٦]

أو عندما يقسم المتوسّط إلى ثلاث مجموعات لا يمكن التوفيق بينها :

«بصرف النظر عن انقساماته السياسية الراهنة، يتألف المتوسّط من ثلاثة متحدات ثقافية، ثلاث حضارات حيّة هائلة الأبعاد، ثلاث أنماط رئيسية من التفكير، والاعتقاد والأكل والشرب والحياة. وهي في الحقيقة ثلاثة وحوش مستعدّة دوماً لإبراز أنيابها، وثلاث شخصيّات ذات مصائر لا تنتهي [...] هذه المتحدات الثلاث تعبر الزمن. وتتغلّب على الديمومة. وفيما يدور شريط التاريخ تبقى في موضعها، رابطة الجأش [...] الحضارات هي إذاً الحرب، الحقد، ظلال هائلة تلتهم نصفها. والحقد تصنعه، وتتغذّى منه، وتحيا به.»[١٧٧]

في الجزائر، يلتقي بروديل المؤرخ البلجيكي هنري بيرين (Henri Pirenne)، وسيكون هذا اللقاء حاسماً في سياق عمله كمؤرّخ للمتوسّط. فقد دعيَ بيرين في العام ١٩٣٠، من قبل الجامعة لكي يلقي محاضرةً سيحضرها بروديل. وكما يقول إيراتو باريس (Erato Paris) :

«لم يكن بروديل قد التقى مثاله الكبير في باريس، بالإضافة إلى أنّ بيرين كان مقيماً في بلجيكا. ومع ذلك فإنّ المتوسّط يندرج في سياق التأثير الذي كان يمارسه بيرين، وهو التأثير الذي ستتبنّاه، من جهتها، مطبوعة Les Annales.»[١٧٨]

ما هي رؤية المتوسّط التي يدعو إليها بيرين ؟ قبل صدور مؤلّفه الذائع «محمد وشارلمان»، يمكن العثور على هذه الرؤية في

مقالة نشرت في العدد الأول من الـ Annales[١٧٩]:

«عندما وطّد الإسلام سيطرته، في مطالع القرن الثامن، على ضفاف المتوسّط ، من سوريا حتّى إسبانيا، تحوّل البحر الذي لم يكن، منذ فجر التاريخ، سوى رقعةٍ للتواصل بين غرب أوروبا وشرقها، ولقرون طويلة، إلى هوة سحيقة تفصل أحدهما عن الآخر. ويفضل أسطولها، تمكّنت الإمبراطورية البيزنطية من الحفاظ على سيطرتها على بحر إيجه والأدرياتيكي، غير أنّ ملاحتها لم تتمكّن من الازدهار حتّى البحر التيراني. إذ غدا هذا البحر بحيرة إسلامية، وازدادت غلبة هذا الطابع عليه مع استيلاء المسلمين على جزره وبنوا على الساحل الإفريقي وفي صقلية قواعد بحرية حصينة. (...) بإمكاننا البرهان، بديهةً ، على أنّ انقطاع الملاحة المتوسّطية بسبب الغزو الإسلامي قد أدّى، من حيث عواقبه، إلى انقراض الحياة المدينية، وزوال طبقة التجّار التي كانت تنمّيها، كما أدّى أخيراً إلى استبدال اقتصاد التبادل، الذي كان سائداً حتّى ذلك الوقت، باقتصاد مكرّسٍ فقط لزراعة الأراضي واستهلاك المنتجات محليا.»

إنّ رؤية المتوسّط التي يدعو إليها بيرين في كتابه «محمّد وشارلمان»، الذي يرقى تأليفه إلى العام ١٩٣٥، تبدو بيّنةً حاسمة:

«شكّل التقدّم السريع والمباغت للإسلام أداةً لانقطاع التقليد القديم. وكان من تبعات ذلك انفصال الشرق والغرب نهائياً، ما أنهى بدوره وحدة المتوسّط. وباتت بلدان مثل إفريقيا وإسبانيا، التي لم تكفّ عن كونها جزءاً من المتّحد الغربي، تدور في فلكِ بغداد. وظهرت ديانة أخرى وثقافة أخرى في كلّ الميادين. وكفّ المتوسّط الغربي، الذي أضحى بحيرة إسلامية، عن كونه طريق التبادل والأفكار كما كان حتّى ذلك التاريخ.

بات الغرب محصوراً ومرغماً على العيش منطوياً على ذاته ضمن نطاق مغلق. وللمرّة الأولى منذ بدء التاريخ انزاح محور الحياة التاريخية من المتوسّط باتجاه الشمال. ثمّ أدّى الانحطاط الذي أعقب ذلك سقوط مملكة الميروفيين وبروز سلالة جديدة،

متحدّرة من المناطق الجرمانية الشمالية، والتي عرفت بالسلالة الكارولنجية.»[١٨٠]

لقد غدا هذا التصوّر للمتوسّط كعالم منقسم، حيث «كان من تبعات مجيء الإسلام انفصال الشرق والغرب نهائياً، ما أنهى وحدة المتوسّط»، نموذجاً تاريخياً في كافّة أعمال بيرين. وبنى نحواً لرؤية المتوسّط انطلاقاً من قسمةٍ تاريخية، من صَدْعٍ يعلي من شأن الوحدة المتوسطية قبل الإسلام، ويشدّد على تصدّعها بعده. وهكذا وُضِعَت، من قبل بيرين، شبكة لقراءة المتوسّط، بقيت صالحة لزمن طويل، يُشار فيها إلى الإسلام بوصفه عامل الشقاق الوحيد. وسوف تغدو فكرة رائجة، فكرة مسبقة جاهزة عن المتوسّط. إذ نعثر عليها، مثلاً، لدى المؤرّخ بيار شونو (Pierre Chaunu):

«والحال أنّ هنري بيرين محقّ في ما يذهب إليه؛ إنّ الهوة بين المسيحية والإسلام لعميقة جداً [...] كما أن حظّ أوروبا يكمن في وجود الإسلام الضاغط، وفي حاجز المغرب المنيع الذي ينهك الحصون الإسبانية، والاختراق التركي للبلقان. فبكسر دوائر التبادل المتوسطية، وبإرغامهم على العودة إلى الصراعِ المسيحي الإسلامي، سوف تُرغم المسيحية على الانقلاب شمالاً، ثمّ شرقاً وجنوباً، على المحيط.»[١٨١]

وإلى رؤية بيار شونو هذه، يضيف جان لوي تريو (Jean - Louis Triaud) الذي يحلّل «الإسلام كما يراه المؤرخون الفرنسيون»، ما يلي :

«كما نرى جيداً، بات هذا الصدع يفسّر على نحو إيجابي، غير أنّ نموذج بيرين ما زال، على هذا النحو أو ذاك، ماثلاً في ذاكرة الباحثين. فبقسمته المتوسّط يكون الإسلام قد أدّى الوظيفة التاريخية الوحيدة التي يُعترف له بها. أمّا ما تبقّى، فالتاريخ يلتفت بشأنها نحو آفاقٍ أخرى، تاركاً العالم العربي الإسلامي والعثماني في حالٍ من الهامشية أو الثبات خارج الزمن، خارج الزمن الوحيد الذي يحسب له حساب، أي زمن التقدّم.»[١٨٢]

لقد كان تأثير هنري بيرين، ومدرسة التاريخ في جزائر الثلاثينات، كبيراً جداً على فكر بروديل. ولكن سرعان ما برزت تأثيرات أخرى وآفاق أخرى، بحيث أنّ تصوّره للمتوسّط، وهو تصوّر تطوّري بأية حال، لم يكن أحاديّ الجانب. بروديل لا يشاطر رؤيةَ أمثال لوي برتران، بل لعلّه أقرب إلى رؤية المتوسّط التي صاغها بول فاليري والذي كان بروديل أحد قرائه المعجبين. هذا علاوةً على تأثير الـ Annales الحاسم، وتأثير مارك بلوخ (Marc Bloch) ولوسيان فيبر (Lucien Febvre) اللذين يقلّلان من تأثير المشروع الكولونيالي ويضفيان عليه طابعاً نِسْبياً.

هكذا لا يتردّد بروديل في الإشارة إلى ما يحتويه المتوسّط

«من مزيج مذهلٍ للأعراق، والأديان، والعادات، والحضارات، لم تشهد له الأرض مثيلاً.»[١٨٣]

وخاصةً أنّ بروديل يقوّم تقويماً عالياً في عمله حول المتوسّط انتقال المواريث الثقافية التي يتألّف منها المتوسّط، بين ميراثٍ يوناني ولاتيني وميراث يهوديّ عربي. وبذلك يحظى «الوسطاء» اليهود والموريسكيون بالمكانة التي يستحقونها في تاريخ المتوسّط بحسب فرنان بروديل، كما يشير، بحقّ، إيراتو باريس :

«عدد كبير من الفارين الموريسكيين يقيمون، كما اليهود، في القسطنطينية، وهناك يرى بروديل أنهم يعرضون على الأتراك الاستفادة من خدماتهم كجنود ومترجمين أو جواسيس. وبعضهم الآخر يصل إلى أميركا اللاتينية مساهما لا في ازدياد عدد سكانها وحسب، بل أيضاً في بثّ وتوطيد الحضارة المتوسّطية فيها. بيْدَ أنّ المدن المغربية، والجزائرية طبعاً، هي التي ستشهد تجربة الهجرة الكثيفة للموريسكيين (من عام ١٤٩٢ حتّى عام ١٦٠٩).

سيحملون معهم «اللغة الإسبانية» ومعها «التقنيات العالية» للبحر اللاتيني، وسوف يعملون، تماماً كاليهود، في التجارات الوسيطة الكبرى خاصّةً، ونشر الحضارة اللاتينية في العالم الإسلامي والأطلسي ؛ أي أنهم كانوا يستغلّون ميّزاتهم في

الممارسة، بما يضير شبه الجزيرة الإيبيرية التي طردتهم.»[١٨٤]

لقد كان متوسّط بروديل عملاً لافتاً حظي برواج واسع، سواء في فرنسا أو في خارجها. ومن خلال أستاذيّته أضفى بروديل مشروعية استعادية للمتوسّط بوصفه كلاّ تاريخياً. وكان تأثيره كبيراً على تصوّرات المتوسّط كما ينظر إليه من فرنسا، إثر صدور أطروحته الجامعية في كتاب، ومؤلّفاته الأخرى التي تلتها.

وكما يقول جاك رانسيير (Jacques Rancière) بشأن الجغرافيا التاريخية للمتوسّط التي أنشأها بروديل :

«كيف السبيل إلى التفكير في هذا البحر الغائب عن النظرة الملكية والمدعو، للسبب عينه، لأن يضطلع بدوره كقوةٍ تاريخية ؟» [١٨٥]

يغدو المتوسّط فاعلَ تاريخ ؛ يغدو «شخصية تاريخية» عبر الكتابة.

«المتوسّط ليس واحداً لا بالمناخ ولا بالتبادل ولا بالمعارك؛ وطبعاً ليس واحداً بإجمال هذه العوامل أو بتضافرها. إنّه واحد لأنّه كُتِبَ على هذا النحو. (...) إنّ القلبَ الواحد الذي يجعل المتوسّط نابضاً كفاعلٍ جديدٍ للتاريخ هو قلب كتابة.»[١٨٦]

يغدو المتوسّط فاعلَ تاريخ عبر إثباتِ ذاته «إقليمَ كتابة»، مكاناً لابتكار السرد، «هوية سردية» يسهم المؤرخون في صوغها بأعمالهم.

جورج دوبي (Georges Duby)، هو، إلى جانب فرنان بروديل، أحد أبرز المؤرخين الفرنسيين في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد أسهم عملياً في نشأة «إقليم الكتابة» للمتوسّط. ومن بين نصوصه الكثيرة اثنان يمكننا التوقف عندهما بوصفهما المعبّرين عن رؤيته العميقة للمتوسّط.

أولاً، الميراث :

«المنبع هنا، في فضاء المتوسّط، المنبع العميق للثقافة الراقية التي تنتمي إليها حضارتنا. إني لا أتكلّم هنا على الإطار الأساسي الذي يفرضه على رؤيتنا للعالم نسق ديني توحيدي سبق لنا أن رأينا أنه تشكّل على ضفاف البحر الداخلي ثمّ انتشر انطلاقاً منها. وإنما أتكلّم على هذه الثقافة الدنيوية التي سرعان ما استقرّت المعتقدات في كنفها، واجتاحتها وغزتها، والتي تبقى اليوم، وقد انحسرت تلك المعتقدات، موضوع إجلال ليست المكتبات والمتاحف سوى معابد لها، فيما تجهد المدارس في إحيائها ومعها الجامعات والأجهزة الإيديولوجية المختلفة التي تهيمن علينا.»(١٨٧)

ويضيفُ، مضفياً قيمةً لها الأولوية على المتوسّط :

«عندما نحلم باكتمال إنساني، بفخر وغبطة أن نكون بشراً، تتجه أنظارنا صوبَ المتوسّط.»(١٨٨)

إذ تجد النزعة الإنسانية المتوسّطية مع جورج دوبي قاعدةً تاريخية. غير أنّه يكافح الأفكار الشائعة ويشير إلى أهمية «متوسّط الفقير» :

«(...) الشواطىء المتوسطية ليست هي الجنوب بالنسبة للجميع، لا بل إنّ العُطَلَ، في أيامنا هذه، تبقى امتيازاً عابراً. فيما يعنيني أنا لا أعتقد بأنّ متوسّط الناس الهانئين هو المتوسّط الوحيد، كما أنّه، ربّما، ليس هو الحقيقي أكثر من سواه.»

ويخلص قائلاً :

«إليكم هذا الأمر المدهش : مما لا شكّ فيه أنّ الفقر المتوسّطي هو الوحيد الذي يجعل الأثرياء يحسدونه أحياناً. نوستالجيا فنّانين... فلا ندعها تنسينا لا العذاب، ولا الحرمان من الخبز والفاكهة – ولا الغضب المكتوم، وليد الجور المتمادي.»(١٨٩)

أعمال جيرار شاستانياريه (Gérard Chastagnaret) وروبير إلبير (Robert Ilbert) تندرج في سياق الرؤية التي دعا إليها جورج دوبي. ذلك أنهما يريان أن المتوسّط لا ينبغي أن يُمَجّد، بل

أن تنزع عنه كلّ عناصر الأسطرة التي أسبغت عليه :

«نادراً ما كان المتوسّط مسرحاً لمواجهاتٍ عنيفة كتلك التي يشهدها اليوم. ومع ذلك لم يسبق لاسمه أن تردّد كما يتردّد اليوم. فعندما نشرت «دفاتر الجنوب» في العام ١٩٤٢، «عبقرية أوك والإنسان المتوسطي»، كانت الجيوش الإيطالية تجتاح ليبيا : ولعلّ «أمم جانحة» لستراتيس تسيراكاس يسلّط الضوء، أكثر مما تفعل نصوص غابرييل أوديزيو، على ذاك المتوسّط الذي بدأ، آنذاك، يتفكّك. واليوم، أكثر من الأمس، يبدو المتوسّط كواحد من تلك الأشكال المثالية، التي تقترحها السياسات عندما يكون التاريخ معطّلاً. ولفرط ما تتكاثر الهيئات الدولية التي تعلن انتماءها إليه، قد ينتهي بنا المطاف إلى الاعتقاد بأنّه حقيقة في حدّ ذاته أو أنّه، في الأقلّ، يشتمل على نمطٍ ما، خاص، من الاجتماع أو الثقافة. ولكن، لا بدّ أن حرب الخليج قد أعادتنا إلى أرض الوقائع ؛ ذلك أن المتوسّط الآن، وأكثر من أي وقت مضى، هو حدٌّ. فأوروبا تكوّن نفسها بالتفاتها نحو الشرق : وعبر المتوسّط يمتدّ خطّ الصدع الذي يعزل الشمال عن الجنوب. وعادت البحيرة الداخلية مجدداً لتكون بحراً، أو ما يشبه نطاقاً صحياً.»(١٩٠)

أمّا بشأن استخدام المتوسّط كنموذج تاريخي، فإنهما يوضحان :

«المتوسّط، أو على الأقلّ كما قيل عنه منذ فرنان بروديل، ليس بحراً. وليس حدوداً. إنّه وصلٌ، لا بل هو مهد. حتّى أنّ الناظر إليه اليوم يكاد أن يصبح فصامياً : من جهة، هناك أسطورة الأندلس، ومن جهة أخرى هناك التنبؤ المعلن عن «مراكبِ لاجئين» جديدة مصدرها الجزائر أو أماكن أخرى. ففي ذلك كلّه ما يحثّنا على تصنيف المتوسّط في خانة الإيديولوجيات الغامضة أو على جعله مثالاً يحتذى باسم سيرورات الاختلاط التي لا مفرّ منها.»

يرى شاستانياريه وإلبير أنّ الأحرى بنا أن نتخلّى عن كلّ وهم :

«كانت حرب الخليج هي آخر هزيمة للمتوسّط المنظور إليه بوصفه بؤرة حوار وتسامح.»

وفي معرضِ سعيهما لتفكيك الإيديولوجية المتوسّطية، يضيفان :

«يبقى أن المتوسّط لن يتمكّن إطلاقاً من احتواء العلاقات بين الشمال والجنوب في إطار مؤسسي صارم. فمفهومه غائم أو قابل لقراءات عدّة. كما ينبغي التطرّق مباشرة إلى المكتومات المزعومة ومحاولة فهم ما تشتمل عليه، في الماضي كما في الحاضر، «الحوارات المتوسطية» المختلفة لكي ندرك ما هي الرهانات الحقيقية اليوم. سيغدو الغموض تعدّداً في المعاني وفرصة لتنوّع العلاقات وخصوصية الحوارات إذا أدركت الضفّتان المصلحة العميمة من وجود مشترك في المضمار نفسه. (...) عندما افتتح غاستون ديفير (Gaston Deffère) وأدموند شارل رو (Edmonde Charles-Roux)، عام ١٩٨٢، المعارض المدعوة «شرق البروفانسيين»، كانا راغبين في تذكيرنا بعمق الثوابت التي تجمع بين ضفتيّ المتوسّط (التشديد لنا). ويمضيّ عشر سنوات ليس غرضنا أن نباشر حملة هدمٍ. إذ ينبغي التذكير ببساطة أنّ بالإمكان العمل على المتوسّط من دون أن تطرح هويته كعقيدة جامدة، ومن دون الخلط بين ميدانٍ علمي وميدان إيديولوجي. فالتاريخ ليس ضمانة.»[١٩١]

ولكنْ، المؤرخون ؟...

هذه المسافة العلمية حيال المتوسّط قد تفسّر انطلاقاً من أنّها غالباً ما استخدمت بوصفها أداة :

«إنّ تجاربنا كعلماء وكمتمرّسين في الشأن العام قد بيّنت لنا، بأوضح ما يكون في ما يتعلّق بالمتوسّط، ثقلَ الأطر المكانية في التصوّرات الملازمة لسيرورة القرار ومقدار التعقيد في ديناميات تنسيق الفضاءات المختلفة. كلّ قرار هو توقّع، أي إسقاط في نسقٍ من تصوّرات المستقبل، غير أنّ الرهانات المكانية ليست بارزة فيها إلاّ إذا كان المكان ليس معطىً كمكتسب، بل كمرجوٍّ أو كصراع. والحال أنّ المتوسّط يفضي تحديداً إلى فهمٍ معقّد للفضاء : ففيه القريب والبعيد، المألوف والغريب، التهديد أو التواطؤ، لا يتمّ التمييز بينها على أساس معايير كميّة صرفة. وكلّ نجاح اقتصادي أو سياسي أو ثقافي هو أولاً نجاح في تراكب فضاءاتِ

أبعاد، لا بل حتّى من طبيعةٍ مختلفة : فالنجاح في المتوسّط هو إجادة اللعب على الفضاء الوطني، على قطعةٍ، في الأقلّ، من الضفاف البحرية. وغالباً ما يكون أيضاً الخروج من المتوسّط دون التخلّي عنه : والأمثلة كثيرة على هذا النمط من المسارات، من مالكي سفن الشحن البحري اليونانيين إلى ثراء بعض متوسّطيي الساحل الشرقي للولايات المتحدة. وهي قد تكون مسارات حقيقية أو أسطورية، بالطبع، غير أنّ ذلك لا يغيّر في الأمر شيئاً، لأنّ الأسطورة ينبغي أن تكون موضوع تمحيص ودراسة، لذاتها أولاً، وثانياً لأنها تغذّي الأحلام، وأحياناً تغذي الاستراتيجيات.»[١٩٢]

إنّ المسافة العلمية التي يتخذها شاستانياريه وإلبير إزاء أشكال الخطاب حول المتوسّط، تبقى، مع ذلك، مصحوبةً باعتبار الفحوى السياسية والاستراتيجية لتصوّرات المتوسّط هذه نفسها.

«الأسطورة ينبغي أن تكون موضوع تمحيص ودراسة لذاتها أولاً، وثانياً لأنها تغذي الأحلام، وأحياناً تغذي الاستراتيجيات.»

بعد فرنان بروديل وجورج دوبي، يعتبر المؤرخون الجدد للمتوسّط بأنّ «المتوسّط ليس كلاً متجانساً، كما أنه ليس نسقَ تفسير»، بل ينبغي أن يُقارَبُ كموضوعٍ علمي معقّد.

وقد كُتِبَ «تاريخ المتوسّط»[١٩٣] جديد، مستلهماً أعمالهما، حيث تختتم أبحاثه بتساؤل بالغ الدلالة، ألا وهو :

«مرّة أخرى يلحّ السؤال عمّا إذا كان المتوسّط يؤدي دور صلة الوصل، وعمّا إذا كان يُنظَر إليه كفضاء مشترك. من هذه الناحية، يمكن القول إنّ ردّ الفعل على نهاية بحرنا (mare nostrum)، وعلى أزمات زوال الاستعمار، حيث تمتزج حساسيةٌ مهتاجة بمشاعر التخلّي، لم يتمّ تجاوزه بعدُ، بل على الضدّ من ذلك، ما زال محتدماً، وخاصة في فرنسا التي لم تصحُ كلياً بعدُ من صدمة أحداث كالسويس وحرب الجزائر.

جاء بناء أوروبا إذاً كإجراءٍ ضدّ الانحطاط، أو، بحسب الذهنية المنسوبة إلى جاك كارتييه (المعروف بمكتشف كندا – المترجم)،

كعودة إلى النزوع الطبيعي للقارة التي تخلّصت أخيراً من العبء الاستعماري. وقد استتبع ذلك فترةً طويلة من الانكفاء الثقافي والعلمي الذي ترافق مع انكفاء مماثلٍ سياسي واقتصادي عن المتوسّط.»[١٩٤]

وختاماً، يخلص المؤلّف إلى التساؤل :

«هل من المقدَّر للمجتمعات المتوسّطية أن ترضخ لعولمةٍ خاضعةٍ لتدفّق الحداثة عبر الأطلسية وعبر الباسيفيكية ؟

هل ستمتلك القدرة على ابتكار أنساقٍ جديدة عبر ترسيمها مجدّداً فضاءً مشتركاً، وعبر اعترافها بأوجه الشبه فيما بينها وأوجه الاختلاف ؟»[١٩٥]

ذلك هو كلّ الرهان الجيوثقافي الذي هو قيد التشكّل حالياً في المتوسّط. ولكن قبل مساءلة هذا البعد المعاصر، يجدر بنا أن نعمد إلى تحليلٍ، يمتدّ إلى فترةٍ زمنية أطول، لمختلف أشكال تصوّرات المتوسّط على المستوى السياسي والاستراتيجي.

المتوسّط السياسي والاستراتيجي

ليس غرضنا هنا أن نسرد تاريخ المتوسّط السياسي والاستراتيجي. ففي خضمّ وفرة الخطابات السياسية الاستراتيجية الفرنسية وتنوّعها، يبدو المتوسّط، مراراً وتكراراً، كمقولة تحليل وكتشكّلٍ لمجموعةٍ هي كلٌّ. ذلك أنّ تصوراً سياسياً واستراتيجياً للمتوسّط كان قد تشكّل على مراحل مختلفة. نميّز منها ثلاث لحظاتٍ كبرى :

– الزمن الاستعماري، الذي ترافق مع خطاباتٍ حول توسّع فرنسا في المتوسّط

– زمن زوال الاستعمار، الذي ترافق مع محاولاتٍ لتنظيم الانتقال والإعلان عن سياسة متوسّطية لفرنسا

– زمن الشراكة حيث يغدو البعد الأوروبي المتوسّطي الإطار الملائم للتعبير عن سياسةٍ متوسّطية.

تُنْسَبُ عبارة المتوسّط «بحر فرنسي» أو «بحيرة فرنسية» إلى نابوليون الأول، وسوف تستعاد طوعاً من قبل نابوليون الثالث. هكذا يذكّر بيار رونوفان (Pierre Renouvin) بأنّ نابوليون الثالث قد أعلن صراحةً بأنّ لفرنسا «غايات كبرى» في المتوسّط : ففي نيسان / إبريل ١٨٥٧، وخلال محادثة مع بيسمارك الذي كان آنذاك سفيراً لبلاده في فرنسا، قال إنّ المقدّر أن يصبح المتوسّط «أشبه ببحيرةٍ فرنسية»[١٩٦]. وسوف تصبح هذه العبارة تعبيراً شائعاً، وشكلاً بلاغياً لخطاب القوة الفرنسية. ثمّ يعمد بريفو–بارادول (Prevost-Paradol) مؤلّف «فرنسا الجديدة» الذائع الصيت، إلى إغناء هذا المعنى برؤية تليق بالإمبراطورية :

> «عساه يأتي قريباً ذلك اليوم الذي فيه سيتدفّق مواطنونا، وقد ضاقَ بهم المقام في فرنسانا الإفريقية، على المغرب وتونس، فيؤسسون أخيراً تلك الإمبراطورية المتوسّطية التي لن تكون فقط إشباعاً لكبريائنا، بل من المؤكّد أنها ستكون في المقبل من حال العالم، آخر مصادر عظمتنا !»[١٩٧]

هكذا يكون المتوسّط، «البحيرة الفرنسية»، مدعواً لأن يصبح موضوع حلمٍ إمبراطوري وتعبيراً عن «عظمة» فرنسا.

ويؤكّد بول إمبار دولاتور (Paul Imbart de la Tour)، مؤلّف محاضرةٍ حول «توسّع فرنسا في المتوسط»[١٩٨]، بلاغة القوة هذه بقوله :

> «... لا أدري، أيها السادة، من قال عن المتوسّط أنه ينبغي أن يكون بحيرةً فرنسية. فمنذ القرن الثالث عشر وهذه العبارة تعبّر عن حقيقة واقعة.»

ويضيف معبّراً عن قلقه :

«والحال أنّ الواقع المؤكّد هو أنّ نفوذنا في المتوسّط يتراجع أكثر فأكثر كلّ يوم. فلنرضخ لبيان إحباطاتنا وهزائمنا. فيما عدا تونس، الشرق كلّه يخرج عن سيطرتنا، وإذا لم نتنبّه جيّداً، فسيصبح بين أيدي منافسينا. منذ عام ١٨٧٨، هناك أربعة شعوب تنافسنا على هذه الإمبراطورية التجارية، والسيطرة المعنوية أو السياسية على المتوسّط : وهؤلاء هم الإيطاليون واليونانيون والإنكليز والألمان.»

هذه المنافسات بين القوى المختلفة سوف تكون في صلب خطابات إمبراطورية المتوسّط، بحسب العنوان البليغ الذي وسم به رينيه بينون (René Pinon) كتابه[١٩٩]، الذي يستعرض مشروعه، على نحو واضح، في التمهيد :

«إظهار فرنسا متربّعةً، في ازدهار حيويتها، على ضفّتي المتوسّط الغربي، وتعيين المكانة التي ينبغي أن تحتلّها إمبراطوريتها في إفريقيا الشمالية في اقتصاد حياتها القومية، وتعيين ما هي القوى، قبالتها، حول حوض البحر الداخلي، التي تنافسها وتنازعها على الإمبراطورية، وتحديد لعبة المصالح السياسية والاقتصادية المتقاطعة في هذا المجال، والبحث عن النتائج المتحققة وتحديد الأسئلة التي ما زالت عالقة : ذاك هو غرض هذا الكتاب.

كان طبيعياً أن تحتلّ «المسألة المغربية» القسط الأوفر من مساحته، بما أن المغرب هو، حول الحوض الداخلي للمتوسّط، الأرض الوحيدة التي لا ترفرف فوقها أي راية لأي قوة أوروبية، وبما أنّ المغرب هو، اليوم، الشاغل الغالب على السياسة الفرنسية.»

وفي معرضِ التحليل الذي يقترحه للمنافسات بين مختلف القوى في المتوسّط، يفكّك رينيه بينون بعض التصوّرات التي تبدو له عديمة الفائدة، كما في حالة «الأخوة اللاتينية» :

«هناك موتى احتلوا في هذا العالم مكانةً هي من الأهميّة بحيث أنّ البشر لا يستطيعون اعتيادَ فكرةِ غيابها إلى الأبد؛ فتنكبّ مخيّلة الشعوب، على جري العادة، على إحيائها وأحياناً يخيّل

إليها أنها أفلحت في بعثها من قبورها. وهذا ما جرى فعلاً مع الإمبراطورية الرومانية؛ فما زال ظلّها الهائل مخيّماً على حضارتنا، وما زالت الذكريات التي خلّفتها مبدعةَ حياةٍ وأشكالٍ سياسية جديدة. بيد أنّ أطياف الماضي هذه، التي تهيم عبر التاريخ كأنها تسعى للتجسّد، هي أيضاً مولّدة أوهام: وبحسب الظروف، تظهر بين الفينة والفينة، لتكسو بعضَ المشاعر المتعيّنة أو بعض المصالح المحدّدة، بغطاءٍ فضفاض لفكرةٍ عموميةٍ من شأنها أن تلهب حماسة الخطباء أو تغذّي الميول العاطفية.

«الأخوة اللاتينية»، التي تعني فكرة الاتحاد الطبيعي والضروري بين الأمم «اللاتينية» الثلاث، إسبانيا وإيطاليا وفرنسا، هي أحد تلك الأوهام المقيمة. فبعد ظهورها، وبخاصّة منذ بضع سنوات، في لغة السياسة والصحافة، لم تلبث أن تطوّرت قياساً على مفهوم الانتماء الجرماني الجامع، والانتماء السلافي الجامع.»[٢٠٠]

يسترسل المؤلّف في تحليله، ويصوغ، على نحو واضحٍ، تصوّراً استراتيجياً للمتوسّط، أي «شكل العالم المُعاش» ذاك، والذي يبيّن سماته:

«ليس هناك «سياسة لاتينية»، ولكن هناك، على نحوٍ ما، «سياسة متوسطية» (التشديد لنا). ليس هناك «عرق لاتيني»، ولكن هناك، بين الشعوب المحاذية للمتوسّط، بعض أوجه الشبه. البحار، كالأنهر، عندما لا تكون على قدر كبير من الاتساع، لا تشكّل سدوداً أو حواجز؛ بل غالباً ما تشكّل صلةً بين البلدان التي تجاورها؛ وبدل أن تكون فاصلاً، تقرّب ما بينها. والمتوسّط بأشباه جزره المترامية، التي تتقدّم إحداها الأخرى، وبجزره التي تمدّ بين ضفافه المتقابلة ما يشبه الجسور الضخمة، وبخلجانه العميقة المياه وأحواضه المرسومة بدقّة، إنما يدعو الشعوب إلى التبادل التجاري، وإلى تبادل الأفكار والبضائع. إنّ لطف المناخ المعتدل، وسطوع شمسٍ تؤجّج النبيذ وتخمّر عبقرية الفنون، قد أكسبا الشعوب المتوسطية بعض السمات المشتركة في المظهر وفي الشخصية. غير أنّ العلاقات بين البشر، لاسيّما إذا كان محورها المصالح، من شأنها أن تولّد الحرب لا السلام. أشباه الجزر تقرّب

غير أن النزاعات تندلع حول المضائق؛ والجزر تمدّ الجسور الطبيعية، غير أن القتال ينشب للاستيلاء على الجزر. إنّ ضفاف المتوسّط وأمواجه نفسها كانت المسرح الذي أهرقت فيه البشرية القدر الأكبر من الدماء، والموضع الذي تتالت عليه أشكال الهيمنة وأكثرها عدداً. إنّ تجاور السماء والمناخ والصخور البيض وأشجار الزيتون ليست كافية لتوليد السلام، غير أنها تسهم في إيجاد بعض أوجه التجانس بين الشعوب المحاذية. لذلك، وبصرف النظر عن أي شيء، عن الصلات السلمية أو القتالية، عن العلاقات التجارية أو البحرية، وعمّا هو مشترك في الأذواق والحساسية الفنية أو الأدبية، هناك بالتأكيد حياة متوسّطية. ولم تكفّ الدول التي تحتلّ ضفاف البحر الداخلي عن إقامة الصلات فيما بينها، حتّى عندما وقف الإسلام، بقوّته المرهوبة الجانب، ضدّ الشعوب المسيحية. كأنهم ضيوف جالسون إلى مائدة عارمة، شربوا من الكأس ذاتها، وتنشّقوا الهواء ذاته وأنشدوا الأغنيات ذاتها : وفي هذه الحياة المتوسّطية لطالما كانت فرنسا مشاركةً فيها، منذ أن أصبحت أمّة.»[٢٠١]

يتبع ما سبق تحليل مفصّل للسياسة الفرنسية في المتوسط حيث التطرّق بوضوح إلى الصفة الإمبراطورية :

«إنّ توسّع الإمبراطورية الفرنسية إلى ما وراء المتوسّط قد عدّل، في العمق، توازن القوى في ذلك البحر. إذ لم تُشهد مثل هذه السيطرة لشعبٍ واحد، وهذا الوجود لجيش واحد ولأسطول واحد على ضفتيّ البحر الداخلي منذ عهد الإمبراطورية الرومانية. وبذلك شهدنا انتقالاً لمحور السياسة الفرنسية، كما شهدنا اتساعاً لنطاق نشاطها. لقد طرأت عوامل جديدة، ومصالح ضاغطة، لم تكن تعرفها قبل العام ١٨٣٠، لتسهمَ في تغيير نمط حياتها؛ وعلى الرغم من أنها ما زالت فرنسا الأوروبية، فقد أصبحت «فرنسا أكثر اتساعاً» متوسطية وافريقية.»[٢٠٢]

إنّ صفة «الإمبراطورية المتوسطية» هذه سوف يتمّ تأكيدها بقوة، في مواجهة التوغّل الإيطالي في شمال ليبيا والتوغّل الألماني في المغرب، غير أنّها توضع، في الوقت نفسه، في سياق دولي أكثر

شمولية :

«لنا الحقّ في استكمال «إمبراطوريتنا المتوسطية» وفي أن نزوّدها بمقوّمات بقائها؛ غير أنّ هذه السياسة المتوسّطة، مهما بلغت من الأهمية، يجب ألاّ تنسينا البقية الباقية من العالم.

المتوسّط ما عاد يحتوي اليوم كلّ معاش الشعوب المتمدّنة؛ والاحتفاظ بقوّتنا في المتوسّط ليس سوى وسيلة، كما أنّ المتوسّط هو ممرّ؛ إنّه وسيلة تضمن لفرنسا في العالم الدور الذي يتلاءم وقوّتها الراهنة ومجد ماضيها.»[٢٠٣]

في هذا التصور الاستراتيجي الفرنسي المبني على فكرة الإمبراطورية لم يعد المتوسّط مركزاً، فهو ليس سوى «وسيلة» للقوّة. ويبقى أنّ فكرة الإمبراطورية والتنافس بين القوى في المتوسّط تتردّد كثيراً في الخطابات السياسية الاستراتيجية الفرنسية.

هكذا يكتب مرسيل هومي (Marcel Homet)، في العام ١٩٣٧، أي بعد ذلك بعشرين سنة، في «المتوسّط بحر إمبراطوري»[٢٠٤]، حول النزاع المتوسّطي وحول فرنسا والمسألة المغربية :

«المتوسّط بحر إمبراطوري هو رمز ! ذلك أنه إذا لم يكن هناك متوسّط واحد، فهناك أربعة «بحار إمبراطورية» وجميعها متطابقة فيما بينها، نظراً لظروف حياة أربعة شعوب أوروبية.»

فرنسا، إيطاليا، إسبانيا، وبريطانيا العظمى ومعها

«كتطوّرٍ غير متوقّع ويفاقم الأمور تعقيداً، مجيء ألمانيا القادرة، بدبلوماسيتها المرنة المصحوبة بالغطرسة الفظّة، على التسبّب بأسوأ الكوارث.»

إلى أن يحثّ الكاتب فرنسا على أداء دورها :

«لست في واردِ أن أنصّب نفسي واعظاً. فغرضي أن أوضح للجمهور الفرنسي الأهمية الحاسمة للمتوسّط والمغرب بأكمله، بما

في ذلك، لا بل خاصّة طنجة، في الاقتصاد الإمبراطوري الفرنسي. (...) عسى أن تدرك فرنسا أخيراً، إذ تتخفّف من عدم اكتراثها التقليدي، بأنّ مستقبلها مرهون بسياستها في إفريقيا الشمالية. ففي التغاضي عن هذا الأمر هلاكها.»[٢٠٥]

من هنا أهمية المتوسّط في سياسةٍ إمبراطورية كان المغرب هو محورها.

غير أنّ التحليل الجغرافي والسياسي الذي يقترحه أندره سيغفريد (André Siegfried) في كتابه «نظرة عامة على المتوسّط»، الصادر عام ١٩٤٣، فينتمي إلى سياق آخر. إنّه رؤية جامعة، ومحاولة للتوصّل إلى خلاصة تركيبية حول المتوسّط :

«إذا أمعنا النظر في هيئة العالم لتبينّا فيه، بسهولة، عدداً من الحضارات الكبرى، المتمايزة جغرافياً، والتي تمتلك كلّ منها نمط حياة مختلفاً، ومفهوماً خاصاً للإنتاج وللعلاقات الاجتماعية. ومنطقة المتوسّط تعبّر عن فهمٍ، هو نموذج الفهم الأوروبي، سواء للفرد والعائلة، أو للإنتاج والتبادل، أو حتّى للحياة نفسها. وإذا ما قورنَ بالنظام الصناعي الأميركي بدا أنّه القطب المعاكس، وكذلك الأمر بالنسبة لتشكّل أوروبا فقد كان دوره من الأهمية بحيث أنّ من دونه لن تكتمل أي دراسة لعالمنا القديم. غير أن أهميته لا تقتصر على ذلك. إذ ينبغي أن نعود إلى المتوسّط أيضاً في سعينا لفهم الصلة بين أوروبا وآسيا وإفريقيا، ولفهم التضاد بين العالمين القديم والجديد، والتعاون بين الشرق والغرب لبناء مجتمعٍ إنساني. إنّ الموضوعَ، ومهما اختلفت وجهة تناوله، سرعان ما يتخذ أبعاداً من شأنها أن ترهبَ الباحث، ولكن من واجبه أن يتحلّى بالجرأة حيالها وألاّ ترغمه على التراجع.»[٢٠٦]

في هذه المحاولة لفهمِ المتوسّط، بالمعنى اللاتيني «للإحاطة بالكلّ»، يشير سيغفريد إلى وحدته :

«هناك انطباع يفرض نفسه دون استثناء على كلّ من يجوب أنحاء المتوسّط، وهو انطباع بوحدته : فهو نفسه أينما حللنا فيه؛ والفروق الطفيفة فيه لا توازي من حيث الأهمية أوجهَ الشبه. غير

أن هذه الوحدة تنجم، هي نفسها، عن متنافراتٍ بادية بقوة للعيان، بحراً وجبلاً، بحراً وصحراء، بحراً ومحيطاً ! المتوسّط يتعارض، في مختلف سماته، إمّا مع أوروبا الوسطى، وإما مع آسيا الجبلية، وإما مع الصحراء السورية، وإما مع الأطلسي. والسيّد بول موران كان محقّاً حين أسماه بنقيض الصحراء. وشخصيّته هي، جوهرياً، حصيلة هذه التعارضات : إنها تتبدّى في التركيب الجغرافي الذي تفرضه الجيولوجيا؛ وفي المناخ الذي لفرادته يستخدم كنموذج في تصنيفات العلماء؛ وفي الجوّ الزاخر بالألوان والعطور والحرارة والإشراق التي تميّز هذا النطاق الأرضي عن كلّ النطاقات الأخرى، لاسيّما تلك التي تطوّقه كإطار. بإمكان المرء أن يخمّن، بفارق كيلومترات قليلة، إذا كان لا يزال في مناخ المتوسّط أم أنّه غادره : ولا أحسب أنّ هناك دراسة للحدود قد تكون على قدَرٍ أكبرِ من التشويق !»[٢٠٧]

في هذا الترسيم العام لشكلِ المتوسّط، يعيد سيغفريد تعيين موقع فرنسا :

«أولاً لأنّ فرنسا لن تكون هي فرنسا من دون طابعها المتوسطي. فالجميع يعلم توجهها الثلاثي : أطلسي وقاري ومتوسطي. (...) فعبر جبهتها المتوسطية تكون على صلةٍ مباشرة وفورية مع إفريقيا وآسيا والشرق، أي مع الماضي الأبرز للبشرية. (...) وعبر هذه الصلات بالذات تكمن فرادة فرنسا التي تتيح لها أن تنظر في وقتٍ معاً إلى الغرب وإلى الشرق، إلى المستقبل وإلى الماضي، وأن تكون نازعة باتجاه التقدّم ولكن متشبّثة بالتقاليد. فالجاذب مزدوج، وقد يكون متناقضاً أحياناً.»[٢٠٨]

أمّا بشأن انقسام المتوسط عند مجيء الإسلام، فإنّ سيغفريد لا يتبنّى أطروحة هنري بيرين التي تقول إنّ التبادل قد توقّف جرّاء ذلك :

«سوف يقسّم الغزو العربي هذا البحر الذي كان في السابق موحداً : وسيغدو هناك متوسّط مسلم ومتوسط مسيحي. ومع ذلك فإنّ حركة التبادل مع الشرق لم تتوقف : فالعرب يضفون الطابع الجنوبي على المتوسط لكنّهم في الوقت نفسه يجلبون للغرب

القروسطي مزيداً من الرهافة والحضارة. ولم يشهد المتوسّط حتّى ذلك الوقت ما يسمّى أزمة : فالأزمة ستحلّ فيما بعد.»[٢٠٩]

ويخلص تحليل أندره سيغفريد الجغرافي والسياسي والثقافي للمتوسط إلى سؤالٍ مركزي يهدف إلى تعيين انتمائه :

«هل ينبغي إذاً أن نصنّف المتوسّط على أنه ينتمي إلى الغرب ؟ (...) بدايةً، إني أرى، في أوروبا ولكن في المتوسّط على نحوٍ خاص، بيئةً جغرافية خليقةً بالإنسان، حيث الطبيعة ليست جائرةً ولا تتخطّى بأحجامها قدرة الإنسان على التكيّف معها. فهناك إذاً، في بيئة مثل هذه، علاقة بين الكائن البشري والطبيعة التي يعيش في كنفها. وأوروبا هي، من دون شكّ، القارة الوحيدة التي نجد فيها مثلَ هذا الامر. ما يجعل الاستنتاجات بهذا الشأن بديهية.

على الرغم من أنّ البيض لم يسهموا جميعهم فيها، لأنّ بيض آسيا لبثوا متمرّدين عليها، فإنّ الحضارة الغربية هي، على هذا النحو، صنيع عِرْقٍ. فالبيضُ، هم، وحدهم، الذين صنعوا الغرب. (...) وبأية حال هناك مزايا لم يكن التقدّم الغربي ممكناً من دونها. والحال أنّ هذه المزايا ينفرد العرق الأبيض، وحده، بامتلاكها.

هذه الملاحظات القليلة تملي علينا افتراض أن الحضارة الغربية تشتمل على مضمارٍ جغرافي له حدود يدفعنا الفضول إلى تعيينها. (...) مع العرب كان الشرق هو الذي طغى بدوره على الغرب، في المتوسط، ووصولاً إلى المحيط. وكان العرب آنذاك أكثر تمدّناً من الأوروبيين، وكانوا هم الذين يمتلكون مزايا المبادرة والحرية الفكرية تلك التي بفضلها سوف يوطّد، فيما بعد، عظمته. وأخيراً مع انحلال الإمبراطورية العثمانية، نعود، مرّةً أخرى، إلى حدود الماضي، والتي هي تقريباً حدود اليوم.

يبدو من الممكن أن نرسم، في المتوسّط الشرقي، الحدود الأخيرة للغرب. إنها هي التي تفصل النطاق المتوسّطي عن الداخل القارّي. ويبقى المتوسط، مهما بلغ شأن التأثيرات الشرقية، منتمياً إلى الغرب. وعلى الساحل كلّ الموانىء التي تسمّى أساكل هي جزء منه، على الضدّ من مرافق الداخل تلك التي هي مرافق إعادة تصدير، والتي هي مرافىء الصحراء بحقّ التي غالباً ما كانت

توصف بالبازارات. ففي حين أنَ الإسكندرية وبيروت وطرابلس هي متوسّطية نجد أن القاهرة والقدس ودمشق وحلب تعيش تحت مناخٍ مختلف، وترتهن لعالم آخر. هناك تنافر بين نطاقين جغرافيين، وبين حضارتين. وليس من قبيل العبث أنّه جرى الكلام على المتوسّط بوصفه المجال المضاد للصحراء.

لنقل أيضاً أن الشرق يبدأ مع الإسلام، الذي استعاد كلّ ما غزته اليونان في آسيا. في المحصّلة، لم تتمكّن حياة الصحراء والمساحات اليابسة الشاسعة من التغرّب : إنها تنتمي إلى الشرق ولذلك عادت إليه. هكذا يتعارض المتوسّط مع الشرق مهما بلغ من تأثير الشرق عليه.»(٢١٠)

المتوسط، بحسب أندره سيغفريد، مستمالٌ من قبل الغرب، وراسخٌ في هذا الكلّ الجيوثقافي الذي هو صنيع «البيض» حصراً : «البيض هم، وحدهم، الذين صنعوا الغرب».

إلى هذا التصوّر الأحادي الجانب للمتوسط، بوصفه إقليماً غربياً يمارس فيه تفوق الرجل الأبيض، يضيف أندره سيغفريد تعارضاً جديداً، يؤذنُ بالدخول في عصر جديد. والواقع أنّ الحرب العالمية الثانية قد قلبت أوضاع العالم رأساً على عقب، كما ولّدت معياراً جديداً لفهم المسائل الدولية. فعمّا قريب سوف تطرح مسألة زوال الاستعمار، وسوف يؤدي مجيء الولايات المتحدة إلى أوروبا، بنموذجها المجتمعي الجديد، إلى تساؤلاتٍ عدّة. ولذلك يلاحظ سيغفريد ما يلي :

«وهناك أيضاً تعارض بين الحضارة المتوسّطية، المنبثقة عن التقليد اليوناني، والحضارات الجماهيرية التي احتلّت طليعة الحركات الغربية الحديثة. فهذه مبنية على الأتمتة الآلية التي حلّت محلّ مبادرة الفرد؛ ومبنية على العمل الجمعي لجماعات واسعة الذي حلّ إمّا محل العمل الشخصي وإمّا محلّ التعاون المرن بين مجموعات محدودة الحجم والعدد ؛ كما أنها مبنية على معايرة نظام العمل المُسَلسَل الذي حلّ محلّ مزاج الأداة. (...) ولأنّه بلاد الوصل والمفصل، من الطبيعي أن يكون المتوسّط قد حُبِيَ بالميزة

الخاطئة في الوقت الذي ينتمي فيه العالم، أكثر فأكثر، إلى القارات المُصمَتة.»[٢١١]

على غرار بول موران الذي رأى أنّ «الطائرة أنجبت لنا متوسطاً جديداً»، يلاحظ أندره سيغفريد تحوّلاً عميقاً في العلاقة مع المتوسط، «في الوقت الذي ينتمي فيه العالم، أكثر فأكثر، إلى القارات المصمتة»، الأشبه بالكتل الصماء. فعندئذٍ يغدو المتوسّط تقليداً للقديم، ويغدو معناه غلبة الماضي ورمزاً لسوء التطوّر.

غداة الحرب العالمية الثانية، يتغيّر زمن العالم، وتتحوّل العلاقات بين فرنسا والمتوسط، وخاصةً على المستويين السياسي والاستراتيجي. وتطرح مسألة زوال الاستعمار بقوة، في الجزائر وفي المغرب وفي تونس، كما في سوريا ولبنان، هذا إذا أغفلنا الصراع الاسرائيلي العربي، وقضية السويس، وعلى نحو خاص اندلاع حرب الجزائر.

فإذ ذاك تبرز في فرنسا تصورات للمتوسّط هي، على المستوى السياسي والاستراتيجي، وثيقة الصلة بهذه الأوضاع الصراعية.

هكذا سيقترح فيليكس غايار (Félix Gaillard)، في أوج حرب الجزائر، في آذار / مارس ١٩٥٨ ، تشكيل لجنة متوسّطية للدفاع :

«لقد آن الأوان أيضاً لكي نعمد، بالشراكة مع البلدان المحاذية للمتوسّط الغربي، إلى تنظيم ذلك المحور، محور الشمال– الجنوب للدفاع المشترك الذي هو استكمال طبيعي وضروري لحلف الأطلسي.»[٢١٢]

إنه مشروع ظرفي يستخدم المرجعية المتوسطية للخروج من العزلة الدبلوماسية التي كانت تعاني فرنسا منها في ذلك الوقت. وكان من المفترض أن يضمّ مشروع الدفاع المشترك ذاك كلاًّ من إسبانيا وإيطاليا والمغرب وتونس. غير أنّ صحيفة الدستور الجديد التونسية، علّقت على هذا الطرح في أحد مقالاتها فكتبت تقول :

«إنّ جمع المتوسّط في كلّ منسجمٍ لهي فكرة ممتازة، ولكن شريطة أن يكون كلّ أعضائه متمتّعين بحقوقٍ وواجباتٍ متماثلة. وإذا كان مشروع غايار لم يبنَ إلاّ لإغراق السمكة الجزائرية، فهو لا يكون مؤسفاً وحسب بل يكون مؤذياً، لأنّه بذلك يفضح نوايا حكومة باريس التي لم يطرأ عليها أي تعديل.»(٢١٣)

حيال التحفّظين التونسي والمغربي اللذين لا يريدان التخلّي عن تضامنهما مع جارهما الجزائري، لن يرى المشروع النور. غير أنه مشروع يستحقّ التوقف عنده لا لأنه ملائم سياسياً، بل لأنّه يكشف عن حقيقة العدّة الذهنية في محاولة توليف مؤسسي قامت بها الدبلوماسية الفرنسية.

«إنّ الصالح المشترك لشعوبنا، وتاريخنا المشترك، والضرورات التي يفرضها علينا العالم الحديث، والجغرافيا نفسها، هذه كلّها مجتمعةً تفرض علينا انتهاج مثل هذه السياسة.»

يختتم فيليكس غايار قائلاً. المتوسّط ما زال جزءاً من «حقيبة العدّة» اللازمة لمشاريع فرنسا الاستراتيجية. فكما يلاحظ معلّق في صحيفة «لوموند»، هو السيّد ألبير موسيه (Albert Mousset)، بشأن علاقات فرنسا مع بلاد الإسلام :

«ما من دولة مهيّأةٍ كفرنسا للعمل، عبر المتوسّط، على قيام صلات تضامن بين هذين العالمين، تستمدّ فرادتها من مفهوم لا رجوع عنه لحقّ الشعوب والمساواة بين الأعراق. فإن نجحت خطّته، يكون فضل السيّد فيليكس غايار أنّه كان أول من أدرك ذلك.»(٢١٤)

ستشكّل حرب الجزائر ميداناً خصباً للتساؤل السياسي والاستراتيجي الفرنسي بشأن المتوسّط. فلدينا على هذا الصعيد، مثلاً، كتاب الأميرال أوفان (Auphan) الذي ألفه عام ١٩٦١، والذي يحدّد فيه موقع فرنسا في المتوسّط بوصفها المنافحة عن الغرب المسيحي :

«لا ينبغي لنا، متذرعين بإقامة علاقات مسالمة – والتاريخ

يبرهن على أنّ مثل هذا الأمر مع الإسلام هو مخاطرة – أن نخاطر بثروةٍ هي أرفعُ مرتبةً بكثير في سلّم القيم : وأقصد بذلك وجود الغرب المسيحي في حدّ ذاته، وهو حجر الزاوية في عالم توصّل لأن يطلق على نفسه صفة الحرّ خشيةَ البوح باسم عماده، على الرغمِ من أنه ما زال موسوماً به في الأعماق.»[٢١٥]

والواقع أنّ تصوّر المتوسّط كما يصوغه الأميرال أوفان ينبني على متغيّر ديني حاسم :

«لم يعد المتوسّط الذي نال منه التشوّه بفعل ضربة السيف التي سدّدها له الإسلام، رابطةً سلمية بين الأمم المحاذية له، بل صار، وسوف يبقى حتّى أيامنا، جبهة حرب.»[٢١٦]

ويجعل رؤيته للخطر راهنة من خلال ما يسميه «قاعدةً ذهبية» :

«إلى اليوم لم يشهد الغرب المسيحي، بما هو شكل حضارة، ومن داخله سوى خصمٍ واحد ذي تكوين ميتافزيقي مختلف، أي غير قابل للتمثّل، هو الإسلام. ومع صعود البولشفية في روسيا، أضيف إلى الأوّل مكوّن آخر معادٍ للغرب ومعادٍ للمسيحية، وهو أيضاً غير قابل للاندماج.»[٢١٧]

هذان العدوان، الإسلام في الجنوب، والانقلاب الشيوعي في الشرق، هما اللذان تواجههما فرنسا في المتوسّط، وخاصّةً من خلال الحرب في الجزائر التي هي، بحسب الأميرال أوفان، «المعقل الأخير».

كان هذا التصوّر لفرنسا في المتوسّط، المبني على فكرة الغرب المسيحي، يتعارض تماماً مع سياسة تقرير المصير الذاتي التي دعا إليها الجنرال ديغول :

«لقد خان بوقاحة تيّار الرأي الذي عيّنه. وبدل أن يوحّد، فرّق؛ الجيش منقسم على نفسه؛ وخطر الحرب الأهلية ماثل؛ والجهاز الإداري للدولة واقعٌ في الحيرة؛ إنّ الحسّ الوطني يضمحلّ؛ وربّما

اقتضى الأمر بنا أن نرجع إلى حقبة الحروب الدينية لكي نرى هذا القدر من الإنقلابات بين الفرنسيين، وهذا القدر من الاغتيالات، والهجمات الإرهابية... أمّا في الجزائر فإنّ السلطة الجديدة لم تجرّب إطلاقاً تطبيق السياسة التي عيّنت من أجل تطبيقها.» [٢١٨]

وسوف يعمد الجنرال ديغول إلى إخراج فرنسا من الجزائر، وسوف يجري انقلاباً قارياً في منحى الاستراتيجية الفرنسية.

«لقد تطوّر الزمن والإمبراطوريات تزول. قد نأسف لذلك، وقد نتألّم حتّى لواقع الحال، ولكن ليس باليدِ حيلة.» [٢١٩]

وبعد العام ١٩٦٢، سوف يتمحور معظم النشاط الفرنسي حول السياسة الفرنسية الألمانية وبناء أوروبا. وبعد تحرّره من «علبة الأشجان»، سوف يتبنّى ديغول سياسةً عالمية يبقي فيها المتوسّط في موقعٍ هامشيّ. لكنّه، طبعاً، سيسرّ إلى بول بالتا (Paul Balta)، الصحافي، آنذاك، في جريدة «لوموند»، قائلاً :

«ألا ترى معي أنّ في الجهة المقابلة من المتوسّط، هناك بلدان نامية. ولكن لديهم أيضاً حضارة، لديهم ثقافة ونزوع إنساني، وحسّ بالعلاقات الإنسانية، نميل نحن إلى فقدانها في مجتمعاتنا الصناعية، وسنكون ذات يوم سعداء بأن نعثر عليها عندهم. نحن وهم، وكلّ بوتائره الخاصّة، وبفضل إمكانياتنا وعبقريتنا، نتقدّم باتجاه بناء مجتمع صناعي. ولكن إذا كنا نريد أن نبني حول هذا المتوسّط – المولّد لحضارات عظمى – حضارةً صناعية لا تمرّ بالنموذج الأميركي ويكون الإنسان فيها هو الغاية والوسيلة، فإذ ذاك ينبغي أن تنفتح ثقافتانا إحداهما على الأخرى.»

غير أن الانعطاف الذي يحققه ديغول لا يتعلّق بالمتوسّط بقدر تعلّقه بموضوع «سياسة فرنسا العربية» التي سيعيد صوغها من الأساس لمناسبة الحرب الإسرائيلية العربية في العام ١٩٦٧.

أمّا جورج بومبيدو (Georges Pompidou) وميشال جوبير (Michel Jobert) فسوف يعاودان، من جهتهما، إطلاق النشاط الفرنسي في المتوسّط. وعندئذ يعود المتوسّط إقليماً ذا أهمية، كما

يلاحظ، بحقّ، جان لاكوتور (Jean Lacouture) :

«هناك على الأرجح، في مطلع العام ١٩٧٠، تجدّد في الاستراتيجية السياسية لفرنسا في المتوسّط، إثر ستّ أو سبع سنوات من الغياب الظاهر. (...) إنّ هذه «العودة» الفرنسية إلى المتوسّط، والتي باتت ملحوظة من طنجة إلى بيروت، تنهي مرحلةً يمكن التأريخ لبدايتها بحرب الجزائر.» (٢٢٠)

ويضيف قائلاً :

«يجب أن ننتظر مطلع العام ١٩٦٦ وانسحاب فرنسا من الهيئات العسكرية للحلف الأطلسي لكي تعود عبارة المتوسّط إلى المحادثات الدبلوماسية في باريس.»

فبمحاولتها التملّص من منطق التكتلات، والتنافس بين الشرق والغرب الذي تتجابه فيه قوّتا الوصاية، أي الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، تسعى فرنسا إلى فرض نفسها كقوة وسيطة وعندئذ تعثر على المتوسّط مجدداً. وعلاوةً على ذلك، بحسب ما يقوله جاك فوفه (Jacques Fauvet) :

«إنّ فرنسا هذه، نفسها، تشعر بأنها، إذا تحقّق ذلك، ذات يوم، فلن تكون أوروبا لا فرنسية، بالطبع، ولا حتّى فرنسية ألمانية كما أَمِلَ الجنرال، بل ستكون، بالتأكيد، ألمانية أكثر منها أوروبية، وبمشاركة بريطانيا أو من دونها. فما الذي يبقى لهذه الفرنسا غير المتوسّط وذلك الجزء من إفريقيا الذي يستكمل امتدادها نحو الجنوب ؟» (٢٢١)

ويؤكّد رئيس الجمهورية، جورج بومبيدو، خلال المناورات التي أجرتها البحرية الوطنية في طولون، هذا التوجّه الاستراتيجي لفرنسا في المتوسّط :

«إنّ المتوسّط لعلى قدر كبير من الأهمية، في نظرنا، وليس ذلك فقط لأن واجهتنا المتوسطية طويلة جداً، بل أيضاً لأن لدينا صلات صداقة وثيقة مع كلّ البلدان المحاذية له تقريباً. فالمتوسّط

بالنسبة لنا هو الطريق باتجاه إفريقيا، وخاصة إفريقيا الشمالية، وبالتالي، فإنّ لفرنسا، ومن الأوجه كافّة، دوراً لتؤديه ومكانةً لتحافظ عليها في المتوسّط.»(٢٢٢)

أما ميشال جوبير، وزير الخارجية آنذاك، فسوف يعلن عن توجّهٍ لهذه السياسة أقرب إلى العرب وإلى النفط، وخاصّة لمناسبة حرب عيد الغفران في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٣. فيصرّح خلال الهجوم السوري المصري قائلاً :

«هل أن محاولة المرء استعادة أرضه تشكّل بالضرورة اعتداءً غير متوقّع ؟»

كما أنه يعارض بشدّة موقف الولايات المتحدة بشأن وكالة الطاقة الدولية. غير أنّ المتوسّط لم يعد الإطار المرجعي، السياسي والاستراتيجي، بل إنّ الحوار الأوروبي العربي هو الذي يفرض نفسه.

وسوف يتابع فاليري جيسكار ديستان (Valéry Giscard d'Estaing) هذا التوجّه المتمحور، في المقام الأوّل، حول البعد الأوروبي العربي، وإن كان يؤكّد مجدداً فكرةَ المتوسّط كبحيرة سلام :

«إنّ هدفي الذي عبّرت عنه مراراً، وخاصّة خلال زيارتي لأثينا، هو أن يكون المتوسّط بحيرة سلام واستقرار. وفرنسا تأمل في أن تشاركها بلدان المتوسّط، بمجموعها، هدفَ تحقيق السلام والاستقرار هذا في المتوسّط.»(٢٢٣)

كما يبدو المتوسّط، في ما يتعلّق بالسياسة الأوروبية، كأفقٍ لإعادة التوازن :

«حتّى العام ١٩٧٤، كانت السياسة الأوروبية تُعنى، في المقام الأول، بمصالح أوروبا الشمالية الشرقية. وكان هذا الخلل يتعارض ومصالح فرنسا وأوروبا لأنّ مركز الثقل في أوروبا يقع في موضعٍ ما عند ضفاف المتوسّط. ولهذا السبب عملت على

تصحيح هذا الخلل.»[٢٢٤]

وسيتمّ توسيع السوق الأوروبية المشتركة لتشمل اليونان، تمهيداً لانضمام إسبانيا والبرتغال.

خلال عهد ميتران (Mitterrand) سوف تشهد المرجعية المتوسّطية، على الصعيدين السياسي والاستراتيجي، تقلّباتٍ عدّة. فمنذ العام ١٩٨٣، وخلال زيارة إلى المغرب، سوف يقترح رئيس الجمهورية فكرة قيام شكلٍ من المؤتمر الدائم :

«بالنسبة لفرنسا، كما بالنسبة لكم أنتم في المغرب، يكتسب المتوسّط (...) أهميةً خاصّة. ليس فقط لأنه مهد حضارتينا ولأنّ على ضفافه، أو في المناطق المحيطة به، قد صيغت وانتشرت معظم الأفكار التي كوّنت ذهنيتينا؛ ليس فقط لأنه كان على الدوام صلة وصل، طريقاً وليس عائقاً، بل أيضاً لأنه، اليوم، عامل جوهريّ في تطوير التبادل فيما بيننا وتطوير أمننا. لطالما وصف بأنه «بحيرة سلام»، وهي تسميةٌ تعبّر عن أمنية بمقدار ما تعبّر عن برنامج. فلنسعَ لأن يترجم هذا التطلّع على نحوٍ مفيد. فاللقاءات بين بلدان هذه المنطقة ما زالت ظرفية، ومتباعدة على نحو لافت.

إني أقترح أن تتعدّد اللقاءات، في البداية بيننا وبين جيراننا المباشرين، على أمل أن تنضمّ إليها بلدان أخرى، من شمال المتوسّط إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه.»[٢٢٥]

ستكون هذه الفكرة منطلق المسار المسمّى «٥ + ٥»، الذي يجمع بلدان الحوض الغربي من المتوسّط في إطارٍ من الشراكة. أما المنتدى المتوسّطي، وهو هيئة تشاور غير رسمية، الذي سينعقد في مرسيليا في شباط / فبراير ١٩٨٨، ثمّ في طنجة في أيار / مايو ١٩٨٩، فسيكون تمهيداً للقاءات ذات طابعٍ رسميّ حول الحوض الغربي للمتوسّط :

«المتوسّط الغربي موجود. ولكن ينبغي أن نعطيه قواماً، وأن نبرز خصوصيته وندعّم هويته.»[٢٢٦]

هذا ما كتبه جاك هونتزينغر (Jacques Huntzinger)، المنشّط الفرنسي لمنتدى المتوسّط ، والمسؤول عن بعثة المتوسّط في وزارة الخارجية. وسوف يوضح، خلال اللقاء الثاني للمنتدى في طنجة، الرؤية الثقافية والسياسية للمتوسّط التي يدعو إليها :

«إنّ الهوية المتوسطية قائمة وموجودة. إنها موجودة كالهوية الشمالية والهوية البلقانية، والهوية المغاربية. وهي تعبّر عن ذاتها من خلال تجميع الدوائر المتقاطعة لانتماءاتنا الثقافية والاجتماعية. نحن جميعاً، هنا وهناك، بلدان الضفتين، متوسطيون. لسنا متوسّطيين وحسب، غير أننا متوسطيون. فالهوية المتوسطية هي أولاً ثقافية. وهذه الهوية المتوسطية هي ملكنا، نحن الأوروبيين الجنوبيين والمغاربة، وهي تخترق انتماءاتنا الأخرى، تخترق انتماءنا إلى أوروبا أو إلى العالم العربي، إلى المسيحية أو إلى الإسلام، إلى العالم المتقدّم أو إلى العالم النامي. لقد نسينا أننا أيضاً متوسطيون ولسنا فقط أطلسيين أو غربيين أو مسلمين عرباً. هناك قرابة ثقافة ونمط حياة، مبنية على النور والكرمة والزيتون والكلمة والإيماءة، لكنها مبنية أيضاً على الحوار والانفتاح والتفكير، وأيضاً على الحساسية والعاطفة والمخيّلة. والمطلوب أن نستعيد وأن نبرز هذه «المتوسطية» الكامنة فينا جميعاً، من أجل صالحِ منطقتنا والمناطق المحيطة بها.

الهوية المتوسطية تغدو جيوسياسية. هناك مساران قائمان مدعوان للالتقاء بغية إرساء أسس تعاون متوسطي : دينامية أوروبا الجنوبية الجديدة، وتحديث المغرب سياسياً واقتصادياً. وإذا تمّ التقاء هذين المسارين المدعوين، على هذا النحو أو ذاك، إلى النموّ، فستنشأ «نواة صلبة» في المتوسط الغربي سيترتّب عليها تعاون متوسّطي موسّع. إنّ أهمية قيام سياسةٍ متوسطية تكمن في بذل كل المستطاع لبناء هذه النواة الصلبة التي سنحتاج إليها لتطوير الأمن في الحوضِ بمجمله، ولبناء علاقات أروروبية مغاربية مثمرة، ولقيام حوار أوروبي عربي مثمر.»[٢٢٧]

هذا النصّ غنيّ جداً بما هو دالٌّ على مختلف المفاصل في صوغ

تصور استراتيجي للمتوسّط من قبل فرنسا. «الهوية المتوسطية تغدو جيوسياسية»، فعلى هذا النحو يكشف هونتزينغر عن التراوح بين البعد الثقافي للخطابات حول المتوسّط وبين البعد السياسي الاستراتيجي. ذلك أن أحدهما يغذي الآخر، غير أنّ الصلة يغلب عليها السياسي بقدرٍ من الوضوح بحيث يبدو البعد الثقافي تابعاً بالكلية، كأنه مجرّد أداة. أما وجه الأهمية الآخر في هذا النصّ، والخاصّ بتصورات المتوسط على الصعيدين السياسي والاستراتيجي، فهو تفسير سيرورة البناء، الجارية آنذاك، حول «نواة صلبة»، أوروبية مغاربية، من شأنها أن تتسع، في مرحلة لاحقة، لتشمل الحوضَ بمجمله. حتّى أنّ هذا التوليف المؤسسي الجغرافي حول المتوسّط يقترح على ذاته غايةً تتمثّل في «بناء حوار أوروبي عربي». ففي هذه المرحلة الانتقالية تختلط النطاقات المرجعية فيما بينها دونما تماسك أو ترتيب.

وسوف يعمد الرئيس ميتران إلى توضيح خطّته في المتوسّط، تدريجاً، وبالتشاور مع شركائه الإيطاليين والأسبان. لذا سيصرّح، خلال انعقاد قمة فرنسية إيطالية، في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٦، حول مبادرة ينبغي أن تتخذ في المتوسّط :

> «الفكرة ليست قديمة جداً لكنها ترقى إلى بضعة أعوام. كان اقتراحاً فرنسيا يقضي بأن تعمد البلدان المحاذية للمتوسّط، إلى تدارس أوضاع هذه المنطقة من العالم. غير أننا كنا كلّما أمعنا النظر يتضح لنا أن هذا المتوسّط لا يمكن أن يُنظَرَ إليه إلا من زاوية نظر المتوسّط الغربي بحيث لا نطرح على أنفسنا أن نكون حكماً أو وسيطاً في سلسلة النزاعات المتتابعة التي يشهدها المتوسّط الشرقي. (...) كان رئيس المجلس الإيطالي يقول لنا، مردداً فكرةَ عزيزة على قلبه : لِمَ لا نستعيد هذا المشروع ؟ وكان يقترح التالي (...) لِمَ لا نتوجّه أيضاً – وهو أمر أراه طبيعياً – إلى يوغوسلافيا ؟ ففي آخر المطاف، ليس المطلوب من هذا التدارس لأوضاع البلدان المتوسطية أن ينغلقَ على ذاته ضمن حدود التحالفات فقط أو ضمن حدود المواجهة بين بلدان الغرب والبلدان العربية القائمة

حول الحوض الغربي للمتوسّط. لِمَ لا نتوجّه إلى مصر؟ فبأية حال، لا نستطيع، في الوقت الراهن، أن نمسّ، ولو بطرف الإصبع، النزاع الذي يباعد بين عدد من بلدان هذه المنطقة. استعرضوها بأنفسكم: لبنان، إسرائيل، سوريا، إلخ...»[٢٢٨]

إنّ التصور الذي صاغه الرئيس للمتوسط يبدو تطورياً. ذلك أن فتح أبواب المسار الذي بوشر به في المتوسط الغربي لكي يضمّ يوغوسلافيا أو مصر، يبدو ممكناً، شريطةَ اجتناب مناطق النزاع الرئيسية.

سوف يحاول الأسبان والإيطاليون توسيع المسار وسيقترحون عقد مؤتمر الأمن والتعاون في المتوسّط (CSCM) على غرار مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا (CSCE). غير أنّ فرنسا لن تقوم بخطواتٍ عملية لمتابعة هذا التصور الأكثر شمولية للمتوسّط. وعلى الرغم من أن الرئيس ميتران سيصرّح خلال مؤتمر الأمن والتعاون المنعقد في باريس في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٠:

«بأنّ بلدان الجنوب – وخاصة جيراننا في المتوسط – يدركون جيداً طبيعة نوايانا. ذلك أنّ نهاية المواجهة في الشمال تفتح آفاقاً جديدة للتعاون وليس العكس.»[٢٢٩]

لكنّه يوضح، في مقابلة نشرتها صحيفة La Vanguardia:

«يجب أن نسعى لكي يتحول حوض المتوسط، من الشرق الأوسط إلى الاطلسي، إلى نطاق واسع من نزعِ السلاح والتعاون. ولذلك فإنّ فرنسا توافق على فكرة عقد مؤتمر للأمن والتعاون في المتوسّط. ولكن، كما سبق وأوضحت في الأمم المتحدة، إنّ هذا العمل الجماعي لا يمكن إلا أن يكون المرحلة الأخيرة من سيرورة يتمّ خلالها تسوية الأزمة في الخليج، ثمّ إيجاد حلّ للمشكلات التي يشهدها الشرق الأوسط: لبنان، والأراضي المحتلة، والعلاقات الإسرائيلية العربية. يتعيّن في البداية أن نخرج من مرحلة التوتّر التي نشهدها حاليا.»[٢٣٠]

إنّ تأجيل قيام مؤتمر الأمن والتعاون في المتوسط إلى

«المرحلة الأخيرة من سيرورة ما» إنما هو طريقة مهذّبة لعدم تأييده. ففرنسا غير مستعدّة لأن تفقد تفوّقها وقدرتها على المبادرة... وبناء تصور شامل للمتوسّط، في مجال التعاون والأمن، يجب أن يبقى، بحسب الرئيس ميتران، رهناً بها.

بيد أن حرب الخليج سوف تغيّر المعطيات. ذلك أنّ مشاعر الغضب المتأجّجة، على الضفّة الجنوبية للمتوسّط، والتي سيثيرها التدخل العسكري للتحالف، ستولّد في أوروبا الحاجة إلى إعادة صوغ شروط المرجعية لعلاقاتها مع جيرانها في الجنوب. وتشعر فرنسا، التي لم تدعَ إلى مؤتمر السلام في الشرق الأوسط المنعقد في مدريد، بأنها مهمّشة. مع أنها تدخلت عسكرياً، بحسب فرنسوا ميتران، «لحفظ مكانتها (...) والاضطلاع بصيرورتها التاريخية» لأنها «ليست بلداً صغيراً (...) ولها كلمتها التي ينبغي أن تقولها» (مؤتمر صحافي في ١٩ كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٠). إذ ذاك يصبح من الضروري أن تتقدّم فرنسا وأوروبا بمبادرة، خاصّة وأن خارطة الاتحاد الأوروبي قد تغيّرت مع إعادة توحيد ألمانيا واحتمالات التوسع باتجاه أوروبا الشرقية. ويدا أن تصحيح التوازن في المتوسّط بات أمراً ملحاً، أو على الأقل بالنسبة لفرنسا وإيطاليا وأسبانيا التي توافقت على ذلك.

ليس غرضنا هنا أن نسرد تفاصيل التجاذبات الدبلوماسية التي شهدتها تلك الحقبة، بل أن نلاحظ نشأةَ تصور جديد للمتوسّط.

الواقع أن الشراكة الأوروبية المتوسطية، على الصعيدين السياسي والاستراتيجي، ستغدو الإطار الملائم لإعلان فرنسا عن سياسةٍ متوسطية. وسوف تتخذ هذه الشراكة شكلاً ملموساً لمناسبة تولي فرنسا رئاسة الاتحاد الأوروبي، خلال الفصل الأول من عام ١٩٩٥. وكما يوضح جاك سانتر (Jacques Santer)، رئيس المجلس، خلال مؤتمر صحافي مشترك مع فرنسوا ميتران، لمناسبة انعقاد الاجتماع الافتتاحي لرئاسة فرنسا للاتحاد الأوروبي، في ١٣ شباط / فبراير ١٩٩٥ في باريس :

«لقد أملَت الرئاسة الفرنسية، تطبيقاً لقرار المجلس الأوروبي في أسين (Essen)، في أن تكون هناك موازاة بين تطوير علاقاتنا مع بلدان شرق أوروبا، ومع بلدان المتوسّط. ولهذا الغرض التزمنا بتكثيف العلاقات مع بلدان المتوسّط هذه. أنتم تعلمون، من دون شك، أنه من المقرر عقد مؤتمر أوروبي متوسطي برئاسة أسبانية. والرئاسة الفرنسية، كما المجلس، حريصة على المشاركة الفاعلة في الإعداد لهذا المؤتمر. وأعتقد، فعلياً، أنه ينبغي لنا أن نحرص على أن يحظى جيراننا، في الجهتين – بلدان شرق أوروبا من جهة وبلدان المتوسط من جهة أخرى – بمعاملةٍ منصفةٍ ومتكافئة من قبلنا.»[٢٣١]

وسوف يعقد المؤتمر التمهيدي للشراكة الأوروبية المتوسطية في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٥ في برشلونه. وسوف يشارك في هذا المؤتمر، وللمرة الأولى في التاريخ، كلّ وزراء خارجية بلدان الاتحاد الأوروبي (البالغة ١٥ بلداً) وكلّ بلدان المتوسط (البالغة ١٢ بلدا) باستثناء ليبيا، الخاضعة لمقاطعة دولية. وسوف يتبنون إعلاناً هو، في الحقيقة، ميثاق عمل مشترك، حدّد الشركاء فيه ثلاثة أهداف :

– قيام نطاق مشترك من السلام والاستقرار

– قيام نطاق من الازدهار لجميع الشركاء عبر إقامة منطقة للتبادل الحرّ وزيادة ملموسة للدعم المالي الذي يقدّمه الاتحاد للشركاء

– تنمية الموارد البشرية، وتشجيع التفاهم بين الثقافات وأشكال التبادل بين المجتمعات المدنية.

وبات النشاط الفرنسي مندرجاً في هذا الإطار، في هذا التصور الأوروبي المتوسطي. طبعاً ما زالت فرنسا تحتفظ باستقلاليتها، غير أنها تعتزم أداء دورها في إطار هذه المجموعة، في إطار هذا «الشكل للعالم».

منذ توليه مهام الرئاسة، سيتقدّم الرئيس الجديد للجمهورية، جاك شيراك (Jacques Chirac) باقتراحٍ خلال زيارته إلى الرباط، في تموز / يوليو ١٩٩٥، يقضي بإقامة «ميثاق استقرار» من أجل المتوسّط. وسيطور مبادرته هذه خلال زيارة إلى القاهرة، في نيسان / إبريل ١٩٩٦، حيث سيلقي خطاباً برنامجاً بعنوان «فرنسا والعالمان العربي والمتوسطي». وبذلك يكون قد تمّ الحفاظ على البعد المزدوج العربي والمتوسطي فيما شكّل هذا الخطاب مؤشراً ممتازاً على أشكال التصورات السياسية والاستراتيجية كما تعبّر عنها رئاسة الدولة.

بدايةً، يحدد الرئيس شيراك الإطار العام لاقتراحه :

«كما سبق وفعلت أمام الكونغرس في الولايات المتحدة بشأن العلاقات عبر الأطلسية، ثمّ في سنغافورة بشأن الشراكة الأوروبية الآسيوية، آمل اليوم، في هذا الصرح الكبير للثقافة العربية، أن أقدّم لكم رؤيتي للعلاقات بين فرنسا وأوروبا، وبين العالم العربي والمتوسّط.»

ويعيد أولاً تحديد السياسة العربية لفرنسا بأنها

«يجب أن تكون بعداً جوهرياً في سياستها الخارجية. وآمل في أن أعطيها زخماً جديداً، في سياق الوفاء للتوجهات التي أرادها راسمها، الجنرال ديغول.»

ثمّ يوسّع إطار هذه السياسة حتّى تشمل أوروبا :

«وتأمل فرنسا في أن تجعل أوروبا بأسرها شريكةً لها في هذه السياسة العربية العظيمة،»

ذلك، في الحقيقة،

«لأنّ الرابط بين العالمين العربي والأوروبي هو وحدة المصالح والمصير.»

وفي الفقرة الأخيرة من خطابه، يبدي رئيس الجمهورية

انفتاحاً على المتوسّط :

«ولكن ينبغي لنا أن نوسّع آفاقنا، أكثر فأكثر. فأنتم تعلمون إنّ فرنسا ومصر تسعيان لخطّة أشمل : بناء متحّد متوسطي. فعلى العكس مما يقال غالباً، المتوسّط هو فكرة جديدة في السياسة. منذ انهيار الإمبراطورية العثمانية وفضاء المتوسط ساحة للتنافس العسكري والتجاري. أما اليوم، ففرنسا ترغب في جعله صلة وصل سياسية. ترغب في جعله طموحاً أساسياً من طموحات الاتحاد الأوروبي. فبعد أن هُدِمَ جدارٌ في الشرق، على أوروبا أن تبني جسراً باتجاه الجنوب. ولهذا الغرض أيدت منذ البداية المبادرة المصرية الداعية إلى إنشاء «المنتدى المتوسطي». ولهذا السبب أيضاً أطلقت فرنسا فكرة المؤتمر الأوروبي المتوسطي الذي انعقد في برشلونه في شهر تشرين الثاني / نوفمبر المنصرم. لقد افتتحت ورشة الفضاء المتوسطي فعلاً. وطموح فرنسا أن تبني شراكة جديدة حول بحر سيستعيد رسالته الفعلية : وهي اللقاء والتبادل والسلام. وينبغي للحضارات الكبرى التي كان المتوسّطِ مهدها، أن تتعلم من جديد كيف السبيل إلى التفاهم فيما بينها. إنّ الفضاء الأوروبي المتوسطي لم يُعطَ لنا. بل يتعيّن علينا أن نبنيه. وبناؤه يستلزمِ قدراً كبيراً من الإرادة والإصرار من قبل الأطراف الفاعلة : دولاً ومؤسسات ومواطنين. الرهان كبير : وهو مستقبل سلام، واستقرار وحرية ضفتينا. والهدف واضح : ردم الصدع، وردم هوة اللاتفاهم، والتباينات سواء كانت ديموغرافية أو اقتصادية أو ثقافية أو سياسية، بين دول وشعوب المنطقة.»

ويخلص الرئيس شيراك إلى القول ختاماً :

«أنتم ترون جيداً أنّ طموحي كبير فيما يتعلّق بهذه الشراكة الأوروبية المتوسطية. ولكن من غير الوارد عندي أن أحدد بمفردي صيغها. إنها مهمتنا المشتركة. وإني لمصغٍ لما تشيرون به ولكلّ اقتراحٍ تتقدمون به.»

في هذا الخطاب البرنامج، تبدو الفضاءات المرجعية متجاورة لكنّها غير مبيّنةٍ فعلياً : سياسة عربية لفرنسا، من المحتمل أن تتوسّع لتشمل أوروبا بأكملها، خطة كبرى لبناء متحد متوسطي،

شراكة أوروبية متوسطية مدعوة لأن تصبح طموحاً أساسياً من طموحات أوروبا. هذا من دون ذكر الصيغ غير المألوفة كمثل «المتوسط هو فكرة جديدة في السياسة»، أو «بعد أن هُدِمَ جدارٌ في الشرق، على أوروبا أن تبني جسراً باتجاه الجنوب»، أو أيضاً: «الفضاء الأوروبي المتوسطي لم يُعطَ لنا. بل يتعيّن علينا أن نبنيه».

إنّ الرؤية السياسية والاستراتيجية للمتوسط التي عبّر عنها رئيس الدولة في خطابه بالقاهرة، يندرج تماماً في سياق رؤية للضفتين.

متوسّط الضفتين

لطالما بقيت فكرة المتوسط فكرة يونانية لاتينية فحسب؛ فكرة ميراث أحادي الجانب نشأت عنها فكرة الضفّة الواحدة. لقد خلّف هذا التصور للمتوسّط أثراً عميق الغور في المتخيّل الفرنسي، وصبغَ، لفترة طويلة، النظرة التي بها نُظِرَ إلى هذه المنطقة. بيد أن نهاية عهد الاستعمار قد رجّحت التعبير عن رؤية جديدة للمتوسط تأخذ، على نحوٍ أفضل، بالاعتبار الضفّة الأخرى. وقد لعبَ لوي غارده (Louis Gardet) وجاك بيرك دوراً بارزاً في التعبير عن تلك النظرة الجديدة التي تلقى على المتوسّط.

لوي غارده هو أحد مؤسسي مجلة «دراسات متوسطية» (Etudes méditerranéenes) التي صدر عددها الأول في صيف ١٩٥٧. في النصّ «التمهيدي» للعدد الأول، نعثر على العناصر الأولى لهذه الرؤية الجديدة للمتوسّط :

> «على الرغم من الأحقاد المتعاظمة في العالم، يبقى من واجب النخبة أن تبقي الحوار مفتوحاً بين الشعوب. (...) وفي هذا الظرف التاريخي الحاسم، تألو دراسات متوسطية على نفسها أن تُسْمِعَ صوت أناسٍ ذوي طوية حسنة، مختصّين بقضايا المتوسّط، سيحاولون، بصرف النظر عن النزاعات الدائرة، أن يقترحوا، في

مناخ من المعارف المتبادلة ولغرضِ التقارب، عدداً من الحلول الإيجابية.

فقط في مناخٍ من المعرفة الأفضل والودّ المتبادل قد تجد النزاعات السياسية حلولاً. لذلك فإنّ دراسات متوسطية تألو على نفسها أن تفرد حيّزاً لا يستهان به من مساحتها للحياة الثقافية للشعوب المحاذية للمتوسط.» (٢٣٢)

يوقّع لوي غارده في هذا العدد الأول مقالةً لافتةً بعنوان: «المتوسّط: حوار وثقافات»، حيث يقيم الصلة بين الميراث اليوناني واللاتيني وبين الميراث اليهودي والمسلم.

«لقد جرى الحديث أحياناً عن «ثقافة متوسطية»، والتعبير، طبعاً، مقبول. ولكن، دعونا لا نخطيء: فما يُقصَد غالباً بذلك، إنما هي الثقافة (الدنيوية) اليونانية اللاتينية، كمصدر للنزعة الإنسانية الغربية في العصر الحديث. من المؤكّد، أن ما من مركزٍ متوسطيّ، سواء كان على الضفة الشمالية أو على الضفة الجنوبية، لم يترسّخ فيه تأثير اليونان القديمة وروما الإمبراطورية.»

ويضيف غارده قائلاً:

«أقول إذاً، من دون تردد، أنه ليس هناك ثقافة متوسطية واحدة، بل هناك ثقافات متوسطية. ولكنّ هذا التعدد نفسه، ينبغي أن يكون، في نظر ذوي الطوية الحسنة، فرصةً للتبادل وللصداقة. فعلى الرغم من تنوّع اللغات المتداولة، هناك وحدة تعبير، منشؤها التأثيرات التاريخية المتماثلة. لا بل أكثر من ذلك، فإنّ الثقافات الدينية السائدة تستمدّ جذورها من خلفيةٍ سامية مشتركة، أو على درجة من القرابة. فليس المطلوب أن ننجز توحيداً مصطنعاً لن يجلب، على المدى القريب أو البعيد، إلا الضغائن والصراعات المولّدة للموت. بل على العكس من ذلك، فالاعتراف بواقع التعقيد الحيوي والتفاعلات الضرورية، هو ما قد يشكّل عامل تفاهم متبادل وعامل ازدهار.»

الحقيقة، بحسب المؤلف،

«أن الفكر الفلسفي الفقهي للإسلام، ومن بعده الفكر الفلسفي اللاهوتي لليهود، قد مدّا جذورهما في هذا اللقاء مع اليونان القديمة.»

ومستنداً إلى تلك اللقاءات العميقة، حول دمشق وبغداد في القرن التاسع، وتوليدو وقرطبة وباليرمو بين القرنين العاشر والثاني عشر، يلاحظ لوي غارده :

«إنّ الثقافتين الإسلامية والمسيحية لضفّتي المتوسّط لن تنعزل إحداهما عن الأخرى إلا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر (التشديد لنا).»

عندها تبدأ رؤية «ضفتي المتوسط» بالتشكّل كنموذج تاريخي. وهي تردّ على النموذج الذي صاغه هنري بيرين لمتوسّطٍ صار منقسماً نهائياً مع مجيء الإسلام.

يعرّف لوي غارده استخداماً آخر للماضي : «الماضي هنا ينبغي أن يكون لنا ضامناً للمستقبل»، ويضيف :

«(...) سيكون من الضروري ألاّ يبقى هذا الضرب من القطيعة بين الشرق والغرب. وعندئذٍ هل كانت التخوم المتوسطية لتشكّل حدوداً مقفلة، أم على العكس، معبراً مفتوحاً وصِلةَ وصل ؟»

سوف يكرّس جاك بيرك جُلَّ أعماله، وحياته كلّها، لتجاوز هذه القطيعة الثقافية. فمما هو أبعد من تجربته الجزائرية، هو الذي كان تلميذاً لفرنان بروديل في ليسيه الجزائر، ومن تحليله الحماسيّ «لنزعِ اليد عن العالم»، سيحاول بيرك أن يعطي شكلاً لرؤية للعالم تتشارك فيها ضفتا المتوسّط.

«الشرق ثانياً» هو أحد محاولاته، خاصّةً أنه ينطلق فيه من استكشاف المسارين الفنيين لبول كلي (Paul Klee) وبيلا بارتوك (Bela Bartok) في تونس ومصر[٢٣٣].

ومنطلقاً من موقعه كأستاذ محاضر في الكوليج دوفرانس،

ومن تحليله للمجتمعات العربية المعاصرة المنتقلة، بحسبه، من «المقدّس إلى التاريخي»، سيحدّد جاك بيرك مشروعاً فكرياً وسياسياً في المتوسط. لذلك، ردّاً على سؤال طرحه عليه جان دانيال (Jean Daniel)

في حديث لمجلة «لونوفيل أُبسرفاتور»، في نيسان / إبريل ١٩٧٨: «أما زلت تؤمن بِقَدَرٍ عربي لفرنسا ؟»

يجيب قائلاً :

«إني أزداد إيماناً بذلك. لقد عقدت العزم على تكريس ما تبقّى لي من طاقة لبناء ولايات متحدة متوسطية تكون قمتاها فرنسا وبعض الدول العربية. كما أعتقد أن العديدين من العرب، وعددهم يفوق بكثير ما يقال، أو ما نعلم، يشاطرونني هذا الرجاء، كما يشاطرونني التزامي هذا.»(٢٣٤)

أما درسه الختامي في الكوليج دوفرانس، عام ١٩٨١، الذي كان بعنوان «أندلسات»، فقد أضفى على مشروعه المتوسطي هذا صياغةً شعريةً، كما أكسبه بعدَه الحضاري :

«أدعو إلى أندلساتٍ مستعادة دوماً من نقطة الابتداء، نحمل منها في أعماقنا، وفي وقتٍ معاً، خرائبها المتراكمة ورجاءها العنيد.»(٢٣٥)

سوف تكون لهذه الصيغة أصداء واسعة في المجال الثقافي الفرنسي. فهي تبلغ ذروة قوتها بجعلها للمتخيّل أرضاً، حلماً أندلسياً يتيح تجاوز القطيعة بين أوروبا والإسلام.

وفي كتابه «الإسلام أمام التحدي»، كان بيرك قد صبغَ بهذا التوجه المتوسطي تحليلَه للإسلام :

««وكذلك جعلناكم أمّةً وسطاً لتكونوا شهداءَ على الناس» (القرآن، ٢: ١٤٣) (...) الوسطية، إذا جاز لنا القول، تصوغ اليوم العالمية. وبات بإمكاننا أن نعيد قراءة هذه الآية على أنها تنيط

بـالإسـلام دورَ الـوصـل بين الـغـرب ومجمـل المجال الإفـريـقـي الآسيوي. ووفقاً للمعنى الاشتقاقي للكلمة، من شأن المتوسّط أن يكون قلبها المكاني. وبأية حال، يمكننا القول بجسارة عن الإسلام العربي إنه يستطيع الآن، بعد أن أطلق زوال الاستعمار المحور الإفريقي الآسيوي، أن يعمل، دون خشية أو ندم، على استخلاص المركّبات التي من شأنها أن تقيم صلة الوصل، كما في عصر أمـويـي سـوريـا والأنـدلس، بين هـذا المحور ومحوره الـيـونـاني الـلاتـيـنـي. فـلـربّـمـا كـانت تلك مـهمّتـه الخاصـة في بنـاء العـالم المقبل.»[٢٣٦]

وفي ختام كتابه «مذكّرات الضفتين»، يعزّز جاك بيرك هذا الوصْل الحضاري الذي لا يكفّ عن الدعوة إليه :

«في الحوض الغربي للمتوسّط، يشاء منطق الأمور، أن تبرز من جديد علاقات علمانية بين الشمال والجنوب، وقد نقّتها المتطلبات الجديدة.

ولن تلقى فرنسا أي ترحيب إذا شاءت أن تقيم في هذا المجال المستعيد صباه، ثنائياتٍ حصرية ما زالت مرهونة للماضي. فلا يمكن لبناء فريد أن ينبثقَ إلاّ من صلب أشكال التضامن الموسّعة. مجال يوناني من جهة، ومجال عربي إسلامي من الجهة الأخرى، ربّـمـا كـان الـعـنصـر المفـقـود بين المجالين هـو عـلامـات المتـحد. وتُعوِزه بخاصّة تلك الإرادة المطلقة المجددة.»[٢٣٧]

«البناء الفريد» الذي يدعو جاك بيرك إلى قيامه، هو، في المقام الأول، ثقافي :

«لم يعد المتوسّط مركز العالم. لقد كفّ عن كونه مركز العالم، ربّما غداة معركة ليبانت (Lépante)، ولم يستعد هذه الصفة إطلاقاً. لا بل أكثر من ذلك، لقد كفّ عن أن كونه شيئاً في حدّ ذاته، ربّما لأنّه لم يؤمن، كفايةً، بذاته. لِمَ هذا التخلّي ؟ لِمَ لا يوجد حول المتوسّط وعبر المتوسّط، تكوّنٌ، لن أقول لجسم اقتصادي اجتماعي على هذا القدر أو ذاك من الاختلاط، كما هي الحال في أوروبا، بل أقولُ لكيانٍ من نمطٍ ما يمكننا أن نسمّيه، إذ تُعوِزنا تسمية أخرى،

بالكيان الثقافي.»[٢٣٨]

علـى الرغمِ مـن دعوتـه إلى الأصـالـة وإلى احترام الـهـويّـات الثقافية، فإنّ جاك بيرك يستنكر بشدّة كلّ الميول الماضوية. فهو يدعو إلى

«اشتراكية متوسطية. لا بل أقول حتّى إلى اشتراكية إسلامية متوسطية، حيث يتوحّد أو يتقاطع، من دون أن تمحى الصراعات الضرورية والجولات الضرورية، بل في العَنيِ المشترك والمتبادل، إسلامُ تقدُّمٍ واشتراكية اختلاف. وبما أنّ الميثولوجيا ما زالت حيّة فينا، نحن الأوروبيين غير القابلين للإصلاح، ما أن نطأ جزيرةً يونانية، فينبغي للمتوسّط أن يكفّ عن كونه تلك الأوريديس التي فقدتها شعوب المتوسّط إلى الأبد. لذلك ما عاد ينبغي لهذه الشعوب أن تلتفت إلى الوراء فالجحيم هو الالتفات إلى الوراء ذلك أن اللقاء بأوريديس لن يحظى بفرصة التحقّق إلاّ قُدُماً وإلى الأمام.»[٢٣٩]

هذا الرفض للنزعة الماضوية، يزداد وضوحاً في سياق مقابلة أجريت معه :

«(...) إنّ معظم الناس الذين نسمعهم يتحدّثون عن الجذور وعن الأصالة يخلطون ما بين هذه وبين الماضوية. وهذا ما يفعله حالياً، لكي لا نذهب بعيداً، الإمام الخميني في إيران. فهو يرى أنّ إحياء جذور الإسلام، وتطبيق شريعة الأصول، يتمثلان بالعودة إلى تطبيقات يحسب أنها تلك التي كانت مطبقة في القرن السابع من عصرنا هذا. والحال إني أرى ليس فقط أن الأصالة لا تتطابق مع الأركيولوجيا، بل تشتمل على ذلك العبور الضروري، على تلك الخطوة، أو الأحرى ممرّ النار ذاك الذي هو الحداثة. (...) هناك أمر أستبعده بأية حال : الأصالة لا تكمن في العودة إلى عصور ذهبية مزعومة، سواء كانت «إسلام الأصوليين الحق»، أو الملكية بحسبِ موراّ (Maurras) !»[٢٤٠]

يقول بيرك إنه يدعو إلى يوتوبيا متوسّطية، غير أن رؤيته لا تمتّ بصلةٍ إلى الحلمِ الإيريني الذي لا يتحقّق :

«ذلك أن المتوسّط ليس انسجاماً فقط بل هو نزاعٌ أيضاً. مفردتان يونانيتان لهما الوقع نفسه تقريباً، Eris/Eros ، تعبّران عن هوى الصراع وشغف الحب. وهما المعنيان الشائعان على ضفافنا هذه. فالمتوسّط هو القادر، وعلى نحو حاسم، على إحلال الحلمِ في الواقع، وليس العكس.» (٢٤١)

بول بالتا (Paul Balta)، ابن الإسكندرية، الذي عمل لفترة طويلة كصحافي في جريدة «لوموند»، والمتخصّص بقضايا المتوسّط، قد بذل، هو أيضاً، الكثير لكي يضفي شكلاً على متوسّط الضفتين الذي يضمّ إليه مجمل مكوّنات هذه الفسيفساء الثقافية المتوسطية.

«مشغوفاً بهذا المتوسط، شاعراً بأني بين ناسي لدى كلّ شعبٍ من شعوبه بمزاياه وسيئاته، لطالما أردت أن أكون صلة وصلٍ بين الضفتين.» (٢٤٢)

لقد كتب بول بالتا، بصورة خاصة، عن «السياسة العربية لفرنسا» وأشرف على «إعادة اختراع المتوسّط»، وهو مؤلّف جماعي أنجز بالاشتراك مع «مؤسسة رينيه سايدو الوقفية» (Fondation René Seydoux) ، حيث تمّ التطرّق إلى مفهوم «متوسّط الضفتين» بإسهاب.

في حوارٍ نشرته مجلة « Le Trimestre du Monde»، واختارت له عنواناً معبّراً «أورومتوسّط، جغرافيا سياسية جديدة»، يحدّد بول بالتا رؤيته للمتوسّط :

«منذ أن وجدَ هذا البحر وهو منطقة مواجهة ومنعطف لأنواع التبادل. إنه بحر كل الهجرات، وكلّ سياقات التهجين – على الرغم من أشكال الانتساب القوي للهوية – ويجب ألا ننسى أنه أيضاً مولّد هائل للحضارات. فحضارتنا تقوم على ميراث ثلاثي : يوناني روماني (خضع لتأثير مصر والشرق)، ويهودي مسيحي، وميراث آخر نميل إلى إغفاله هو الميراث العربي الإسلامي ! فمن دون إسهام الحضارة العربية لما كانت النهضة الأوروبية ما كانت

عليه؛ ومن دون فلسفة الأنوار والثورة الصناعية لما كانت النهضة العربية في القرن التاسع عشر.

أذكّر بكل هذا لأنّ لا وجود لاستشراف المستقبل من دون استعادة للماضي، ولأن الكثيرين من أصحاب القرار يتصرّفون وكأن التاريخ لم يبرهن، بما فيه الكفاية، على أن مصائر الضفتين لطالما كانت مترابطةً في السرّاء كما في الضرّاء.»[٢٤٣]

كما أسهم بول بالتا، بفعالية، في تعزيز البعد الثقافي للشراكة الأوروبية المتوسطية. ففي النص التمهيدي الذي ألقاه بوصفه رئيس إحدى جلسات المنتدى حول الحوار الثقافي، خلال انعقاد المنتدى المدني الأول «أوروميد» في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٥ في برشلونه، يشير بول بالتا إلى :

«أن شعلة الحضارة لم تكفّ عن الانتقال من ضفّةٍ إلى أخرى. (...) فالمتوسّط غني بسياقات التهجين الثقافي بحيث أن كلاً من ضفافه – الشمالية والجنوبية والشرقية – إنما تسهم، من خلال حفاظها على تراث الآخر، في الحفاظ على تراثها الخاص، وتضمن بذلك ما أسميته، في إعادة اختراع المتوسّط، «مستقبل الماضي».»

إدغار بيزاني، أحد الوزراء السابقين في عهد الجنرال ديغول، والمفوض الأوروبي، والمستشار في الأليزيه، ورئيس معهد العالم العربي بين ١٩٨٩ و ١٩٩٥، أسهم، هو أيضاً، بفكره ونشاطه، في تحديد متوسط الضفتين. إذ يعمد بيزاني في تقديمه لـ «الأورومتوسّط، منطقة برسم البناء»[٢٤٤]، إلى تلخيص رؤيته للمتوسط، لمناسبة إعلان الشراكة :

«إنه ليكون من الخطأ الظنّ بأن عبارة «أورومتوسط» هي تعبير عن الواقع المرتجى. ذلك أن أوروبا هي قارة وهي كلّ سياسي قيد التشكّل، أما المتوسط فهو بحر. والحال أن المقصود هو انصهار ثلاث قارات متوسطية، لكلٍّ منها وظيفتها الخاصة، ولا غنى عن أي منها لمستقبل الكلّ المتوسطي الجامع، بما فيه الخليج.

وليكون من الخطر بمكان أن يُعمَدَ، على سبيل المحاكاة العمياء

أو استلهاماً لحلمٍ جامحٍ، إلى بناءِ مركّب اقتصاديّ سياسي على غرار النمط المتنامي في أوروبا، انطلاقاً من عددٍ من الواقعات المتفرّقة المحيطة بالمتوسّط. إن البلدان التي ستكون حاضرة هنا، في برشلونة، وتلك التي قد تنضمّ إليها، لن تشكّل على الإطلاق واقعاً يضاهي تلك الدولة المكافئة المرجوة. ففي عالمٍ ينبني بخطى وئيدة وفق مناطق شاسعة من الضبط الما دون كوكبي، لن يكون المتوسّط منطقةً على الإطلاق. حتّى لو أصبح منطقة تداخل، ساحةً للتوترات المضبوطة، حيث تعثر المشكلات الأكثر تعقيداً على حلولٍ لها، وحيث يُصنَع التاريخ : مسالماً أو صراعياً وفق الطريقة التي ينظر فيها للذات ووفق أسلوب العمل. ذلك أن في الخلفية هناك سوء الفهم الثقافي، والذكريات المريرة، والأحلام المتعارضة، ونظريات نشأة الكون المختلفة، وأحياناً الازدراء وما يستتبعه من حقد. ينبغي إيجاد شروط التبادل التجاري، وشروط حرية انتقال الناس، ولكن أيضاً ينبغي الانهمام بالتواصل، والبحث المشترك، ومقابلة الرؤى المختلفة للعالم، والتدوين المتماثل للتاريخ المتناقض الذي عاشته هذه الشعوب والذي يكتبه اليوم كلّ شعبٍ على هواه، والتخطيط لمشاريع مشتركة، وربّما، غداً، لأحلام متممة. ليس المقصود أن نقول إنّ المتوسّط هو، أولاً وآخراً، ثقافة، ولكن أن نقول، بمواجهة الفكر السائد، إنّ السوق ليس كلّ شيء وأنه أحياناً ليس شيئاً إن لم يُتَمَّ التبادل الثقافي.»(٢٤٥)

إدغار موران (Edgar Morin) الذي حدّد لنفسه غايةً هي «التفكير في أوروبا»، انصرفَ أيضاً إلى «التفكير في المتوسّط»، كمشروعٍ متمّم، لأن «المتوسط يستطيع، لا بل من واجبه، أن يمنع أوروبا من الإنغلاق على نفسها» ، لاحظ موران غداةَ سقوط جدار برلين. فالواقع أن إدغار موران يرى

«أن صحوة الوعي المتوسطي تفرض نفسها ليس عبر استبعاد الانتماء إلى أشكالٍ أخرى من التضامن، بل عبر التداخل الجدلي بين التضامن المتوسّطي وبين أشكال التضامن الأخرى. فالمتوسطيون هم، بحسب نزوعهم التاريخي، أهل اتصال، وأهل التنوع المعقّد. لم يعد المتوسّط مركز العالم، غير أنه ينبغي أن يغدو

بحيرةً آمنة في العصر الكوكبي. فليس من قبيل الغطرسة أو من قبيل المغامرة الاستعمارية، بل من قبيل الميل الإنساني رجاؤنا أن يتلقّح باقي العالم بأفضل ما في الثقافة المتوسطية.» (٢٤٦)

إنّ الوصل الذي يقترحه إدغار موران بين أوروبا والمتوسّط، يستجيب لهاجسٍ جيوثقافي :

«ذلك أن بناء أوروبا سياسية وثقافية، بما يتجاوز الاقتصاد، يعني نموّ أوروبا التنوّع حيث الجزء المتوسطي تكون له خصوصيته واستقلاله الذاتي. ذلك أن معنيي أوروبا والمتوسّط هما معنيان متداخلان : فالثاني ليس حدود الأول. لن نتمكّن من استعادة المتوسّط إلا إذا أقلعنا عن النظر إليه كحدود وإلا إذا اعتبرناه ملكاً مشتركاً وموصِلاً كبيراً.» (٢٤٧)

ثمّ يضيف موران لمحةً إرادوية إلى تفكيره حول المتوسّط :

«لقد لعبت الانتلجنسيا، في تاريخ القرنين المنصرم والحالي، دوراً حاسماً في صحوات الهويات المشتركة. وجاء اليوم دور المثقفين المتوسطيين لأن يدعوا وينافحوا ويبرزوا الوعي والهوية المتوسطيين. ومن هنا الحاجة إلى اتحادٍ يتخطى القوميات للمثقفين المتوسطيين.» (٢٤٨)

أما سامي نايير (Sami Naïr) فيشير إلى «خلاف المتوسّط» (٢٤٩) :

«لم يكن المتوسّط، في يومٍ، موحداً. قرطاجه وروما، مسيحية وإسلام، رأسمالية وتخلّف، واليوم، شمال – جنوب : لطالما كان الرهان قائماً والنزاعات محتدمة. خطوط الصدعِ معروفة : اقتصادية، اجتماعية، ديموغرافية، وسياسية أيضاً. ولكن غالباً ما يسود الميل لإغفال التعارضات الثقافية، مع أنها حاسمة وتستخدم سنداً لأشكال التقوقع والمعارضات المضمرة. مما لا شكّ فيه أنّ مستقبل المجال المتوسّطي هو للتعدّد الثقافي، والاختلاط، وتشابك الحساسيات. غير أنّ هذه التقاطعات تجري في سياق محدّد : ليس في سياق حوار الحضارات بل في سياق الجَبْلِ، والارتطام، وتصادم سمات ثقافية متمايزة في صلبِ نسيج

حضاري أشمل، يكتنفها ويعطيها مكانتها ومعناها. هذا النسيج هو الحضارة الغربية. فهذه أصبحت عالمية وباتت الثقافات محلية. طبعاً هناك ثقافات ألمانية وفرنسية وإيطالية وأسبانية ومغاربية ومصرية، – لكنّها جميعها تنتشر في سياق الحضارة الغربية – الحضارة الموحدة، الناظمة، المشيّئة. مما لا شك فيه أن الثقافات تحدّد الشخصيات الجمعية والفردية المتعيّنة – أما الحضارة المادية للرأسمالية، فهي تشمل أنساق الأشياء، وأساليب الفعل، وفي آخر الأمر، الإجراءات المؤسسية. وينشب نزاع عندما يطرأ انقطاع بين الحضارة وثقافاتها. وهذا ما يحصل في المحيط المتوسّطي. فالحضارة المعاصرة في المتوسّط هي غربية، ومتجهة بمجملها نحو الغرب. أما ثقافات المتوسط، فهي، من جهتها، متنوّعة، موزّعة بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، أي بين شرقٍ وغرب. فالنزاع بين شمال المتوسّط وجنوبه ليس إذاً نزاعاً حضارياً، بل هو نزاع ثقافي ضمن حضارة مشتركة : فالضفتان تنتميان إلى الحضارة المادية الرأسمالية، طبعاً المتفاوتة في ازدهارها بين مكان وآخر، ولكن المهيمنة على المتوسّط ككلّ. إن عالم الأشياء المنتجة، والسلع المتداولة، ينتشر فيه من دون عوائق والتعايش الثقافي يدعّم، كل يوم، بواسطة تلك الطاقة الموحِّدة الاستثنائية لوسائل الإعلام الجماهيرية الكبرى. والحاصل : أن السلوكات الجمعية تميل، أكثر فأكثر، لأن تكون واحدةً بين الضفتين. لكنّ المشكلة تكمن في هذه المفارقة : فإذا كانت ثقافة الشمال توطّد جذورها في وتصدر عن الحضارة المادية للرأسمالية، فإن ثقافة الجنوب، ثقافة الإسلام، تصدر، هي، عن انقطاعٍ وعدم تكيّفٍ مع هذه الحضارة، وذلك خاصة بسبب لا تكافؤ النموّ التاريخي وبسبب أشكال السيطرة الأوروبية على جنوب المتوسّط.»

في تصوّره يبدو المجال المتوسّطي «نطاق تفاضلٍ» أكثر منه نطاق «تضافر ثقافي». ولكن برغم تحفظاته، يدعو سامي نايير إلى بناء مشروع مشترك بين ضفّتي المتوسّط :

«المتوسّط سوف يحيا عندما يعي المتوسطيون بأنفسهم، أخيراً، التباينات والنزاعات التي تباعد فيما بينهم وعندما يجدون

معاً الوسائل الملائمة لتجاوزها.»

مبادرات كثيرة، وعدد كبير من الفاعلين، والوسطاء الثقافيين، والمجلات (Méditerranée, Méditerranéennes, Rive... Peuples Méditerranéens, Quantara, Confluences)، والمتخصصين (ب. أتيان، ج.ر. هنري، ج.ب. شانيولو، ب. رافنيل) أو غير المتخصصين (أ. جاكار، أ. دوليبيرا)، سوف يسعون، خلال التسعينات من القرن العشرين، أن يضفوا شكلاً على متوسّط الضفتين.

إنّ تصوراً جديداً للمتوسّط الذي يتخذ صورة الجسر لا صورة الجدار، تتضح كأفقٍ محتمل لمعنى. غير أنّ هذا التصوّر المنفتح لفرنسا في المتوسّط لا يمحو، مع ذلك، كل محاولات الإنطواء.

ذلك أن متخيّل الخوف، والخطاب الذي يتناول ما يمثله الجنوب من تهديد ويتناول مخاطر الغزو، ينميان الدعوات إلى الإنطواء على الهوية الفرنسية باسم «ثقافة راسخة» ليس فيها أي مكان للمتوسّط. وسواء كان إقليم التهجين الممكن، أو مثال الحاضرة الكوسموبوليتية، فإن المتوسّط يجسّد في وقتٍ معاً خطر الاختلاط وخطر الانتماء المفتوح. وهذا كثير في نظر حراس الحدود الثقافية الفرنسية التي سبق وتآكلت جراء الاتحاد الأوروبي، والذين لا يرون في المتوسّط سوى مكانٍ لانحلالٍ إضافي.

لا يبدو أن زمن المواجهات، وموازين القوة الرمزية على أرض الانتماءات وتباينات أنسابنا الثقافية، موشكٌ على الانقضاء. فأوروبا والمتوسّط هما في وقتٍ معاً قطب وموشور هذه المعارك الحالية والمقبلة.

الحواشي

(١) Lucette Valensi, Venise et la Sublime Porte, la naissance du despote, Hachette, باريس، ١٩٨٧، ص ٩ ;

(٢) باريس، ١٩٧٧، Gilles Deleuse, Nietzsche et la philosophie, PUF، ص ٣ ؛ أنظر الترجمة العربية : جيل دولوز، «نيتشه والفلسفة»، ترجمة أسامه الحاج، منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢ ٢٠٠١ ؛

(٣) Michel Foucault, L'archéologie du savoir, Gallimard, باريس، ١٩٦٩، ص ٦٥ ؛ أنظر الترجمة العربية : ميشال فوكو، «حفريات المعرفة»، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ط٢ ١٩٨٧ ؛ ص ٤٦ ؛

(٤) Paul Ricoeur, Soi-même comme un autre, Point Seuil، باريس، ١٩٩٦، ص ١٣٨ ؛

(٥) Gilles Deuleuse, Pourparlers. 1972-1990, Minuit، باريس، ١٩٩٠، ص ٩٣ ؛

(٦) Roger Chartier, Au bord de la falaise, l'histoire entre certitudes et inquiétude, Albin Michel, باريس، ١٩٩٨، ص ١٢ ;

(٧) Alain Joxe, L'Amérique mercenaire, Stock, باريس، ١٩٩٢، ص ١٠٨ – ١٠٩ ؛

(٨) Frédéric Godefroy, Dictionnaire de l'Ancienne Langue Française du IXème au XVème siècle, Slatkine, جنيف، باريس، ١٩٨٢، ج٥، ;

(٩) كما ذكر في Edmond Huguet, Didier, باريس، ١٩٦١ ؛

(١٠) Le Dictionnaire Universel d'Antoine Furetière, 1690, SNL, Le Robert باريس، ١٩٧٨ ؛

(١١) Journal de Trévoux ou Mémoires pour Servir à l'Histoire des Sciences et des Arts, Slatkine, ١٩٦٨ ،طبعة ثانية، جنيف ;

(١٢) L'Encyclopédie, ou Dictionnaire Raisonné des Sciences, des Arts et des Métiers Par une Société de Gens de Lettres, Chez Samuel Faulche, A Neufchastel-MDCCLXV, ١٧٨٠ –١٧٥١ طبعة مصوّرة ;

(١٣) Maurice Grevisse, Le Bon Usage, Editions J. Duculot, S.A., Gembloux, بلجيكا، ١٩٧٥، ص ١٨٦ ؛

(١٤) Alain Rey, Dictionnaire Historique de la Langue Française, le Robert, باريس، ١٩٩٢، ص ١٣٢٨ ؛

(١٥) Michel de Certeau, Arts de Faire, ج١، باريس، ١٨/١٠، ١٩٨٠ ص ٨٥ . نفسه ص ٨٦ – ٨٧ ، هذه «الخاصّة» هي، بحسب ميشال دوسيرتو، العنصر الممهّد لتدبير استراتيجيةٍ، وهو يميّز، بوضوح، بينها وبين التكتيك : «... أسمّي تكتيكاً كل عملٍ مدروس يحدّده انعدام خاصّة. (...) التكتيك لا مكان له سوى مكان الآخر. كما يتعين عليه أن يتصرّف بحسب الأرض التي فرضت عليه كما نظّمتها قوة غريبة. لا يملك التكتيك وسائل الصمود من ذاته، ومن بعد، وفي موقع الانكفاء، والترقّب، واستجماع ذاته : إنه حركة «داخل مرمى العدو»، كما قال فون بولو (von Bulow)، وفي الحيّز الذي يخضع لمراقبته. إنّه إذاً لا يمتلك إمكانية التزود بخطّة شاملة ولا إمكانية حصر العدو في حيّز متعيّن، مرئيّ وقابل للتوضيع. التكتيك يكتفي بالخطوة تلو الخطوة. ينتهز «السوانح» ويرتهن لها، من دون قاعدة لتخزين المغانم، وزيادة خاصّة والإعداد لمخارجٍ محتملة. ما يغنمه لا يحفظ. إنّ اللامكان من شأنه، من دون شك، أن يوفر له القدرة على الحركة، غير أنها مرونة مرتهنة لتقلبات الزمان، لاقتناص الاحتمالات التي توفّرها لحظة. (...). باختصار، إنه ، فنّ الضعفاء».

(١٦) Maurice Grevisse، المرجع نفسه ، ص ١٨٧ ؛

(١٧) مذكّرة موجّهة إلى «الإدارة» (Directoire) من قبل تاليران (Talleyrand) حول السياسة الخارجية للجمهورية، في ١٠ تموز/يوليو ١٧٩٨ ، مثبتة في : G. Pallain, Le Ministère de Talleyrand sous le Directoire ، باريس، ١٨٩١، ص ٢٩٤، ٣٣٩ ؛

(١٨) Talleyrand Périgord, Mémoires, 1, 1754-1807, Plon، باريس، ١٩٥٧، ص ٧٢–٧٣ ؛

(١٩) وردت في Henri Laurens, L'expédition d'Egypte 1798 - 1801 Point Seuil, ١٩٩٧، ص٣٦، هامش ص ٤٧٩ ؛ أنظر الترجمة العربية : هنري لورنس، «الحملة الفرنسية في مصر، بونابرت والإسلام»، ترجمة بشير السباعي، سيناء للنشر، القاهرة، ١٩٩٥ ؛

(٢٠) François Charles-Roux, Les origines de l'"expédition d'Egypte", Plon, باريس، ١٩١٠، ص ٣٥١ ;

(٢١) Emma c. Spary, "L'invention de l'"expédition scientifique". L'histoire naturelle, Bonaparte et l'Egypte", In L'invention scientifique de la Méditerranée, Ed. de l'EHESS, باريس، ١٩٩٨، ص ١٢٧؛

(٢٢) أنظر خاصة أطروحة Philippe Bénéton "Histoire de mots: culture et civilisation" Travaux et recherches de sciences politiques, عدد ٣٥، باريس، ١٩٧٥ ;

(٢٣) مذكور في : Anouar Louca, "Les contacts culturels de l'Egypte avec l'Occident", في L'Egypte d'Aujourd'hui Permanence et Changements 1805-1976, Ed. CNRS, باريس، ١٩٧٧، ص ١٢٤ ;

(٢٤) Henri Laurens, Le royaume impossible, La France et la genèse du monde arabe, Armand Colin, باريس، ١٩٩٠، ص ١٦ : أنظر الترجمة العربية : هنري لورنس، «المملكة المستحيلة، فرنسا وتكوّن العالم العربي الحديث»، ترجمة بشير السباعي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٧ ؛

(٢٥) Michel Chevalier, Système de la Méditerranée ; باريس، ١٨٣٢، ص ١٢٤ ؛

(٢٦) نفسه، ص ١٢٦ ؛

(٢٧) نفسه، ص ١٢٦ ؛

(٢٨) نفسه، ص١٣٠ ؛

(٢٩) نفسه، ص ١٣١ ؛

(٣٠) نفسه، ص١٣١ ؛

(٣١) نفسه، ص١٣٣ ؛

(٣٢) Emile Barrault, Occident et Orient, Etudes Politiques, Morales, Religieuses pendant 1833-1834 de l'ère chrétienne, 1249-1250 de l'hégire, Dessart éditeur, ١٨٣٥ ،باريس ;

(٣٣) نفسه، ص ٢٤٠–٢٤١ ؛

(٣٤) نفسه، ص ٢٤٣ ؛

(٣٥) نفسه، ص ٢٤٤ ؛

(٣٦) نفسه، ص ٢٤٩ – ٢٥٠ ؛

(٣٧) نفسه، ص ٢٥١ ؛

(٣٨) نفسه، ص ٢٥٣ ؛

(٣٩) نفسه، ص ٢٥٣ – ٢٥٤ ؛

(٤٠) نفسه، ص ١٢٦ «... وتلك الحسناء، المتوفّاة المحتفظة برونقها في قسماتها الجامدة التي جعلها بايرون خليلة أوروبا، ليست هي اليونان وحدها، بل هي الشرق بأسره. وأن تجود يد أوروبا بسخاء، أمر لن يفقرها. إنّ سماء الشرق وأرضه لم تنضبا بعد من الإلهام، وكثير من الوحي المستجدّ ينتظر فيها من سيأتون لكي يعطوا، ولسوف يذهلهم ما سيتلقونه بالمقابل. ليس على أوروبا فقط أن تسعى لجعل الشرق على صورتها، بل ينبغي أن تسعى لجعل نفسها على صورة الشرق. فعلى هذا النحو يُمَهّد للانسجام بين الشرق والغرب. ولكن على أوروبا أن تحزم أمرها بسرعة ! فالشرق بأسره يعاني، في أرضه وشعوبه، فيما أوروبا اكتفت إلى اليوم بتلقينه فنون الحرب : فإلى متى ستبقى مشتعلة فتائل المدافع المعبّأة ! الشرق يحتاج إلى السلام».

(٤١) مذكور في :
Philippe Régnier, "Le mythe oriental des Saint-Simoniens", في Les Saint-Simoniens et l'Orient, vers la modernité, Edit sud, إكس أن بروفانس، ص ٣٥ ؛

(٤٢) نفسه، ص ٣٨ ؛

(٤٣) Père Enfantin, La colonisation de l'Algérie، باريس، ١٨٤٣ ؛

(٤٤) نفسه، ص ٣٣ ؛

(٤٥) نفسه، ص ٤٢ ؛

(٤٦) نفسه، ص ٤٥٨– ٤٥٩ ؛

(٤٧) نفسه، ص ٥٠١ ؛

(٤٨) L'invention de la Méditerranée, بإشراف Marie-Noelle Bourguet, Bernard Lepetit, Daniel Nordman, Maroula Sinarellis, Ed. de l'EHESS, باريس، ١٩٩٨، ص ٣٢٨ ;

(٤٩) المرجع المذكور، ص ٣٠١ ؛

(٥٠) نفسه، ص ٣٠٣–٣٠٤ ؛

(٥١) نفسه، ص ٣٠٤ ؛

(٥٢) نفسه، ص ٣٠٤ ؛

(٥٣) نفسه، ص ٣٠٧ ؛

(٥٤) Marie-Noelle Bourguet , "De la Méditerranée", في L'invention scientifique de la Méditerranée, في المرجع المذكور، ص٤ ;

(٥٥) Serge Briffaud, "L'expédition scientifique de Morée et le paysage méditerranéen" في L'invention scientifique de la Méditerranée, المرجع المذكور، ص ٢٩٦ ;

(٥٦) مذكور في Jean Marc Drouin, la Géographie Botanique, المرجع المذكور، ص ١٥٦؛

(٥٧) نفسه، ص ١٥٢؛

(٥٨) ماري نويل بورغيه، المرجع المذكور، ص٢٧؛

(٥٩) Lucien Poirier, Le Chantier stratégique, entretiens avec Gérard Chaliand, Hachette, Pluriel, باريس، ١٩٩٧، ص ٢٣ ;

(٦٠) Dictionnaire Universel de Géographie Moderne, par A.Perrot et Aragon, Chez Edme et Alexandre Picard, Libraires, باريس ١٨٤٣، ص ١٨٠؛

(٦١) نفسه ؛

(٦٢) Elisée Reclus, Nouvelle Géographie Universelle, la Terre et les Hommes, l'Europe Méridionale, Hachette, باريس، ١٨٨٧، ص ٣٤ ;

(٦٣) نفسه، ص٣٤ ؛

(٦٤) نفسه، ص٣٤ ؛

(٦٥) نفسه، ص٣٥ ؛

(٦٦) Anne Ruel, L'Invention de la Méditerranée, XXème، عدد٣٢، تشرين الأول – كانون الأول، ١٩٩١ ، ص ٩ ؛

(٦٧) Géographie Universelle, sous la direction de P. Vidal de la Blache et L. Gallois, Librairie Armand Colin, باريس، ١٩٣٤، ص٢٣٤ ;

(٦٨) المرجع المذكور، ص١ ؛

(٦٩) نفسه، ص٥٤ ؛

(٧٠) نفسه ؛

(٧١) نفسه، ص٢ ؛

(٧٢) Alain Corbin, Le Territoire du vide, L'Occident et le désir de rivage, 1750-1840, Champs, Flammarion, باريس، ١٩٩٠، ص ٤٠٨ ;

(٧٣) Vues des Côtes de France dans l'Océan et dans la Méditerranée, peintes et gravures par Louis Garneray, décrites par M. E. Jouy, de l'Académie Française, Panckoucke, باريس، ١٨٢٣ ;

(٧٤) Louis Enault, La Méditerranée, ses îles et ses bords, Morizot, Libraire - éditeur, باريس، ١٨٦٢ ;

(٧٥) نفسه، ص١ ؛

(٧٦) نفسه، ص٣ ؛

(٧٧) نفسه، ص٥ ؛

(٧٨) نفسه، ص٧ ؛

(٧٩) أنظر مثلاً : Dr. Bonnet, La Méditerranée ; la Rivière de Gênes et Menton comme climats d'hiver et de printemps, باريس, ١٨٨٠ ; Gabriel Charmes, Les stations d'hiver de la Méditerranée, باريس, ١٨٨٥ ; Mars Alban, Aux Rives d'or. Le littoral méditerranéen de Marseille à Gênes, باريس, ١٨٨٨ ; Dr. Marius Bernard, Autour de la Méditerranée, باريس، ١٨٩٢–١٨٩٩ ; Pierre Jay, Le Chemin de la Méditerranée, باريس، ١٨٩٧ ; A. Sallès, De Constantinople à Corfou. Promenade à travers la Méditerranée, باريس، ١٨٩٤ ; Pierre Loubeau, La Méditerranée pittoresque, باريس، ١٨٩٣ .

(٨٠) Thierry Hentsch, L'orient imaginaire, La vision politique occidentale de l'Est méditerranéen, Les Editions de Minuit, باريس ١٩٨٨ ;

(٨١) أنظر خاصةً:
Denise Brahimi, Arabes des Lumières et Bédouins romantiques, Le Sycomore ،١٩٨٢، ص ٣٠٠ ;

(٨٢) Louis Veuillot, Les Français en Algérie, Souvenirs d'un voyage fait en 1841, Tours, A. Mame et Cie ،١٨٦٣، ص٣٩٦ ;

(٨٣) نفسه، ص ٥٠ ؛

(٨٤) Masper Philippe Lucas, Jean-Claude Vatin, L'Algérie des anthropologues, Ed. François, ١٩٧٥، ص١٦٣

(٨٥) نفسه، ص ٣٩ ؛

(٨٦) Louis Bertrand, Les Villes d'Or, Afrique et Sicile Antiques, Arthème Fayard, باريس، ١٩٢١ ، المقدّمة، من ص ٦ إلى ص ٩ ;

(٨٧) نفسه، ص ٢٢–٢٣ ؛

(٨٨) Louis Bertrand, Devant l'Islam, Paris, Plon، ١٩٢٦، ص١٩٠ ؛

(٨٩) Louis Bertrand, Vers Cyrène, Terre d'Apollon, Fayard، باريس، ١٩٣٥ ، ص ٢٧٢ ؛

(٩٠) لويس برتران، حيال الإسلام، المرجع المذكور، ص ٥٦ ؛

(٩١) نفسه، ص ١٣٥–١٣٦ ؛

(٩٢) نفسه، ص ٢٣٩ ؛

(٩٣) Jacques Berque, Le Maghreb entre deux guerres, le Seuil, باريس، ١٩٦٢ ، ص ٢٥٢ ؛

(٩٤) مذكور في:
Roger Stéphane, André Malraux, entretiens et précisions, Gallimard, ١٩٨٤، ص ١٦٦ ؛

(٩٥) Albert Camus, La culture Indigène, La Nouvelle Culture Méditerranéenne, Gallimard, la Pléiade, ١٩٦٥، ص ١٣٢١ ;

(٩٦) نفسه، ص ١٣٢٤ ؛

(٩٧) نفسه، ص ١٣٢٤–١٣٢٥ ؛

(٩٨) نفسه، ص ١٣٢٥–١٣٢٦ ؛

(٩٩) Gabriel Audisio, Le Sel de la Mer, Gallimard، ١٩٣٦، ص٥١ ؛

(١٠٠) نفسه، ص٥٧ ؛

(١٠١) نفسه، ص٩١ ؛

(١٠٢) نفسه، ص٩٣–٩٤ ؛

(١٠٣) لوي برتران، حيال الإسلام، المذكور، ص ٤٦ ؛

(١٠٤) غابرييل أوديزيو، المذكور، ص٩٤–٩٥ ؛

(١٠٥) نفسه، ص١٠٣–١٠٤ ؛

(١٠٦) نفسه، ص١١٥ ؛

(١٠٧) نفسه، ص١١٧–١١٩ ؛

(١٠٨) مذكور في: Olivier Mongin, Paul Ricoeur, Le Seuil باريس، ١٩٩٤ ص١٢٠ ؛

(١٠٩) غابرييل أوديزيو، المرجع المذكور، ص١٢٢–١٢٣ ؛

(١١٠) Frédéric Mistral, " A la Race Latine ", في Anthologie de la poésie occitane, par André Berry, Librairie Stock, ١٩٦١, باريس ص ٢٣٨–٢٣٩ ؛

(١١١) المرجع المذكور، Coupo Santo ، ص ٢٤١–٢٤٣ ؛

(١١٢) Jean-Claude Bouvier, Stéréotype de l'étranger méditerranéen dans la littérature provençale au XXème siècle : l'exemple de Frédéric Mistral ;

(١١٣) Frédéric Mistral, Excursion en Italie, traduction de Charles Maurras, Aubier, ١٩٣و١٨٧ باريس ، ص ;

(١١٤) Charles Maurras, Mistral, Aubier، باريس، ص ٩ ؛

(١١٥) نفسه، ص١٢٩–١٣٠ ؛

(١١٦) نفسه، ص ١٢٤–١٢٥ ؛

(١١٧) Charles Maurras, Le Voyage d'Athènes, Flammarion باريس، ١٩٢٩، ص ٢٤–٢٥ ؛

(١١٨) نفسه، ص ١٧٢ ؛

(١١٩) نفسه، ص ٥٦–٥٧، ٥٩ ؛

(١٢٠) نفسه، ص ١٧٨–١٧٩ ؛

(١٢١) نفسه، ص ٢٠١ ؛

(١٢٢) نفسه، ص ٢٠٩؛

(١٢٣) نفسه، ص ٢١٩؛

(١٢٤) Louis Bertrand, L'Invasion, Fasquelle، باريس، ١٩٠٧، ص ٤٢٩ ؛

(١٢٥) نفسه، ط٢ ، منشورات Plon ، ١٩٢١ ، المقدّمة، ص ٤ ؛

(١٢٦) Louis Bertrand, Devant L'Islam, Plon ، ١٩٢٦، ص ٧٢ ؛

(١٢٧) نفسه، ص ٢٥٩ ؛

(١٢٨) Alain Paire, Chronique des Cahiers du Sud, 1914-1966, éditions IMEC، باريس، ١٩٩٣، ص ٧٩ ؛

(١٢٩) Jean Ballard, " Pour Nos Cinquante Ans ", Cahiers du Sud, عددين ٣٧٣–٣٧٤ ص ٢٦ و ٣٢ ؛

(١٣٠) مذكور في ألان بير، المرجع المذكور، ص ٢٣٧ ؛

(١٣١) نفسه، ص ٢٣٨ ؛

(١٣٢) Jean Ballard, "Avant-propos, Le Génie d'Oc et l'Homme méditerranéen" Cahiers du Sud, réédition Marseille, Rivages, ١٩٨١ ، ص ٧ ;

(١٣٣) Jean Ballard, "Avant-propos, Permanence de la Grèce ", Cahiers du Sud, ١٩٤٨، ص ٧ ;

(١٣٤) مذكور في: Emile Témime, "Mecénat et publicité", في Jean Ballard et les Cahiers du Sud, catalogue de la Ville de Marseille, ١٩٩٣، ص ٩٥–١١١، وهنا ص ١٠٠؛

(١٣٥) نفسه، ص ١٠٢؛

(١٣٦) Raymond Poincaré, "Pour un Centre méditerranéen", L'Illustration, عدد ٤٧٧٥، أيلول ١٩٣٤، ص ٣٤؛

(١٣٧) "Paul Valéry" Projet d'organisation du Centre Universitaire Méditer-ranéen (1933) Annales du CUM, ج ١ (١٩٤٦–١٩٤٧)، ص ١١؛

(١٣٨) نفسه، ص ١٣–١٤؛

(١٣٩) بول فاليري، المرجع المذكور، ص ١٦–١٧؛

(١٤٠) Académie méditerranéenne, L'Humanisme et la Méditerranée, Congrès de 1935، موناكو، ١٩٣٦؛ كتيب ٢، ص ٣–٤؛

(١٤١) نفسه، ص ٨ و٩؛

(١٤٢) جان ديستيو، نفسه، ص ٩٠؛

(١٤٣) لوي برتران، نفسه، ص ٩١–٩٢؛

(١٤٤) Jean Desthieux, L'Humanisme et la Méditerranée, كتيب ٤، ص ١٥٣؛

(١٤٥) Gaston Bachelard, La poétique de l'espace, PUF, Quadrige, باريس، ١٩٨٤، ص ٢٠٢، أنظر الترجمة العربية. غاستون باشلار، «جماليات المكان»، ترجمة غالب هلسا، منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠؛

(١٤٦) Claude Farrère, Mes Voyages en Méditerranée, Flammarion باريس، ١٩٢٦، ص ٥–٦؛

(١٤٧) نفسه، ص ٥٥؛

(١٤٨) نفسه، ص ٥٧؛

(١٤٩) Paul Morand, Méditerranée Mer des Surprises, Tours, Mame, ١٩٣٨، ص ٢٢٢؛

(١٥٠) نفسه، ص ١٠ ؛

(١٥١) نفسه، ص ١٥–١٦ ؛

(١٥٢) نفسه، ص ١٨–١٩ ؛

(١٥٣) نفسه، ص ٢١ ؛

(١٥٤) نفسه، ص ٢١٩–٢٢٠ ؛

(١٥٥) مذكور في مجلة "Autre Sud"، أندريه سواريس، العدد الأول، مرسيليا، حزيران / يونيو ١٩٩٨ ، ص ٧ ؛

(١٥٦) André Suarès, Voyage du Condottière, Granit، ١٩٨٤، ص ٤٠ ؛

(١٥٧) André Suarès, Vues sur l'Europe, Grasset, "Les Cahiers Rouges" ١٩٣٩–١٩٩١ ، ص ٨٨ ؛

(١٥٨) نفسه، ص ٣٧ ؛

(١٥٩) نفسه، ص ٥٦ ؛

(١٦٠) نفسه، ص ٨١ ؛

(١٦١) André Suarès, Provence, Textes inédits présentés par Robert Pariente, "Pour Nos Cinquante Ans", Edisud, ١٩٩٣، ص ٢٧ ;

(١٦٢) أندريه سواريس، نص منشور في "Autre Sud" العدد الأول، مرسيليا، ١٩٩٨ ، ص ٤٨ ؛

(١٦٣) Paul Valéry, Oeuvres I, Gallimard, la Pléiade، ١٩٥٧، ص ١٨١٦ ، هوامش. رسالة إلى السيد دويوي، مدير الـ"Petit Méridional" ، بتاريخ ٦ كانون الثاني / يناير ١٩٢٦، وفيها يعترف فاليري بتأثير ذكرياته المتوسّطية في أعماله وأفكاره.

(١٦٤) Paul Valéry, Inspirations méditerranéennes, Pléiade، ص ١٠٩٠؛

(١٦٥) نفسه، ص ١٠٩٢ ؛

(١٦٦) نفسه، ص ١٠٩٢ ؛

(١٦٧) Albert Camus, Hommage, NRF, ١٩٦٧، ص ١٩ ؛

(١٦٨) Albert Camus, "La Mer au plus près", في L'Eté, Pléaide, المرجع المذكور، ص ٨٨٦ ؛ أنظر الترجمة العربية : ألبير كامو، «الغريب وقصص أخرى»، ترجمة عايدة مطرجي ادريس، دار الآداب، ط٢ بيروت ١٩٩٠ ؛

(١٦٩) Albert Camus, L'Homme révolté, Pléiade، ص ٧٠٢-٧٠٣ ؛

(١٧٠) نفسه، ص ٧٠٨ ؛

(١٧١) Albert Camus, Le premier homme, Gallimard، ١٩٩٤، ص ٤٤ ؛

(١٧٢) Jean Grenier, Inspirations Méditerranéennes, Gallimard، ١٩٦١، مع مقدمة كتبت عام ١٩٣٩، ص ١١-١٢ ؛

(١٧٣) نفسه، ص ٣١٨-٣١٩ ؛

(١٧٤) Jean Giono, "La Méditerranée", في Provence, Gallimard, ١٩٩٣ ، ص ٢٥١-٢٥٢ ؛

(١٧٥) أنظر :

"Giuliana Gemelli, Fernand Braudel, Odile Jacob, باريس, ص٣٧٦,

Pierre Daix, Braudel, Flammarion, ١٩٩٥, ص ٥٦٨ ;

(١٧٦) Fernand Braudel (dir.), La Méditerranée. L'Espace et l'Histoire, Arts et Métiers graphiques, ج ١, ١٩٧٧, ص ١٤٣ ;

أنظر الترجمة العربية للجزء الأوّل : فرنان بروديل، «البحر المتوسّط : المجال والتاريخ»، منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٩٠ ؛

(١٧٧) نفسه، ص ١٣٩، ١٤٤، و١٥٦ ؛

(١٧٨) Erato Paris, La Genèse intellectuelle de l'Oeuvre de Fernand Braudel: La Méditerranée et le Monde méditerranéen à l'époque de Philippe II (1923 - 1947), ص ١٠٦ ، باريس، ١٩٩٧ ; (أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه وفق النظام الجديد من معهد الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية في باريس، فرنسا) ؛

(١٧٩) Henri Pirenne, "L'instruction des marchands au Moyen Age", Annales d'Histoire économique et sociale, العدد الأول، ١٩٢٩، ص ١٧ ;

(١٨٠) Henri Pirenne, Mahomet et Charlemagne, PUF, Quadrige,

باريس، ١٩٩٢ ، ص ٢١٥ ؛

(١٨١) Pierre Chaunu, Histoire science sociale. La durée, l'espace et l'homme à l'époque moderne, Sedes, باريس ، ١٩٧٤، ص ٢٠٤ و ٢٤١ ;

(١٨٢) Jean-Louis Triaud, "L'Islam vu par les historiens français", Esprit, تشرين الأول ١٩٩٨، ص ١١٥ ؛

(١٨٣) ورد في إيراتو باريس، المرجع المذكور، ص ٣٢٥ ؛

(١٨٤) نفسه، ص ٣٨١ ؛

(١٨٥) Jacques Rancière, Les noms de l'histoire, Essai de poétique du savoir, le Seuil, Librairie du XXème siecle, باريس، ١٩٩٢ ، ص ١٥٧ ;

(١٨٦) نفسه، ص ١٧٢ ؛

(١٨٧) Georges Duby, "L'Héritage", في La Méditerranée, Les Hommes et l'Héritage, Champs Flammarion, ١٩٨٦، ص١٩٣ ;

(١٨٨) نفسه، ص١٩٤؛

(١٨٩) Georges Duby, "La Méditerranée du pauvre", L'ARC, العدد ٥، إكس أن بروفانس، ١٩٥٩؛

(١٩٠) Gérard Chastagnaret, Robert Ilbert, "Quelle Méditerranée?" XXème siècle, تشرين الأول– كانون الأول، ١٩٩١ ص ٣ ;

(١٩١) نفسه، ص ٤ ؛

(١٩٢) جيرار شاستانياريه وروبير إلبير، مشروع مقدّم لنيل جائزة فيليب موريس، نصّ مستنسخ، ص ١٤ ؛

(١٩٣) Jean Carpentier et François Lebrun (dir.), Histoire de la Méditerranée, Le Seuil, باريس، ١٩٩٨، ص ٦٢٤ ;

(١٩٤) نفسه، ص ٥٠٨ ؛

(١٩٥) نفسه، ص ٥١٠ ؛

(١٩٦) Pierre Renouvin, Histoire des Relations internationales, T.V, de 1815 à 1871, ج٥, Hachette, ١٩٥٤ ;

(١٩٧) Prevost-Paradol, La France Nouvelle, 1868, Slatkine,

طبعة ثانية ، ١٩٧٩، ص ٤١٦ ؛

(١٩٨) Paul Imbart de la Tour, L'expansion de la France en Méditerranée, Alliance française، محاضرة ألقيت في بوردو، يوم الجمعة في ٩ نيسان / إبريل ١٨٨٦ ؛

(١٩٩) René Pinon, L'Empire de la Méditerranée, Librairie Académique Perrin, ١٩١٢ ، ص ٤٧٨ ;

(٢٠٠) رينيه بينون، المرجع المذكور، ص ١٢–١٣ ؛

(٢٠١) نفسه، ص ١٤–١٦ ؛

(٢٠٢) نفسه، ص ٢٠ ؛

(٢٠٣) نفسه، ص ٩١ ؛

(٢٠٤) Marcel Homet, Méditerranée Mer Impériale, Ed. de la Nouvelle Revue Critique, باريس، ١٩٣٧، ص ٢٢٦ ;

(٢٠٥) نفسه، ص ٩–١١ ؛

(٢٠٦) André Siegfried, Vue Générale de la Méditerranée, Gallimard, ١٩٤٣، ص ٧ ؛

(٢٠٧) نفسه، ص ١٠–١١ ؛

(٢٠٨) نفسه، ص ١٣ ؛

(٢٠٩) نفسه، ص ١٨٠ ؛

(٢١٠) نفسه، ص ١٨٧–١٨٨ ؛

(٢١١) نفسه، ص ١٨٨ ؛

(٢١٢) مقتطف من خطاب فيليكس غايار أمام الجمعية الوطنية، نشر في صحيفة «لوفيغارو»، ١٠ آذار / مارس ١٩٥٨ ؛

(٢١٣) صحيفة "Le Petit Matin" (الفجر)، عدد ١١ آذار / مارس ١٩٥٨، صحيفة «الدستور الجديد» باللغة الفرنسية، مذكور في عدد ٠٦٢٩، Articles et Documents ، الوثائق الفرنسية ؛

(٢١٤) Albert Mousset, "Le plan Félix Gaillard, Une nouvelle conception de l'équilibre méditerranéen", Le Monde, ١٢ آذار ١٩٥٨ ;

(٢١٥) Paul Auphan, Histoire de la Méditerranée, Plon، باريس، ١٩٦٢ ، ص ١٦ ؛

(٢١٦) نفسه، ص ١٢١ ؛

(٢١٧) نفسه، ص ٢٧٩ ؛

(٢١٨) نفسه، ص ٣٦٩ ؛

(٢١٩) أورده

Maurice Vaisse, La Grandeur, Politique étrangère du général de Gaulle, 1958-1969, Fayard, ١٩٩٨، ص ٣٤ ;

(٢٢٠) Jean Lacouture, "La Politique française en Méditerranée", Le Monde Diplomatique, Février 1970 (شباط / فبراير ١٩٧٠) ;

(٢٢١) Jacques Fauvet, "Une politique méditerranéene?", Le Monde, ٢٤ كانون الأول ١٩٧٠ ؛

(٢٢٢) تصريح نشرته «لوموند» في ٢١ حزيران / يونيو ١٩٧١ ؛

(٢٢٣) فاليري جيسكار ديستان، مداخلة حول السياسة الدولية الفرنسية في ٢٦ شباط/فبراير ١٩٨٠، الوثائق الفرنسية ؛

(٢٢٤) المرجع المذكور، خطاب ألقي في مرسيليا، في ١٥ نيسان / إبريل ١٩٨١، في سياق الحملة الانتخابية الرئاسية ؛

(٢٢٥) فرنسوا ميتران، خطاب أمام المجلس التمثيلي، الرباط، في ٢٧ كانون الثاني / يناير ١٩٨٣، الوثائق الفرنسية ؛

(٢٢٦) Jacques Huntzinger, Premier Forum méditerranéen, Ed. Echanges Méditerranée، مرسيليا، ١٩٨٨، ص ١ ;

(٢٢٧) Jacques Huntzinger, Les trois dimensions des relations méditerranéennes éditions TSA, 2e Forum méditerranéen, ص ١٥–١٦ ;

(٢٢٨) فرنسوا ميتران، القمة الفرنسية الإيطالية في ٢٨ كانون الثاني / يناير ١٩٨٦، الوثائق الفرنسية ؛

(٢٢٩) فرنسوا ميتران، مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا، باريس، من ١٩ إلى ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠، الوثائق الفرنسية ؛

(٢٣٠) فرنسوا ميتران، مقابلة لصحيفة La Vangardia و Dépêche du midi،

في ١٣ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٠، الوثائق الفرنسية ؛

(٢٣١) جاك سانتر، باريس، ٣ شباط / فبراير ١٩٩٥، الوثائق الفرنسية ؛

(٢٣٢) صيف ١٩٥٧، العدد الأول، Etudes méditerranéennes التمهيد، ص ١ ؛

(٢٣٣) Jacques Berque, l'Orient second, Gallimard ،١٩٧٠ ;

(٢٣٤) جاك بيرك، «مقابلة مع جان دانيال»، «لونوفيل أبسرفاتور»، ١٧ نيسان / إبريل ١٩٧٨ ؛

(٢٣٥) Jacques Berque, Andalousies, Sindbad ، ١٩٨١، ص ٤٣ ؛

(٢٣٦) Jacques Berque, L'Islam au défi, Gallimard ، ١٩٨٠، ص ٣٠٣ ؛

(٢٣٧) Jacques Berque, Mémoires des deux rives, Le Seuil ، ١٩٨٩، ص ٢٨٠ ؛

(٢٣٨) Jacques Berque, Ouverture sur la retrouvaille des Eurydices, Rencontre d'Hydra, مجموعة نصوص الـ ADEC، أيار / مايو ١٩٨٢، ;

(٢٣٩) نفسه ؛

(٢٤٠) جاك بيرك حوار مع تييري فابر، «بين أوروبا والإسلام، المتوسّط»، نشر في Mediterraeans ، العدد الأول، صيف ١٩٩١ ؛

(٢٤١) نفسه ؛

(٢٤٢) Paul Balta, "Itinéraire d'un Méditerranéen", Revue Passerelles, تيونفيل، عدد ٥، خريف ١٩٩٢ ؛

(٢٤٣) Paul Balta, "L'Euro-Méditerranée, une nouvelle géopolitique", Le Trimestre du Monde, الفصل الثالث، ص ٧–٨ ;

(٢٤٤) Robert Bistolfi (dir.), Euro-Méditerranée, une région à construire, Publisud, ١٩٩٥ ;

(٢٤٥) نفسه، ص٧–٨ ؛

(٢٤٦) Edgar Morin, "Penser la Méditerranée", La Métis، العدد ٧، تشرين الأول، ١٩٩١ ؛

(٢٤٧) Edgar Morin, "Penser la Méditerranée et méditerranéiser la pensée", نص مستنسخ، ص ٨ ؛

(٢٤٨) نفسه، ص ١٠ ؛

(٢٤٩) Sami Naïr, "le Différend Méditerranéen", Lettre internationale, خريف ١٩٩١ ؛

جان كلود إيزو

المتوسَطُ، شذَرات

ترجمه عن الفرنسية بسام حجّار

لدى نزوله في القاهرة، كتب فلوبير إلى صديق قائلاً : «لقد أيقنت أنّ الأشياء المتوقّعة قلّما تقع». ففي مدن المتوسّط غالباً ما تكون الحال على هذا النحو. إذ لا نعثر البتّة، في تمامه، على ما جئنا نبحث عنه. وذلك، من دون ريب، لأنّ هذا البحر والموانئ التي أنجبها، والجزر التي يحتضنها وخطوط شطآنه وأشكالها، تجعل الحقيقةَ لصيقةً بالمسرّة. ثمالة النور نفسها إنّما تستثير فيه روح التأمّل.

لقد خبرتُ هذا في موطني، في مرسيليا. على مقربةٍ من خليج «السانج»، بعد ميناء «الغود» الصغير، إلى أقصى جنوب المدينة. كنت لساعات طوال أرقب عبور المراكب عائدة من رحلات الصيّد عبر مجرى السفن السياحية. هناك فقط، وليس في أي مكان آخر، تبدو لي، وسوف تبدو لي على الدوام، هي الأبهى. ولساعاتٍ أخرى كنت أرقب تلك اللحظة، السّاحرة في حلولها، عندما تدخل سفينة شحن في ضياء الشمس الغاربة على البحر وتغيب في كنفه لثوانٍ. لحظة كافية لأن تؤمن فيها بأنّ كلّ شيء ممكن.

هنا، يبطل الفكر. فقط إثر ذلك يكون فكرٌ. فقط إثر ذلك نفكّر في ساعات الحياة تلك، كلّها، الساعات التي كان ينبغي لنا أن نتعلّم فيها، وتلك التي فيها كان ينبغي لنا أن ننسى.

من المؤكّد أنّه يندر أن تنقضي حياة بأسرها على هذا النحو، في غمرة التأمّل. كتب جان غرونييه ذات يومٍ قائلاً : «إنّ البدوي يرى الواحةَ أرضَ ميعاده، ويرى حياته تعاقب ترحالٍ شاقٍ ومباهج. الواحة له هي المدينة».

على هذا المنوال كانت أسفاري. من واحة إلى واحة. من طنجه إلى إستانبول ؛ من مرسيليا إلى الإسكندرية، ومن نابولي إلى برشلونه. وكلّ واحدة من هذه المدن ذات الشوارع الضيّقة المتعرّجة الضاجّة بالناس، بذلت لي ألوانها وثمارها وأزاهيرها وإيماءات

رجالها ونظرة نسائها. حتّى صار بإمكاني ذات يوم أن أنطق بحقيقةٍ جوهرية واحدة، بلى، أعشق هذه المدن المتوسطية حيث يشعر المرء كما لو أنّه منساقٌ إلى نوازعه.

متوسّطي أنا لا ينتمي إلى البطاقات البريدية. فالغبطة أبداً لا تُمنَح، بل هي تُبتكر. ليس لكلّ المسافرين الأهواء نفسها. هناك من يسافر لكي يرى، وهناك من يسافر لكي يستمتع. أو للغرضين معاً. ولكن يكفي أن تستقلّ، لمرّة واحدة على الأقل، حافلةً تقلّك إلى واحة، نائية وسط الرمال، لكي تدرك أنّ هنا، في المتوسّط، كلّ شيءٍ سوف يُعطى شريطةَ أن تريده وأن تبسط نحوه بصرَك ويديك.

في بِسكْره، ذات مساءٍ من الهبوب الحارّ، كانت رائحة غبار وقهوة، ودخانِ موقد لنار الألياف، رائحة الحجر، ولحم الخروف، كانت سائدةً لدى وصولي. فملكتها. كما قد يهب المرء نفسَه المناظرَ التي يشاهدها.

هذا ما هو جوهريّ، عندما نسافر على طول هذه السواحل، أن نهب أنفسنا ما لا نستطيع أن نحمله معنا، ما لا يوجد إلاّ في اللحظة التي ننظر فيها، وما لا ينتمي إلى الذكريات بل إلى غبطة العيش. حفنة من لا شيء، كرعشة الضوء الأخيرة قبيل الظهر، على سبيل المثال. لأنّ الحياة، كما قد تقول ليلى، «هي حفنةٌ من لا شيء».

هكذا أذكر عصر ذاك اليوم في وهران. كنت قد هجرت ضوضاء وسط المدينة، وذهبت لتسلّق هضبة البلانتور. حتّى سانتا كروز. وكنت كلّما تسلّقت صعداً ازداد الأفق ابتعاداً. كانت السماء تتقعّر. ولاحت لي المدينة، ثمّ المدينة والبحر، ومن ثمَّ المدينة والبحر والبحيرة وجبل تلمسان.

لا أدري عمَّ جئت أبحث في سانتا كروز، في ذلك اليوم. غير أنّ ما وجدته كان يرضيني. سَكِينة. ربّما لأنه لم يكن عليّ إلاّ أن أغمض عينيّ لكي يمتزج المنظر بي. لكي يصير ملكي، فأعلم أنه، منذ تلك اللحظة، سوف يلازمني حيثما أذهب.

علمت فيما بعد في موانىء أخرى وفي مدن أخرى من هذا المتوسّط، أنّ الأمر سيكون دائما على نحو ما كان. وأنّ ما اكتشفته هناك لم يكن ذاك المتوسّط المعلّب الذي يسوّقه فيما بيننا تجّار الأسفار والأحلام الهيّنة. وأن ما كان يهبه هذا البحر ليس أكثر من مسرّة ممكنة. ما كان يهبني إياه. وأنه، بأية حال، من المؤكّد أن الأمر سوف يبقى على هذا النحو.

هكذا صنعت لنفسي، بمضيّ الأعوام، جغرافيا للمسرّات الممكنة.

بيبلوس تنتمي إلى هذه الجغرافيا. كان يزيد، وهو صيّاد التقيته عند الميناء الصغير، قد روى على مسامعي أسطورة أدونيس. أسطورة فينيقية. في أول يوم من أيام الربيع مات أدونيس عند منبع النهر الذي يحمل اليوم اسمه، بين ذراعي عشتروت. وقد أنبت دمه شقائق النعمان وصبغ بالأحمر مياه النهر المعتكرة. وإذ ذاك انهمرت دموع عشتروت كالمطر الغزير على الخضرة المنبعثة وأعادت الحياة إلى حبيبها. وقد شيّد الفينيقيون معبداً عند سفح مغارة أفقا تخليداً لعشتروت.

كنت قد جئت لزيارة هذا المعبد. معبد الحب. معبد الوفاء. وكنت وحدي. بيروت، بصخبها، تقع على بعد أربعين كيلومتراً، أمّا جونيه ومتع شاطئها التي تشبه كلّ المتع، كانت بعيدة هي أيضاً. ولم أكد أخطو خطواتي الأولى في المدينة حتّى عادت بيبلوس، كما أسميها أنا، لتكون هي جبيل، إحدى أقدم مدن العالم.

لم يصحبني يزيد. والدرب المفضي إلى المعبد كان لي، أنا، وحدي. كما كانت، منذ بضعة أشهر، نزهاتي المستوحدة في التشينكويتيرّي، من قمة ميسكو إلى قمة سان بييترو. لقد استسلمتُ للسير متنقلاً من بلدة إلى بلدة : مونتيروسو آل ماري، فرناتسا، مانارولا، روماجيوري.

مجرّد ذكر هذه الأسماء هو، في حدّ ذاته، مسرّة. لا يسعك أن تضلّ الطريقَ في بلداتٍ صغيرة مثل هذه، ومع ذلك كانت تلك هي

المتعة الحقّة، أن تضلّ طريقك في تلك المتاهة حيث تتراصف عدة مستويات من الأزقة المعتمة، الضيقة، المؤلّفة كلّها أحياناً من سلالم متصلة.

لكنّك تعلم جيداً أنك في وقتٍ ما سوف تسلك مجدداً باتجاه البحر. حتماً. كلّ واحدة من هذه البلدات أنشئت عند طرف أحد الوديان الخمسة، تولي الجبل ظهرها وتواجه البحر الأبيض المتوسط. وهي، بأية حال، بقيت لفترة طويلة لا يمكن بلوغها إلاّ بواسطة المراكب. ويبدو أن ذاكرة البحر هذه قد انحفرت على هياكل المراكب، حين تتكشّف، وقد قلبت على الشاطىء لطلائها، عن قوقعةٍ التصقت بطرف الجؤجؤ.

أنا اخترت لكي أبلغها، أن أسلك درب الحب. لا فيا ديلاّموري. وهو السبيل البرّي الوحيد الذي يفضي إلى تلك البلدة في روماجيوري. طريق محفورة في الصخر ومطلّة من علوّ شاهق على البحر، تخترق التلال المزروعة بالكرمة. فتراودك الرغبة في ملامسة هذه الطبيعة حتّى الخاصرتين الغارقتين في المياه.

كان ذلك أواخر الربيع. في المواقيت التي لا يكون النور فيها قد صار صفيقاً بعد. صور أخرى تدفّقت في ذهني. الصدفة الذهبية في باليرمو، حيث تعرف الشمس كيف تنسكب طيلة النهار كزهرةٍ في إناء. جميلة، حيث يسود صمت ثقيل لا صدَعَ فيه، بصحبة تلك المرأة التي تعدو، كما في قصّة لكامو، نحو الليل المنجّم الذي سيعيد إليها الدَعةَ أخيراً. روندا، الجبلية الأندلسية، المتشبّثة بالسماء، والتي استطاعت أن تشفي النهك العصبي الذي كان يعاني منه راينر ماريا ريلكه. خليج سلامينا الأزرق عندما نطلّ عليه من نصب فيلابابوس، بين التلال الجرداء والسهول المكسوة بالحصباء.

كنت أجيل البصرَ بحثاً عن جزيرة ألبا، فانبثقت جزر أخرى. بركان سانتورين الذي ينبثق من بحرٍ بمثل شفافية البلّور. رأس

سونيوم، وبسارا الضيقة الأرجاء التي يهبّ عليها الغبار كما تهبّ الرياح، وسيمي، جزيرة الإسفنج، المتشبّثة بجبل سيغلوس.

تلك الأرض الإيطالية حدّثتني، فجأةً، باليونانية. ذلك من دون ريب لأنّ في اليونان، كما قال جان غرونييه، «صداقة بين المعدن والبشر». ولأنّ المتوسّط ليس إلاّ هذا، دعوة للمصالحة.

هناك، ساهيَ النظرة - مستهامها - أذكر أني قلت في سرّي إنّ ما من شيء أبهى، ما من شيء أوفر دلالة لمن يعشق، بالمقدار نفسه، افريقيا والمتوسّط، من الاستغراق في تأمّل اتحادهما عبر هذا البحر. ولمّا عدت أدراجي مساءً إلى فرناتسا، أكّد لي ذلك بيرق البلدة بهلاله العربي.

عندئذ لم يبقَ إلاّ الذهاب إلى جزر الأمراء (جزر البرانس)، على بعد بضع مئات من الأمتار عن استانبول. الجزر الحمر - «كيزيل أدالار» بالتركية. كنت أعلم أن المياه رقراقة هنا، في جون كلبازنكايا. غير أني لم أقصد هذا المكان لغرض السباحة فقط ولا حتّى لتذوّق ألذ صنوف الـ «تندير كباب» - لحم الخروف المشوي في فرن من الطين. وإنما جئت طلباً لغبطة أن أجدني بين ماءين، بين عالمين. بين شرق وغرب، وأكتشف أن هذا البحر ليست له ضفتان بل ضفّة واحدة، وهي ضفتنا.

متوسّط المسرّات الممكنة: المتوسّطُ، شذراتٍ. بلى، على الدوام. لأنّه حتّى في أعتى الحروب، والمآسي، كما في الجزائر اليوم، سوف ندرك، لكي نستعير عبارات كامو في تيبازا، «ما الذي أسميناه مجداً : إنّه الحق في الحبّ دونما حساب».

تصوّرات

البحر الأبيض المتوسط

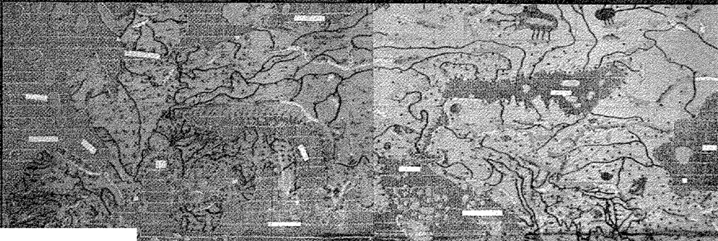
بإشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

عندما نتكلّم على المتوسط، لا نتكلّم على الشيء نفسه إذا نظرنا إليه من إيطاليا أو أسبانيا أو اليونان أو فرنسا أو مصر أو لبنان أو المغرب... ذلك أن تصورات المتوسط بنيت في كلّ مكان من هذه الأمكنة على طبقات تاريخية وثقافية مختلفة. وكان الغرض من هذا العمل «تصوّرات البحر الأبيض المتوسط» هو استكشاف هذه الأنساب المتنوّعة لفكرة المتوسّط.

هذه النصوص ليست سوى نتاج عمل عشرة باحثين وعشرة كتّاب من بلدان المتوسط هي المغرب وتونس ومصر ولبنان وتركيا واليونان وإيطاليا وأسبانيا وفرنسا وألمانيا مدة سنتين لاستكشاف متخيّل هذه المساحات أو تلك الخرائط الذهنية الماثلة، والأصداء التي يوقظها ذكر هذا البحر حيث تلتقي ثلاث قارات، وثلاثة أديان كبرى وتنوّع قلّ مثيله من اللغات والعقليات: المتوسط كبحيرة سلام، أو، على العكس، كأفق لمواجهة محتملة؟ مكان انفتاح أو حدّ انطواء؟ قيم مشتركة أم احتدامٌ للفروق؟ والتساؤل نفسه، من شأنه أن يثير الاهتمام أو الازدراء أو الحذر...

تييري فابر مسؤول في بيت المتوسط لعلوم الإنسان حيث أشرف على برنامج البحث حول «تصورات البحر الأبيض المتوسط». وهو يتولى حالياً رئاسة تحرير مجلة : «La pensée de midi».

جان كلود إيزو (توفي في عام ٢٠٠٠)، كاتب فرنسي ولد في مرسيليا، أصدر رواية متوسطية الطابع بعنوان: «البحارة المفقودون» وكان آخر ما صدر له، قبل وفاته بأشهر قليلة : «شمس المائتين».



ISBN: 9953-422-41-9

...ad
...auer-
...ing

THALASSA